http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } ؛ أي هو الْغَالِبُ لعبادهِ الْمُسْتَعْلِي عليهم بالقدرَةِ ، وليس معنى (فَوْقَ) معنى المكان ؛ لاستحالةِ إِضافَةِ الأماكنِ إلى الله ، وإنَّما معناهُ الْغَلَبَةُ والقدرةُ ، ونظيرهُ : فلانٌ فَوْقَ فلانٍ في العلمِ ؛ أي أعْلَمُ منهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً } ؛ معناه : وَالْمُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، فاكتفَى بالفعلِ عن الاسم. وَالْحَفَظَةُ : هُمُ الْمَلاَئِكَةُ يحفظونَ على العبادِ أعمالَهم على ما تقدَّم.

وقد وردَ في الخبرِ : أن على كلِّ واحدٍ منَّا ملَكين بالليلِ ؛ وملَكين بالنهار ، يكتبُ أحدُهما الحسناتِ ؛ والآخرُ السيِّئاتِ ، وصاحبُ اليمينِ أميرٌ على صاحب الشِّمال ، فإذا عَمِلَ العبدُ حسنةً ؛ كتبَ له بعَشْرِ أمثالِها ؛ وإذا عَمِلَ سيِّئةً فأرادَ صاحبُ الشِّمال أن يكتبَ ؛ قال له صاحبُ اليمين : أمْسِكْ ، فيمسِكُ عنه ستِّ ساعاتٍ أو سبع ساعات ، فإنْ هو استغفرَ اللهَ تعالى ؛ لم يكتُبْ عليه ، وإن لم يستغفرْ يكتب عليه سيِّئةً واحدةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ } معناه : حَتَّى إذا حضرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ؛ قبضَ روحَهُ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه ، وَهُمْ لا يقصِّرونَ ولا يؤخِّرونَه طرفةَ عينٍ ، فإن قيلَ : كيفَ هنا { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } وقال في آيةٍ أخرى : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ }[السجدة : ١١] ؟ قيلَ : إنَّ مَلَكَ الموتِ هو الذي يقبضُ الأرواحَ كلَّها وهو القائمُ بذلك ؛ إلا أنَّ له أعواناً ؛ فتارةً أضافَ قبضَ الروحِ إلى مَلَكَ الموتِ ؛ لأنه هو المختصُّ بذلك ، وتارةً أضافَهُ إليه وإلى غيرِه ؛ لأنَّهم يَصْدُرُونَ في ذلك عن أمرِه.

وقال مجاهدُ : (جُعِلَتِ الأَرْضُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ كَالطَّشْتِ يَتَنَاوَلُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ ، ولَهُ أعْوانٌ يَتَوَفَّوْنَ الأَنْفُسَ ، ثُمَّ يَقْبِضُهَا مِنْهُمْ). ويقالُ : إنَّ أعوانَ مَلَكِ الموت يستخرجون الروحَ من الأعضاءِ عُضْواً عُضْواً ، حتى إذا جَمَعُوهُ في صدرهِ وجعل يُغَرْغِرُ به ؛ قبضَهُ حينئذٍ مَلَكُ الموتِ.

وقد رويَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ دَخَلَ عَلَى مَرِيْضٍ يَعُودُهُ ، فَرَأَى مَلَكَ الْمَوْتِ عِنْدَ رَأسِه ؛ فقَالَ : " يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ؛ ارْفُقْ بِهِ ، فإِنَّهُ مُؤْمِنٌ ، فقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ : يَا مُحَمَّدُ ؛ أبْشِرْ وَطِبِ

نَفْساً وَقَرَّ عَيْناً ؛ فإِنِّي بكُلِّ مُؤْمِنٍ رَفِيْقٌ ، إنِّي لأقْبضُ رُوحَ الْمؤْمِنِ فَيُصْعَقُ أهْلُهُ فَأعْتَزِلُ فِي جَانِبِ الدَّار ، فأَقُولُ : مَا لِي مِن ذنْب ، وَإِنِّي لَمَأْمُورٌ ، وَإِنَّ لِي لَعَوْدَةً فَالْحَذرَ الْحَذرَ ، وَمَا مِنْ أهْلِ بَيْتِ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ، فِي بَحْرٍ أو بَرٍّ ، إلاَّ وأَنَا أتَصَفَّحُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، حَتَّى أنِّي لأَعْلَمُ بصَغِيْرِهِمْ وَكَبِيْرِهِمْ مِنْهُمْ بأَنْفُسِهِمْ ، وَاللهِ لَوْ أَرَدْتُ أنْ أقْبضَ رُوحَ بَعُوضَةٍ لَمَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَأْمُرَنِي اللهُ تَعَالَى بقَبْضِهَا ".

(٠/٠)

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ } ؛ أي ثم ردَّهُمُ الملائكةُ إلى الموضعِ الذي لا يَمْلِكُ أحدٌ الحكمَ فيه إلا اللهُ تعالى : وقولهُ : { مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ } أي مَوْلاَهُمُ من كلِّ جهةٍ ، فإنهُ يَمْلِكُ خلقَهم وإنشاءَهم وتربيتَهم وإماتتهم وإحياءَهم وضُرَّهم ونفعَهم ، وهو الذي دَبَّرَ في الابتداء أمرَهم حيث أنشأهم. ومعنى قولهِ تعالى : { مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ } أي الذي عِبَادَتُهُ حقٌّ ، ويعطي الثوابَ الحقَّ ، ويتولَّى العقابَ بالحقِّ ، وقيل : إنَّ هذه أرجَى آيةٍ في كتاب اللهِ تعالى ؛ لأنه لا مَرَدَّ للعبدِ أحسنُ من مَرَدِّهِ إلى مَوْلاَهُ.

قَوْلَهُ تَعَالَىَ : { أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ } ؛ كلمة بَيِّنَةٌ ؛ أي اعلمُوا أنَّ بَيِّنَةَ القضاءِ بين العباد يومَ القيامة يحكمُ فيهم ما شاءَ وكيف شاءَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } ؛ إذا حاسَبَ فحسابهُ يسيرٌ سريعٌ ؛ لأنه لا يحاسبُ بحقد ولا يتكلَّمُ بآلةٍ ، ولا يَحْجُزُهُ الكلامُ مع بعضِهم عن الكلامِ مع غيرهم ، بل يحاسِبُ الجميعَ في دُفعة واحدةٍ. ومعنى الْمُحَاسَبَةِ : تَعْرِيْفُ كُلِّ وَاحِدٍ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَوَابٍ أوْ عِقَابٍ ؛ حَتَّى رُوِيَ فِي الْخَبَرِ : أنَّهُ يَكُونُ حِسَابُهُ فِي مِقْدَار حَلْب شَاةٍ.

(٠/٠)

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد : مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ شدائد الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وأهوالِهما. تقولُ العرب لليوم الذي فيه شدَّة : يَوْمٌ مُظْلِمٌ ؛

حتى أنَّهم يقولون : يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ ؛ إذا اشتدَّت ظلمتهُ حتى صارَ كالليل. ويقال : أرادَ بالظلمات ظلمةَ الليل ، وظلمةَ الغيمِ ، وظلمة الأمواجِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } أي تدْعُونَهُ علانيةً وسرّاً ، والتَّضَرُّعُ : إظْهَارُ الضَّرَاعَةِ ؛ وَهِيَ شِدَّةُ الْفَقْرِ وْالْحَاجَةِ إلَى الشَّيْءِ. وقرأ أبو بكرٍ : (وَخِفْيَةً) بكسرِ الخاء ، وقرأ الأعمشُ : (وَخِيْفَةً) من الخوفِ كما في آخرِ الأعراف.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَاذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } ؛ في موضعِ الحال ؛ معناهُ قائلين : لَئِنْ أنجَيتنا مِنْ هَذِهِ الشدائد لَنَكُونَنَّ مِنَ المؤمنينَ الموحِّدين المطيعين. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ } ؛ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ من شدائدِ البرِّ والبحر ومن كلِّ غَمٍّ ، { ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ } ؛ بهِ الأصنام في الرَّخاءِ بعد النجاةِ ، وبعد قيامِ الحجَّة عليكُم.

(٠/٠)

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ } ؛ راجعٌ إلى مشركي مكَّة ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد : { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ } كما بعثَ على قومِ نوحٍ ولُوطٍ من الطوفانِ والحجَارة ، { أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } ؛ أي هو القادرُ على أن يَخْسِفَ بكم ، كما فعلَ بقَارُونَ وقومِه. ويقالُ : أراد بقوله : { عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ } الظلمةَ ، { أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } أو يُغَلِّبَ عليكم سفهاءَكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } ؛ معناه : أو يَخْلِطَكُمْ فِرقاً مختلفِي الأهواء ، بأن يضربَ بعضَكم ببعضٍ بما يلقيهِ بينكم من العداوةِ. وقيل : معنى : { يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } يَكِلُكُمْ إلى أنفسِكم ويُخْلِيْكُمْ من الطاعةِ بذنوبكم ؛ فتختلفُوا حتى يذوقَ بعضُكم شدَّة بعضٍ بالحرب والقتال. وقالَ : { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } ؛ يعني بالسيُّوف يَقْتُلُ بعضُكُمْ بعضاً.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ } ؛ أي انظُرْ يا مُحَمَّد كيف نُبَيِّنُ لَهم الآيةَ على إثْرِ آيةٍ ، { لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } ؛ أي لكي يَفْقَهُوا أوامرَ اللهِ ، ثم هم لا يفقهون.

قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؛ شُقَّ ذلِكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فقَالَ : " يَا جِبْرِيْلُ ، مَا بَقَاءُ أُمَّتِي عَلَى هَذِهِ الْخِصَالِ الأَرْبَعِ؟! " فَقَالَ : إنَّمَا أنَا عَبْدٌ مِثْلُكَ ، فَادْعُ رَبَّكَ وَاسْأَلْهُ لأُمَّتِكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فَتَوَضَأَ وَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ؛ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى وَأَحْسَنَ الصَّلاَةَ

؛ ثُمَّ سَأَلَ اللهَ أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أُمَّتِهِ عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ ، وَلاَ يُلْبسَهُمْ شِيَعاً ، وَلاَ يُذِيْقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، فَنَزَلَ جِبْرِيْلُ عليه السلام ؛ فَقَالَ : يَا مُحَمَّد ؛ إنَّ الله قَدْ سَمِعَ مَقَالَتَكَ ، وَإنَّهُ قَدْ أَجَارَهُمْ مِنْ خِصْلَتَيْنِ : أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ عذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ ، وَلَمْ يُخْرِجْهُمْ مِنَ الْخَصْلَتَيْنِ الأُخْرَتَيْنِ ".

وقال صلى الله عليه وسلم : " سَأَلْتُ رَبِي أنْ لاَ يَبْعَثَ عَلَى أُمَّتِي عَذاباً مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَلاَ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِهِمْ ؛ فأَعْطَانِي ذلِكَ. وَسَأَلْتُهُ أنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ ، فَمَنَعنِي ذلِكَ ، وَأخْبَرَنِي جِبْرِيْلُ أنَّ فَنَاءَ أُمَّتِي بالسَّيْفِ ".

(٠/٠)

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ } ؛ أي كذب بالْقُرْآنِ قومْك وهو الصدقُ ، { قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } ؛ أي بحفيظٍ أحفظُ أعمالَكم وأجازيَكم عليها ، وقيل : معناهُ : لستُ أقدِرُ أن أحُولَ بينَكم وبين الكفرِ الذي يضرُّكم ، كما يدفعُ الوكيلُ الضررَ عن موكِّله. وعن ابْنِ عبَّاس : (أنَّ مَعْنَاهُ : لَسْتُ بمُوَكَّلٍ عَلَيْكُمْ ؛ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الإِيْمَانِ ، قَالَ : ثمَّ نُسِخَ هَذا بآيَةِ السَّيْفِ).

(٠/٠)

لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ } ؛ معناهُ : لِكُلِّ وَعْدٍ وَوَعِيْدٍ وقتٌ ، وأجلُ غايةٍ ؛ منهُ ما يكون في الدُّنيا ، ومنه ما يكون في الآخرةِ ، { وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ، يا أهلَ مكَّة ذلكَ إذا نَزَلَ بكم.

(٠/٠)

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ } ؛ معناهُ : وإذا رأيتَ المشركين الذين يكذِّبون ويستهزِئون بكَ وبالْقُرْآنِ { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } أي اتْرُكْهُمْ ولا تجالِسْهم على وجهِ الإنكار عليهم ، إلا أنْ يتركُوا استهزاءَهم ويَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ. وذلكَ أن المشركينَ كانوا إذا جالسُوا المؤمنين ؛ وَقَعُوا في رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسبُّوه واستهزؤا بهِ ، فنهَى اللهُ المؤمنينَ عن مُجَالَسَتِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ معناهُ : وَإِمَّا يوقعنَّك الشَّيْطانُ في النِّسْيَانِ بَعْدَ النهي فتجلسَ معهم ، فلا شيءَ عليك في تلك الحالِ التي تكون فيها ناسياً ، فلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ قَوْمٍ إذا ذكرتَ ، ودَعْ مجالسةَ المشركين فتأثَم. قرأ ابنُ عبَّاس وابن عامرٍ : (يُنْسِيَنَّكَ) بالتشديدِ.

فلما نزلت هذه الآيةُ قال المسلمون : يا رسولَ اللهِ ؛ لَئِنْ كُنَّا كلما استهزأ المشركون بالْقُرْآنِ قُمْنَا وتركناهم ، لا نستطيعُ أن نجلسَ في المسجدِ الحرام ، ولا أن نطوفَ بالبيتِ ؟ فنَزل قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ } ، أي ما على الذين يَتَّقونَ الشركَ والمعاصي والخوضَ في آثامِهم ، ومخالفتِهم أمرَ الله من شيء من العقاب. { وَلَاكِن ذِكْرَى } ؛ أي ولكن ذكِّروهم بالْقُرْآنِ ذِكْرَى إذا فعلُوا وَعِظُوهُمْ ، { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ؛ الشركَ والاستهزاءَ والخوضَ. فموضع (ذِكْرَى) نَصْبٌ على المصدر ، ويجوزُ أن يكون في موضعِ رفعٍ ؛ أي هُوَ ذِكْرَى.

(٠/٠)

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاوةُ الدُّنْيَا } ؛ أي ذر الْكُفَّارَ الذين اختارُوا في أنفسهم اللَّعِبَ والباطلَ والاستهزاء. ويقال : معناهُ : الذين اتَّخذوا دينَهم بهوى أنفسهم ،

ومن اتَّخذ دينَهُ بهوى نفسهِ فهو لاعبٌ. وقال الفرَّاء في معنى الآية : (لَيْسَ مِنْ قَوْمٍ إلاَّ وَلَهُمْ عِيْدٌ يَلْهُونَ فِيْهِ ، إلاَّ أمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَإنَّ أعْيَادَهُمْ صَلاَةٌ وَتَكبِيْرٌ وَبرٌّ وَخَيْرٌ). وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاوةُ الدُّنْيَا } معناه : وَشَغَلَتْهُمُ الحياة الدُّنيا بما فيها من زهرتِها وزينتِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } ؛ أي ذكِّرْ بالْقُرْآنِ وعِظْ بهِ كراهةَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بمَا كَسَبَتْ. ويقال : قَبْلَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ. ويقال : لئلا تُبْسَلَ نَفْسٌ ؛ أي لئلا تَهلِكَ نفسٌ. وقال الحسنُ مجاهد وعكرمة والسدي : (تُبْسَلَ : أيْ تُسَلَّمَ لِلْهَلَكَةِ).

وقال ابنُ زيد : (معناه : وَذكِّرْ بهِ أنْ تُبْسَلَ ؛ أيْ لَئِلاَّ تَبْسَلَ ؛ أيْ لَئِلاَّ تُؤْخَذ). وعن ابنِ عبَّاس : (أن تُفْضَحَ). وقال الأخفشُ : (أنْ تُبْسَلَ : أنْ تُجَازَى). وقال الفرَّاءِ : (تَرْتَهِنَ) ، وقال عطيةُ العوفي : (مِنْ قَبْلِ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ ؛ أيْ مِنْ قَبْلِ أنْ تُسَلَّمَ إلَى خَزَنَةِ جَهَنَّمَ). والْمُتَبَسِّلُ : الْمُسْتَسْلِمُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ } ؛ أي ليس لتلك النفس مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ولاَ شَفِيعٌ ؛ أي قريبٌ يَمنع العذابَ عنها ولا شفيعٌ يشفعُ لَها في الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ } ؛ أي لو جاءَت مكانَها بكلِّ ما كان في الأرضِ جميعاً افتداءً عن نفسها لا يُقْبَلُ منها. وسُمي الفداءُ عدلاً ؛ لأنه مِثْلٌ للشيء ، ويقالُ لأحد جَانبي الحجل : عِدْلٌ بالكسرِ ؛ لأن كلَّ واحدٍ من العِدلين مِثْلٌ لصاحبهِ ، فمعنى الآيةِ : وإن تَفْتَدِي بكلِّ فداءٍ لا يُؤخَذُ منها.

وقوله تعالى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي وجيعٌ ؛ { بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } ؛ أي بما كانوا يَجْحَدُونَ في الدُّنيا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والْقُرْآنِ.

(٠/٠)

قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا } ؛ أي قل يا مُحَمَّد لكفَّار مكَّة الذين يدعونَكم إلى دينِ آبائهم : أنَعْبُدُ سِوَى اللهِ من الأصنام مَا لا يَنفَعُنَا إن عبدناهُ في رزقٍ ولا معاشٍ ، وَلاَ يَضُرُّنَا إن تركناهُ في رزق ولا معاش ، { وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ } ؛ عطفٌ على الاستفهامِ ؛ أي كيف نرجعُ إلى الكفر بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللهُ لدينه ، وأكْرَمَنَا بمعرفتهِ ، فيكونُ مَثَلُنَا ؛ كَ ؛ مَثَلِ ؛ { كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ } ؛ فأذهبَهُ ؛ { فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ } ؛ ضَالاً ، لا يقالُ : كالذي زَيَّنَتْ له الشياطينُ هواهُ ؛ فهو يعملُ في الأرضِ بالمعاصي. وقيل : معناهُ : كالذي اسْتَفْرَسَتْهُ الغِيْلاَنُ في الْمَهَامَةِ

فأضَلُّوهُ ؛ فهو حَائِرٌ. و(حَيْرانَ) نُصِبَ على الحال.
قرأ الأعمش وحمزة : (كَالَّذِي اسْتَهْوَاهُ) بالألفِ والإمالة ، وقرأ طلحةُ بالألف ، وقرأ الحسنُ : (اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ). وفي مصحفِ عبدِاللهِ : (اسْتَهْوَاهُ الشَّيْطَانُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا } ؛ أي لهُ أصحابٌ يدعونه إلى الطريقِ المستقيم : أنِ ائْتِنَا وَاتَّبِعْنَا ؛ فإنَّا على الطريقِ ، فأبَى أن يأتِهم ويطيعَهم.
وقيل : إن الآيةَ نزلت في عبدِالرحمن بن أبي بكرٍ حين دعا أباهُ إلى الكفر ، فأنزلَ اللهُ تعالى : { قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا }. وقولهُ : { كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ } وهو عبدُالرَّحمن بن أبي بكرٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى } قيل : كان أمُّهُ وأبوهُ يدعوانِه إلى الإسلام ، وكان الشياطينُ والكفَّار يُزَيِّنُونَ له الكفرَ إلى أن مَنَّ الله عليه بعد ذلك بقَبُولِ الإسلامِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ } ؛ أي قُلْ لَهُمْ : إنَّ دينَ الله هو الإسلامُ ؛ وأمَرَنَا لِنُخْلِصَ العبادةَ ؛ : { لِرَبِّ الْعَالَمِينَ }.

(٠/٠)

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ } ؛ عطف على قوله : (لِنُسْلِمَ) أي أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ؛ فقيل لنا : أسْلِمُوا وأقيمُوا الصلاةَ بركوعها وسجودها ، (وَاتُّقُوهُ) أي اتَّقُوا سَخَطَهُ ؛ { وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ؛ أي تُجمعون يوم القيامةِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ } ؛ أي لإقامةِ أمر الحقِّ ؛ وهو الثوابُ والعقاب في الآخرةِ ، ولم يَخْلُقْهَا باطلاً لغيرِ شيء ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ } ؛ أي وَخَلَقَ الخلائق يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل : معناهُ : واتُّقُوهُ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. وقيل :

وَاذْكُرُوا يَوْمَ يَقُولُ ليوم القيامةِ : كُنْ فَيَكُونُ مكوَّناً بإذنِ الله تعالى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ } ؛ أي الآخرة في أمرِ يوم القيامة حقٌّ كائنٌ لا محالة ، وَلَهُ الْمُلْكُ يومئذ. وتخصيصُ ذلك اليوم بالْمُلْكِ ؛ لأنَّ اليومَ الذي لا يظهرُ فيه مِن أحدٍ سوى اللهِ نفعٌ ولا ضَرٌّ كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ }[الانفطار : ١٩]. والصُّورُ : قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيْهِ إسْرَافِيلُ نفختين ؛ فتُغشَى الخلائقُ كلُّهم بالنفخةِ الأولى ؛ ويَحْيَوْنَ بالنفخة الثانيةِ ، فتكون النفخةُ الأولى لانتهاءِ الدُّنيا ؛ والثانيةُ لابتداءِ الآخرة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ } ؛ أي وعالِمُ ما غابَ عن العبادِ وما علموهُ ؛ { وَهُوَ الْحَكِيمُ } ؛ في أمرهِ ، { الْخَبِيرُ } ؛ بأعمالِ عباده.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً } ؛ أي اذْكُرْ يا مُحَمَّد إذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ، من قرأ (آزَرَ) بالنصب فموضعُه خفض بدل من (أبيْهِ) إلا أنه لا ينصرفُ ؛ لأنه اسم أعجميٌّ ، ومَن رَفَعَهُ فعلى النداءِ ؛ أي يَا آزرُ. وكان آزرُ مَسْكَنُهُ (كُوثٌ) قريةٌ من سوادِ الكوفة.
قال السُّدِّيُّ والحسنُ : (آزَرُ اسْمٌ لأَبي إبْرَاهِيْمَ). وقال الفرَّاء : (هُوَ صِفَةٌ عَيْبٍ وَسَبٍّ ؛ وَمَعَناهُ فِي كَلاَمِهِمْ : الْمِعْوَجُّ). وقيل : معناهُ : الشيخُ لَهم. وقيل : قَالَ إبْرَاهِيمُ لأَبيهِ الْمُخْطِىءِ ، أو قال لأبيه : يَا مُخْطِىءُ. وكان على هذا القولِ اسمٌ أندتارخ بن ياجوراء. وقال سعيدُ بن المسيب ومجاهدُ : (آزَرُ اسْمُ صَنَمٍ) وهو على هذا التأويلِ في موضع نصبٍ ، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير ؛ تقديرهُ : اتَّخَذ آزرَ أَصْنَاماً آلِهَةً مِنْ دون اللهِ.
وقيل : كان إبراهيمُ قالَ لأبيه : لا تَتَّخِذُوا آزَرَ إلَهاً ، أَتَتَّخِذُ أصْنَامًا آلهةً ، { إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ } ؛ عن الحق ؛ { مُبِينٍ } ؛ أي ظاهرَ الضَّلالةِ في ذهابٍ عن الحقِّ بيِّنٍ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي كما أرينا إبراهيم النصرةَ في دينِهِ والحقَّ في مخالفة قومِهِ ؛ نُرِيَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؛ أي مُلْكَهَا ونريه القدرةَ التي يقوِّي بها دلالتَهُ على توحيدِ الله تعالى ، وهو ما رأى من السماءِ والأرض والكواكب والقمرِ والشمس.

وقال مجاهدُ وسعيدُ بن جبيرٍ : (مَعْنَى : { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } أيْ آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ؛ وَذلِكَ أَنَّهُ أُقِيْمَ عَلَى صَخْرَةٍ وَكُشِفَ لَهُ عَنِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْعَرْشَ وَأَسْفَلَ الأَرْضِيْنَ ، وَنَظَرَ إِلَى مَكَانِهِ فِي الْجَنَّةِ ؛ وَذلِكَ قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا }[العنكبوت : ٢٧] يَعْنِي أَرَيْنَاهُ مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ).

وقيل : معنى الآية : كما أرَينا إبراهيمَ قُبْحَ ما كان عليه أبوهُ وقومه من المذهب ؛ كذلك نُرِيَهُ ملكوتَ السموات والأرض. والْمَلَكُوتُ : عِبَارَةٌ عَنْ أَعْظَمِ الْمُلْكِ ؛ زيدتِ الواوُ والتاء للمبالغةِ ؛ كما يقال : رَهَبُوتٌ خَيْرٌ مِنْ رَحَمُوت ، هذا مثلٌ يقوله العربُ ؛ معناه : لئن تُرهب خيرٌ من أن تُرحم. فملكوتُ السموات : الشمسُ والقمر والنجوم ؛ وملكوتُ الأرض : الجبال والشجرُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } ؛ أي نُرِيَهُ الملكوتَ ليستدلَّ بذلك على توحيدِ الله ويَثْبُتَ على اليقين.

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَاذَا رَبِّي } قال المفسرون : إنَّ إبراهيم وُلِدَ في زمانِ النَّمْرُودِ بْنِ كَنْعَانَ ، وكان النمرودُ أولَ من دعا الناسَ إلى عبادتِهِ ، وكان له كهَّان ومنجِّمون ، فقالوا له : إنهُ يولد في هذه السنةِ غلامٌ يغيِّرُ دينَ أهل الأرض ، ويكونُ هلاكُكَ وزوالُ مُلْكِكَ على يديهِ.

قال السديُّ : (رَأى النَّمْرُودُ فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ كَوْكَباً طَلَعَ فَذَهَبَ بضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حَتَّى لَمْ يُبْقِ لَهُمَا ضَوءاً ، فَفَزِعَ مِنْ ذلِكَ وَدَعَا السَّحَرَةَ وَالْكُهَّانَ ؛ وَسَأَلَهُمْ عَنْ ذلِكَ فَقَالُواْ : هُوَ مَوْلُودٌ يُولَدُ فِي نَاحِيَتِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ ، وَأَمَرَ الرِّجَالَ باعْتِزَالِ النِّسَاءِ ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الْحُرَّاسَ ، فَمَكَثَ كَذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ).

قال السديُّ : (خَرَجَ النَّمْرُودُ بالرِّجَالِ إِلَى الْعَسْكَرِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ النِّسَاءِ مَخَافَةَ مِنْ ذلِكَ الْمَوْلُودِ ، فَبَدَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَمْ يأْتَمِنْ عَلَيْهَا أحَداً مِنْ قَوْمِهِ إلاَّ آزَرَ ، فَدَعَاهُ وَأَمَرَهُ لِحَاجَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ ثِقَتِي ؛ فَأَقْسَمْتُ إِلَيْكَ أَنْ لاَ تَدْنُو مِن امْرَأَتِكَ وَلاَ تُوَاقِعْهَا ، ثُمَّ أَوْصَاهُ بحَاجَتِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ الْمَدِيْنَةَ وَقَضَى حَاجَتَهُ ، قَالَ : لَوْ دَخَلْتُ عَلَى أَهْلِي فَرَأَيْتُ كَيفَ حَالُهُمْ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى امْرَأَتِهِ لَمْ يَتَمَالَكْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ قَدْ طَهُرَتْ مِنَ الْحَيْضِ ، فَحَمَلَتْ بإِبْرَاهِيْمَ عليه السلام ، فَلَمَّا حَمَلَتْ بِهِ ؛ قَالَتْ الْكَهَنَةُ لِلنَّمْرُودِ : إِنَّ الْغُلاَمَ الَّذِي أَخْبَرْنَاكَ بِهِ قَدْ حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ اللَّيْلَةَ ، فَأَمَرَ النَّمْرُودُ بذبْحِ كُلِّ وَلَدٍ مِنَ الْغِلْمَانِ.

فَلَمَّا دَنَتْ ولاَدَةُ أُمِّ إِبْرَاهِيْمَ وَأَخَذَهَا الْمخَاضُ ، خَرَجَتْ هَارِبَةً مَخَافَةَ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهَا فَيُقْتَلُ وَلَدُها ،

فَوَضَعَتْهُ فِي مَوْضِعٍ ، ثُمَّ لَفَّتْهُ في خِرْقَةٍ وَجَعَلَتْهُ فِي الْحَلْفَاءِ ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى زَوْجِهَا فَأَعْلَمَتْهُ ، فَانْطَلَقَ أَبُوهُ إِلَيْهِ وَحَفَرَ لَهُ سَرَباً فِي ذلِكَ الْمَكَانِ وَجَعَلَهُ فِيْهِ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ مَخَافَةَ أَنْ تَأْكُلَهُ السِّبَاعُ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ سِرّاً فَتُرْضِعُهُ ، وَكَانَ إذا بَكَى عَلَى أُمِّهِ أَتَاهُ جِبْرِيْلُ عليه السلام فَوَضَعَ إِصْبَعَهُ فِي فَمِهِ فَيَخْرُجُ مِنْهَا اللَّبَنُ ، فَكَانَ يَمُصُّ سَبَّابَةَ نَفْسِهِ).

(٠/٠)

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } ؛ وذلك أنَّ قومَ إبراهيم خاصَمُوه في مخالفتهِ إياهم في دينِهم وخوَّفهم بآلِهتهم ، وقالوا : أمَا تَخَافُ آلِهَتَنَا وأنتَ تشتِمُها أن تُخبلَكَ وتُفْسِدَكَ؟! وقالوا له : إنَّ موضعَ أهلِ كذا قد تركُوا عبادةَ الأصنام فأُمْحِنُوا وقُحِطُوا ، وأهلُ موضعِ كذا أحسَنُوا عبادةَ الأصنامِ فرُزِقوا السَّعةَ والخصبَ ، فأجابَهم إبراهيمُ عليه السلام : (أتُحَاجُّونِي فِي الله) أي أتُخاصمونني في توحيدِ الله ودينه ، وقد نصرني اللهُ وعرَّفَني دينَهُ وتوحيدهُ بما نَصَبَ لِي من الدلائلِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } ؛ أي لا أخافُ من هذهِ الأشياءِ التي تعبدُونَها وهي مِمَّا لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا ينفَعُ ولا يضرُّ. قَوْلَهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً } ؛ استثناءٌ منقطع ؛ أي ولكن أخافُ مشيئةَ ربي أن يعذِّبَني ببعضِ ذنوبي أو يَبْلُوَنِي بشيءٍ من مِحَنِ الدُّنيا. وموضع (أنْ يَشَاءَ) نَصْبٌ على تقديرِ : لا أخافُ إلا مشيئةَ اللهِ تعالى.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } ؛ أي أحَاطَ علمُ ربي بكلِّ شيء ، ومَلأَ كلَّ شيءٍ علماً ، وهو يعلمُ أنَّكم على غيرِ الحقِّ ، وقوله تعالى : { أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ } ؛ تنبيهٌ على التفَكُّرِ فيمَا كان بقولهِ لَهُمْ.

(٠/٠)

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ } ؛ وكيف أخافُ الأصنامَ التي أشركتُموها مع اللهِ ، وهي لا تَمْلِكُ الضَّرَّ والنفعَ ، بل لا تعرفُ مَن عَبدَها ومَن تركَ عبادَتَها ، { وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ } ؛ الذي يَمْلِكُ النفعِ والضرَّ ويعلمُ مَنْ عبدَهُ ومَنْ لم يعبدْهُ ، { مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً } ؛ أي عُذْراً وحجَّة لكم ؛ { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ } ؛ أي الموحِّدون أم المشركون ، { إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } ، ذلكَ.

فَلم يُجيبُوا فأنزلَ اللهُ تعالى : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } ؛ أي الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله ولم يَخْلِطُوا إيْمَانَهُمْ بشِرْكٍ ، { أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ } ؛ من العذاب ؛ { وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } ؛ إلى الحجَّة ، وقيل : إلى الجنَّة. وقيل : إنَّ قولَه : { الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } قولُ إبراهيمَ عليه السلام.

وعن ابن مسعُودٍ رضي الله عنه أنه قال : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ؛ " شُقَّ ذلِكَ عَلَى أصْحَاب رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَقَالُواْ : وَأيُّنَا لَمْ يُلْبَسْ إيْمَانَهُ بظُلْمٍ ؟ فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّهُ لَيْسَ كَذلِكَ ، ألاَ تَسْمَعُونَ إلَى قَوْلِ لُقْمَانَ : { إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } " ؟.

(٠/٠)

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ } ؛ أي تلك المقالةُ التي حاجَّ بها إبراهيمُ حجَّتُنا أعطيناها ولَقَّنَّاهَا إبراهيمَ ؛ لِيَحْتَجَّ بها على قومِهِ ، { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ } ؛ في الدُّنيا بالحجَّة والنُّصرةِ ، وفي الآخرةِ بالثواب والفضيلة. ومن قرأ (دَرَجَاتٍ) بالتنوين لا على الإضافةِ فمعناهُ : نرفعُ مَن نشاءُ درجاتٍ ، { إِنَّ رَبَّكَ } ؛ يا مُحَمَّدُ : { حَكِيمٌ عَلِيمٌ } ؛ في تفضيلِ بعض الناس على بعضٍ ، وتخصيصِ بعضهم بالنُّبوَّة.

(٠/٠)

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا } ؛ أي وَهَبْنَا لإبراهيمَ إسْحَقَ نَبيّاً لصلبهِ ويعقوبَ نافلةً ، (كُلاً) يعني أنَّ إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوب هَدَيْنَاهم للنَّبوة والإسلام { وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ } مِن قَبْلِ إبراهيمَ ، { وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ } ؛ أي ومِن ذريَّة نوحٍ ، وهذا قولُ بعضِهم ؛ جعلوا الهاءَ راجعةً إلى نوحٍ ؛ لأنَّها أقربُ إلى اسْمِهُ ؛ ولأنه ذُكِرَ في جملة المعطوفينَ على داودَ وسليمانَ مِمَّن ليس مِن ذريَّة إبراهيمَ وهو من ذريَّة نوحٍ كيونُسَ عليه السلام وكلُوطٍ عليه السلام الذي كان ابنَ أخِ إبراهيم ولم يكن مِنْ ولدهِ.

وقال بعضُهم : هي راجعةٌ إلى إبراهيم ؛ لأنه هو المقصودُ بالذِّكر فيما تقدَّم من الآية ، { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي كما تفضَّلنا على هؤلاء الأنبياءِ بالنبوَّة وما يتصَّلُ بها من العِزِّ والكرامةِ ، كذلك نتفضَّلُ على الْمُحسنينَ.

(٠/٠)

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ } ؛ معناه : ومِن ذريَّة إبراهيمَ { وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ } المرسلينَ. قال الضَّحاك : (كَانَ إِلْيَاسُ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ). وقال بعضُهم : معنى الآية : وَهدينا (زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ). وفي الآيةِ حُجَّةٌ على مَن أنكرَ في الحسنِ والحسين أنَّهما أبناءُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه تعالى جَعل عيسى – ولا أبَ له – مِن ذريَّة إبراهيمَ.

(٠/٠)

وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً } ؛ معناه : وَهدينا إسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ؛ وهو تلميذُ إلياسَ وخليفتُه من بعده. وقال محمدُ بن إسحق : (هو ابن أخي موسى عليه السلام). و(الْيَسَعَ) فيه

قراءَتان : بالتشديدِ والتخفيف ، { وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ } ؛ أي وكلَّ هؤلاء الأنبياءِ فضَّلناهُم بالنبوَّة والإسلام على عالمَي زمانِهم.

(٠/٠)

وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ } ؛ أي هدينا بعضَ آبائهم من قبلِهم مثلَ آدمَ وشيت وإدريسَ ، وبعضَ ذرياتِهم مِن بعدهم ؛ وهم أولادُ يعقوب. ومن جملة ذرياتِهم نبيُّنا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم. وقوله تعالى : (وَإِخْوَانِهِمْ) هم أخوةُ يوسفَ في عصرهم ، ويحتملُ أن يكون المراد بهم كلُّ من آمنَ معهُم ، فإنَّهم كلُّهم داخلون في هدايةِ الإسلام.
وقوله تعالى : { وَاجْتَبَيْنَاهُمْ } ؛ أي اصفطينَا هؤلاءِ الأنبياءَ بالنبوَّة والإخلاصِ ، وجَمَعْنَا فيهم خصالَ الاجتباء ؛ مأخوذٌ من قولِهم : جَبَيْتُ الماءَ في الحوض واجْتَبَيْتُهُ ؛ إذا جَمَعْتُهُ. وقوله تعالى : { وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي أثْبَتْنَاهُمْ على طريقِ الحقِّ وهو دينُ الإسلامِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } ؛ أي إنَّ ذلك الطريقُ المستقيم دينُ الله يُوَفِّقُ له من يشاءُ مِمَّن كان أهْلاً لذلك ، { وَلَوْ أَشْرَكُواْ } ؛ أي لو أشْرَكَ هؤلاء الأنبياءُ طُرْفَةَ عين مع اصطفاءِ الله تعالى إيَّاهم ، { لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا } ؛ أي لَبَطَلَتْ أعمالُهم التي ؛ { كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ من الطاعة ، فكيفَ أنتُم يا أهلَ مكَّة؟!

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ } ؛ أي أولئك الأنبياءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أعطيناهُم الكتابَ المنَزَّلَ ، والحُكْمَ بين الناس ، وأكرمناهُم بالنبوَّة والرسَالة ، { فَإِن يَكْفُرْ بِهَا } أي بملَّة هؤلاءِ الأنبياء ، { هَاؤُلاءِ } ؛ يعني قُريشاً ؛ { فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا } ؛ أي فقد قَامَ بها ، { قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ } وهم أهلُ المدينةِ وأتباعُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.
وقيل : هم الملائكةُ ، وإنَّما قال : { فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا } ولم يقل : فقد قامَ بها ، تشريفاً للملائكةِ بالإضافة إلى نفسهِ على معنى : أكرَمْنا ووفَّقْنا إلى الإيْمان بها. يقال : معناهُ : فقد أكرمنَا بهَا قَوْماً لَيْسُوا بهَا بكَافِرِينَ ؛ فقامُوا بها.

(٠/٠)

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } ، أي أولئكَ الأنبياءُ الذين ذكرناهم من قَبْلُ هم الذين أكرمَهُمْ الله بالطريقةِ الحسَنة ؛ فَاقْتَدِ بسيرتِهم ؛ اصْبرْ كما صَبَروا حتى تستحقَّ من الثواب ما استحقُّوا. وأما الهاء في (اقْتَدِهِ) فإذا أثْبَتَّ الهاء في الوقفِ تتبين بها كسرة الدال ، فإن وَصَلْتَ قُلْتَ : { اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ }.
قَوْلُهُ : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } ؛ معناهُ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ : لاَ أَسْأَلُكْ على الإيْمان والقُرْآن جُعلاً ، { إِنْ هُوَ } ؛ يعني القُرْآنِ ، { إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ } ؛ إلا عِظَةً بليغةً للجنِّ والإنسِ. وفي الآية دليلٌ على أن شرائعَ الأنبياءِ تَلْزَمُنَا ما لم نَعْلَمْ نسخَة ؛ لأن اسمَ الهدى يقعُ على التوحيدِ والشَّرائع.

(٠/٠)

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } ؛ قال ابن عبَّاس وسعيدُ بن جُبير في معنى هذه الآية : " جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُقَال لَهُ مَالِكُ بنُ الصَّيْفِ ، وَكَانَ رَأْسَ الْيَهُودِ ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " أُنْشِدُكَ اللهَ يَا مَالِكُ بالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام ؛ أَتَجِدُ فِيْهَا أَنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْحَبْرَ السَّمِيْنَ ؟ " قَالَ : نَعَمْ. قَالَ : " فَأَنْتَ الْحَبْرُ السَّمِيْنُ ، وَقَدْ سَمَّنَتْكَ مَأْكَلَتُكَ الَّتِي تُطْعِمُكَ الْيَهُودُ ، وَلَسْتَ تَصُومُ – أيْ وَلَسْتَ تُمْسِكُ– " فَضَحِكَ بِهِ بَعْضُ الْقَوْمِ ، فَغَضِبَ مَالِكٌ ، وَكَانَ حَبْراً سَمِيْناً ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَقَالَ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ".

وقال السُّدِّيُّ : (نَزَلَتْ في فِنْحَاصَ بْنِ زَوْرَاءَ ؛ وَهُوَ قَائِلُ هَذِهِ الْمَقَالَةِ). وقال مُحمد بن كعبٍ : (جَاءَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؛ وَهُوَ مُحْتَبٍ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، ألاَ تَأْتِيْنَا بكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، كَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ }[النساء : ١٥٣]. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ ، وَلاَ عَلَى مُوسَى ، وَلاَ عَلَى عيْسَى ، وَلاَ عَلَى أحَدٍ شَيْئاً. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها : ما عَظَّمُوا اللهَ حقَّ عَظَمَتِهِ ، ولا عَرَفُوهُ حقَّ معرفتِه إذ جَحَدُوا فقَالُوا : مَا أنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ؛ أي من كتابٍ ولا وَحْيٍ ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمّدُ : { مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى } ؛ يعني التوراةَ ؛ { نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ } ؛ أي ضياءً للناسِ وبياناً لَهم من الضَّلاَلة ، { تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ } ؛ يكتبونَه صحائفَ ، { تُبْدُونَهَا } ؛ يُظهرونَ ما فيها مما ليسَ فيه صفةُ النبِيِّ صلى الله عليه وسلم وزمانُه ومبعثه ونبوَّتُه ، { وَتُخْفُونَ كَثِيراً } ؛ أي يسترون ما فيه صفةُ النبِيِّ صلى الله عليه وسلم وبَعْثُهُ وآيةُ الرَّجمِ.

وقولُه تعالى : { وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءَابَآؤُكُمْ } ؛ يحتملُ أن يكون خطاباً للمسلمين ، أي عُلِّمْتُمْ أنتم أيُّها المؤمنون من الأحكامِ والحدُودِ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ. والأظهرُ : أنه خطابٌ لليهودِ ؛ لأنه مَسُوقٌ على ما سبقَ ، معناهُ : عَلِمْتُمْ بالقُرْآنِ ما كنتم أخْفَيْتُمُوهُ قبلَ نزولِ القُرْآنِ ؛ لأنَّهم قد ضَيَّعُوا شيئاً كثيراً من الْقُرْآنِ والأحكامِ ، وكانوا يُعَانِدُونَ ولا يعملونَ حتى صاروا كأنُّهم لم يعلمُوه.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلِ اللَّهُ } ؛ معناه : إنْ هم أجابُوكَ وقالوا : أعْلَمَنَا اللهُ ، وإلا فَقُلْ : اللهُ عَلَّمَكُمْ. ويقال معناهُ : قُلْ اللهُ أنزلَ الكتابَ على موسى ، { ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } ؛ أي دَعْهُمْ واتركهم في باطلِهم يَلْهُونَ ، ويقال لكلِّ من عَمِلَ ما لا ينفعهُ : إنَّما أنْتَ لاَعِبٌ.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهَاذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } ؛ يعني الْقُرْآنَ الذي كذب به أهلُ الكتاب ومشركُو قريشٍ ؛ هو { كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } أي فيه بَرَكَةٌ ومغفرةٌ للذنوب لِمَنْ آمنَ به ، والبركةُ : ثبوتُ الخير على النَّماءِ والزيادةِ. وقوله تعالى : { مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } ؛ هو موافقٌ للتوارة والإنجيلِ وسائر كتب اللهِ في أصلِ الدِّين ، ويقال : المرادُ بـ { الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ } النشأة الثانيَةَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا } ؛ أي أنزلناهُ للبركةِ ، ولِتُخَوِّفَ به أهلَ أُمِّ القُرَى ، وسُميت مكةُ أمَّ القرى لأنَّها أصلُ القرى دُحِيَتِ الأرضُ من تحتِها ، ويقال : لأنَّها أعظمُ القرى شأناً ، وقيل : لأنَّها قِبْلَةً تأْمُّهَا الناسُ بالصلوات إليها.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ } ؛ أي الذين يُقِرُّونَ ويصدِّقونَ بالبعثِ يؤمنون بالقُرْآنِ ، وفي هذا بيانٌ أنَّ الإيْمانَ بالحساب والجزاءِ يقتضي الإيْمانَ بالقرآن ، ولا ينفعُ بدون الإيْمان به وبمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ } ؛ أي يُدَاوِمُونَ على الصلوات الخمسِ بركوعها وسجودها ومواقيتها.

(٠/٠)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ } ؛ قال ابن عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ وَمُسَيْلَمَةَ الْكَذاب الَّذِي كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ ، وَفِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَعْدِ بْن سَرْحٍ الْقُرَشِيِّ ، "كَانَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدٍ يَتَكَلَّمُ بالإِسْلاَمِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْقُرْآنَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ، وَكَانَ إذا أَمْلَى عَلَيْهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ ، كَتَبَ مِنْ قَلْبِهِ : أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ، وَقَالَ : هَذا وَذاكَ سَوَاءٌ.
فَلَمَّا نَزَلَتِ الآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ قَدْ أَفْلَحَ : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ } إلى قَوْلِهِ تَعَالَى {

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً } [المؤمنون : ١٢-١٤] ، ثُمَّ أَمْلاَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فَلَمَّا أَمْلَى عَلَيْهِ قَوْلَهُ : { ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ } [المؤمنون : ١٤] عَجِبَ عَبْدُاللهِ بْنُ سَعْدٍ مِنْ تَفْصِيْلِ خَلْقِ الإِنْسَانِ ، فَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ : فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : أَكْتُبْ ، هَكَذا أُنْزِلَ عَلَيَّ. فَشَكَّ عَبْدُاللهِ حِيْنَئِذٍ ، وَقَالَ : لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقاً فَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيَّ كَمَا أُوْحِيَ إِلَيْهِ ، وَلإِنْ كَانَ كَاذِباً فَلَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ. " فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِه الآيَةَ)

ومعناها : أيُّ أحدٍ أكفرُ وأشدُّ غبناً في كفره ممن اختلق على الله كذباً ، بأن جعل له شريكاً وولداً كما قال المشركون ومالكُ بن الصيف : (وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلُ مَا أنزَلَ اللهُ) ، والمرادُ بالذي { قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } مسيلمةَ الكذاب وكان يَسْجَعُ وَتَكَهَّنُ ويدَّعي النبوَّة ويزعمُ أنَّ الله أوحَى إليه. وأما عبدُالله بن سرح فارتدَّ ولَحِقَ بالمشركين وقال : أنا أعلمُكم بمُحَمَّدٍ ، فلقد كان يُملي عليَّ فأغيرَه واكتبُ كما شئت.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنْفُسَكُمُ } ؛ أي لو رأيتَ الظالمين { فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } لرأيتَ لَهم عذاباً عظيماً. والظالمون هُم الكافرون ، وقيلَ : المنافقون رَآهُمْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ بدرٍ في صفوفِ المشركين ، وقد نَرَى مسلمين بمكَّة فأخرجَهم أهلُ مكة معهم كرْهاً ، فلما رأوا قِلَّةَ المؤمنين رَجَعُوا إلى الشِّرك ، فقالوا : غَرَّ هؤلاء دينُهم ، عَنَوا به المؤمنينَ ، وقاتلُوا مع المشركين فَقُتِلُوا جميعاً عامَّتهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } أي في سَكَرَاتِهِ ونزعاتِه وشدائده ، وقوله تعالى : { وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ } معناه : أنَّ مَلَكَ الموتِ وأعوانَه من ملائكةِ العذاب يَبْسُطُونَ أيدَيهم عليهم بالعذاب ويقولون لَهم : { أَخْرِجُواْ أَنْفُسَكُمُ } أي خلِّصوا أنفسَكم ، ولستُم تقدرون على خلاصٍ. وقيل : معناه فَارَقُوا أرواحكم الخبيثةَ ، كما يقولُ : لأُخْرِقَنَّكَ بالْعَذاب ، لأُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ } ؛ أي يقال لَهم يومَ قبضِ الرُّوح ، وقيل : يومَ القيامةِ حين معاينَة العذاب : اليوم تُجْزَوْنَ العذابَ الشَّديد الذي تُهَانُونَ فيه ، { بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ } ، بكَذِبكُمْ ، { عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } ، وبما كنتم تَتَعَظَّمُونَ عن الإيْمَان بمُحَمَّد صلى الله عليه وسلم والقُرْآنِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ؛ أي جئتمونا بلا مَالٍ ولا وَلَدٍ كما خلقناكُم في الابتداءِ ، والمعنى : أنهُ يقال لَهم : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى }. وفي الخبرِ : " أَنَّهُمْ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : (وَاسَوْأَتَاهُ! الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ كَذلِكَ) فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ، لاَ يَنْظُرُ الرِّجَالُ إِلَى النِّسَاءِ ، وَلاَ النِّسَاءُ إِلَى الرِّجَالِ ، شُغِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } ؛ أي وخلَّفتُم ما أعطيناكم من الأموال لغيركم أي خَلَّفَ عليها غيرَكم في دار الدُّنيا ، ولم تقدِّموها لأنفسكم ، { وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ } ، آلِهَتَكم ، { الَّذِينَ } ، التي ، { زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ } ، يشفعون لكم ويقرِّبونكم إلَيَّ ، { لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } ؛ أي وَصْلُكُمْ.

ومن قرأ (بَيْنَكُمْ) بالنصب فمعناه : تقطعَ ما بينَكم ؛ أي ما كنتم فيه من الشِّركة ، { وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } ؛ أنَّها شفاؤُكم عندَ الله حين لم يقدرُوا عن دفعِ شيء من العذاب عنكُم.

وقال الحسنُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ : { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى } أيْ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَةٍ). وقال ابنُ كيسان : (مُفْرَدِيْنَ مِنَ الْمَعْبُودِيْنَ). وقيل : (فُرَادَى) أي وحْداناً لا مالَ لكم ولا زوجَ ولا ولدَ ولا خدم. فُرَادَى : جمعَ فَرْدٍ ، مثلُ سَكْرَانٍ وَسُكَارَى ، كَسْلاَنٍ وكُسَالَى. ويقال أيضاً : فُرَادَى بجزمِ الرَّاء وكسرها وفتحها ، وجمعه أفْرَادٌ. وقرأ الأعرجُ : (فُرْدَى) بغيرِ ألِفٍ مثل سُكْرَى.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } أي حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ، { وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ } أي ما أعطيناكم وملَّكناكم من الأموال والأولاد والخدَم وراءَ ظهوركم في الدنيا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } قرأ أهلُ الحجاز والحسن ومجاهد والكسائيُّ وحفص بالنصب ؛ وهي قراءة أبي موسَى الأشعري ، وقرأ الباقون بالرفع.

(٠/٠)

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى } ؛ أي خالقُ الْحَب وَالنَّوَى ، كقولهِ تعالى : { فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }[الأنعام : ١٤] أي خالقُهما. وقال الحسنُ وقتادة : (فَالِقُ الْحَب) أيْ شَاقُّ الْحَبَّةِ عَنِ السُّنْبُلَةِ ، وَالنَّوَاةِ عَنِ النَّخْلَةِ. والْحَبُّ : جمع حَبَّةٍ والنَّوَى : جمع نَوَاةٍ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ } ؛ أي يخرجُ الإنسانَ من النُّطفةِ ، والنطفةَ من الإنسانِ. وسُميت النطفةُ ميتاً ؛ لأنَّها من جُملة المواتِ. وقيل : معناهُ : يخرج النباتَ الغَضَّ الطرِيَّ من الحب اليابسِ ، ويخرجُ الحبَّ اليابس من النباتِ.

وكلُّ ما يكون نامياً عند أهلِ اللغة بمَنْزِلة الحيِّ ، وما لا يكون نامياً فهو بمنْزِلة الميت. ويقال : معناهُ : يخرج المؤمنَ من الكافرِ ، ويخرج الكافرَ من المؤمنِ ، وقوله : { ذالِكُمُ اللَّهُ } ؛ أي ذلكم اللهُ الذي يفعلُ هذا الفعلَ ؛ هو اللهُ ، { فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ } ؛ أي فمن أينَ تُصْرَفُونَ عن الحق والإفِكُ في اللُّغة : هُوَ قَلْبُ الشَّيْءِ وَصَرْفُهُ.

(٠/٠)

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَالِقُ الإِصْبَاحِ } ؛ أي شاقُ عَمُودِ الصُّبح عن سوادِ الليل ، وقال ابن عبَّاس : (مَعْنَاهُ : خَالِقُ الإِصْبَاحِ). قال الزجَّاج : (الإِصْبَاحُ وَالصُّبْحُ وَاحِدٌ ، وَالأَصْبَاحُ جَمْعُ الصُّبْحِ). ويقالُ : الإصباحُ بكسر الألف المصدرٌ ؛ ومعناهُ الدخولُ في ضوءِ النَّهار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلَ الْلَّيْلَ سَكَناً } ؛ لستكنُوا فيه من ظُلْمتهِ في أوطانكم. وقرأ الحسنُ : (فَالِقُ الأَصْبَاحِ) بالفتحِ جمعُ صُبْحٍ ، { وَجَعَلَ الْلَّيْلَ سَكَناً } يسكنُ فيه خَلْقُه. وقرأ النخعيُّ : (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) على الفعلِ في معناه : نَوَّرَ النهارَ بالنور ؛ لتبتغُوا من فضلهِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً } ؛ نصبُ الشَّمسِ على معنى : (وَجَعَلَ) ؛ لأنَّ في (جَاعِلُ) معنى جَعَلَ ؛ أي جعلَ منازلَ الشمسِ والقمرِ بحُسْبَانٍ معلومٍ لا يختلفُ ، إذا انتهَى إلى أقصى منازلهِ رجعَ ، فإن الشَّمسَ تدورُ على الفَلَكِ كلِّه في ثلاثِمائة وخمسةٍ وستِّين يوماً وربُع يومٍ ، والقمرَ يدورُ على الفَلَكِ كلِّه في ثَمانٍ وعشرين ليلةً ، ويكون مستُوراً في ليلتين ، ثم يعودُ إلى ما كان ، فيعرفُ الناسُ بذلكَ آجالَ عقودِهم ، وأوقاتَ معاملاتِهم وعبادتِهم ، وسنينَ أعمارهم.

والْحُسْبَانُ : مصدرٌ ، يقال : فُلانٌ حُسْبَانُهُ على اللهِ ؛ أي حِسَابُهُ على اللهِ. ويقال : إنَّ الْحُسْبَانَ جمعُ حِسَابٍ ، كما يقال : شِهَابٌ وَشُهْبَانٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } ؛ أي ذلك الذي وَصَفَ تدبيرَ العزيزِ المنيع في سُلطانهِ ، الغالب الذي لا يُغلبُ ، العالِمِ بمصالح مَملكتهِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)

وقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ؛ أي هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ التي تختلفُ مواضِعها من جهة الشَّمال والجنوب والدبور والصبا ، لتعرفوا بها الطُّرُقَ من بلدٍ إلى بلد { فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } أي في الْمَفَاوز وَلُجَجِ البحار في الليلَة المظلمة في السُّفُنِ. فإنَّ مِن النُّجومِ ما يجعلهُ السائرَ تلقاءَ وجههِ ، ومنها ما يجعلهُ خلفَه ، ومنها ما يجعله على يَمينه ، ومنها ما يَجعله على شِماله ؛ لتظهرَ له الطريقُ التي تؤدِّيه إلى بُغْيَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ } ؛ أي بَيَّنا العلاماتِ مفصَّلةً ، { لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } ؛ أي أنشأَ خلقكُم من نفسِ آدمَ عليه السلام وحدِها ؛ فإنه خَلَقَنَا جميعاً منهُ ، وخلقَ أُمَّنا حَوَّاءَ من ضِلع من أضلاعِ آدم عليه السلام ، وإنَّما مَنَّ علينا بهذا ؛ لأنَّ الناسَ إذا رجعوا إلى أصلٍ واحد كانوا أقربَ إلى أن يَأْلَفَ بعضُهم بعضاً.
وَقَوْلُهُ تَعَالى : { فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } ؛ قرأ ابن كثير وأبو عمرو : (فَمُسْتَقِرٌّ) بكسر القاف على معنى فَمنكم مُسْتَقِرٌّ ، وقرأ الباقون بفتحها على معنى : ذلك مُسْتَقَرٌّ. قال ابن عبّاس : (مَعْنَى قَوْلُهُ : { فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } أي مُسْتَقَرٌّ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي أَصْلاَبِ الآبَاءِ). وقال بعضهُم على الضدِّ من هذا ، إلا أنَّ لفظ الـ (مُسْتَقَرُّ) فيمَن خَلَّفَ ، كفلظِ المستودَع فيمَن لَمْ يَخلِّفْ أقربُ.
وقال ابنُ مسعُودٍ : (مَعْنَاهُ : فَمُسْتَقَرٌّ فِي الرَّحِمِ إِلَى أَنْ يولَدَ ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي الْقَبْرِ إِلَى أَنْ يُبْعَثَ). وقال الحسنُ : (مُسْتَقَرٌّ فِي الدُّنْيَا ، وَمُسْتَوْدَعٌ فِي القَبْرِ). وقال مجاهدُ : (فَمُسْتَقَرٌّ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا ، وُمسْتَوْدَعٌ عِنْدَ اللهِ فِي الآخِرَةِ). وقال أبو العاليَة : (مُسْتَقَرُّهَا أيَّامُ حَيَاتِهَا ، وَمُسْتَوْدَعُهَا حِيْنَ تَمُوتُ وَحِيْنَ تُبْعَثُ). وقال بعضُهم : مُسْتَقَرٌّ في الرَّحم ، ومستقرٌّ فوقَ الأرضِ ، ومستقرٌّ تحت الأرضِ ، اقرأ : { وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى }[الحج : ٥] و{ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ }[البقرة : ٣٦]. وقيل : المستقرُّ في القبرِ ، والمستودعُ في الدنيا. وقال الحسنُ : (يا ابْنُ آدَمَ ، أَنْتَ وَدِيعَةٌ فِي أَهْلِكَ ، وَيُوشِكُ أَنْ تَلْحَقَ بصَاحِبكَ ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ لَبِيدٍ : وَمَا الْمَالُ وَالأَهْلُونَ إِلاَّ وَدِيْعَةٌ وَلاَ بُدَّ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُوقال آخرُ : فُجِعَ الأَحِبَّةُ بالأَحِبَّةِ قَبْلَنَا وَالنَّاسُ مَفْجُوعٌ بِهِ وَمُفَجَّعُمُسْتَقِرٌّ

أوْ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ خَلاَ وَالْمُسْتَقِرُّ يَزُورُهُ الْمُسْتَوْدَعُقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ } ؛ أي بيَّنا العلاماتِ الدالاَّت على توحيدِ الله مفصَّلةً ، { لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } ؛ أي لقوم يستدلُّون بمعانِي الآيَات.

والفِقْهُ في اللُّغة : هو الْفَهْمُ لِمَعْنَى الْكَلاَمِ ، إلا أنه قد جُعِلَ في العُرْفِ عبارةً عن عِلْمِ الغيب ، على معنى أنهُ استدراكُ معنى الكلامِ بالاستنباطِ عن الأُصُولِ ، ولِهذا لاَ يَجُوزُ أن يوصفَ الله تعالى بأنه فَقِيْهٌ ؛ لأنه يوصَفُ بالعلمِ ، والعلمُ حجَّةُ الاستنباطِ ، ولكنه عَالِمٌ بجميعِ الأشياء على وجهٍ واحد.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ أي أنزلَ من السَّماء المطرَ ، فإن الله تعالى مُنَزِّلُ المطرِ من السماء إلى السَّحاب ، يُنَزِّلُ من السحاب إلى الأرضِ ، كما قال تعالى : { وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً مُّبَارَكاً }[ق : ٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } أي فأخرجنا بالمطرِ نَبَاتَ كلِّ صِنْفٍ من أصنافِ الحبُوب معاشاً لَهم.

فإن قيل : كيفَ قال الله تعالى : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } فجعلَ المطر سَبَباً للنباتِ ، والفاعلُ بالسبب يكون مستعيناً بفعلِ السبب ، واللهُ تعالى مُسْتَغْنٍ عن الأسباب؟

قيل : إنَّما قال اللهُ تعالى : { فَأَخْرَجْنَا بِهِ } ؛ لأن المطرَ سببٌ يؤدِّي إلى النَّبات ، وليس بمولودٍ لهُ ، واللهُ تعالى قادرٌ على إنبات النباتِ بدون المطر ، وإنَّما يكون الفاعلُ بالسبب مستعيناً بذلك السبب إذا لم يُمكنه فعلُ ذلك الشَّيء إلا بذلك السبب ، كما أنَّ الإنسانَ إذا لم يُمكنه أن يصعَد السطحَ إلا بالسُّلَّمِ ، كان السُّلَّمُ آلةَ الصُّعود ، والطائرُ إذا صعدَ السطح بالسُّلَّمِ ، لم يكن السُّلَّمُ آلةً لهُ ؛ لأنه يُمكنه أن يصعدَ السطحَ بدون السُّلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً } ؛ أي أخرجنا من المطرِ نباتاً أخضرَ ؛ وهو ساقُ السُّنْبلةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً } ؛ أي نُخْرِجَ من ساق السُّنبلةِ ، ما قد رَكِبَ بعضُه بعضاً ؛ يعني سنابلَ البُرِّ والشعيرِ والأَرُزِّ والذرَّة وسائرَ الحبوب ، يَرْكَبُ بعضُه بعضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ } ؛ أي عُرُوقٌ قريبةُ المتناول ينالُها القاعدُ. والقِنْوَانُ : جَمْعُ الْقِنْوِ ؛ مثل صِنْوٍ وَصِنْوَانٍ. والقِنْوُ : عَذقُ النَّخلةِ والعَذقُ ؛ بفتح العين : النَّخْلَةُ. قال الزجَّاج : (فِي الآيَةِ مَحْذُوفٌ ؛ أيْ دَانِيَةٌ وَغَيْرُ دَانِيَةٍ ؛ وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعِيْدَةَ الْمُتَنَاوَلِ).

وقرأ الأعرجُ : (قُنْوَانٌ) بضمِّ القاف ؛ وهي لغةُ قيس. وقال مجاهدُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ : (دَانِيَةً) أيْ مُتَدَلِّيَةٌ). وقال الضَّحاك : (مُلْزَقَةٌ بالأَرْضِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ } ؛ عطفُ على قوله تعالى : { خَضِراً } أي وأخرجنا جَنَّاتٍ ؛ أي بساتينَ وأشجارٍ مُلْتَفَّةٍ ، وكل نَبَاتٍ مُتَكَاتِفٍ يَسْتُرُ بعضُه بعضاً فهو جَنَّةٌ ، من جنَّ إذا اسْتَتَرَ. وقرأ الأعمشُ ويحيى بن يعمر وعاصم : (وَجَنَّاتٌ) بالرفعِ عطفاً على (قِنْوَانٌ) لفظاً ، وإن لم تكن في المعنى من جِنْسِهَا ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } بالرفعِ أيضاً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } ؛ أي وأخرجنَا من شجرِ الزَّيتونِ وشجر الرُّمَّانِ ، { مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } أي منها ما يُشْبهُ غيرَه في الصُّورةِ واللَّون ، ومنها ما لا يشبهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : متشابهاً في المنظرِ واللَّونِ ، وغيرَ متشابهٍ في الطَّعمِ مثلَ الرُّمَّانِ الحامضِ والْحُلْوِ. والفائدةُ في الجمعِ بين شَجَرِ الزيتونِ وشَجَرِ الرُّمانِ في هذه الآيَةِ : بأنَّهما شجرَتان يشتملُ ورقُهما على الغُصْنِ من أوَّلِهِ إلى آخره مشتبهٌ بأوراقِهما ، ومختلفٌ ثِمارهما.

(٠/٠)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي الزَّنَادِقَةِ ؛ قَالُواْ : إنَّ اللهَ تَعَالَى وَإبْلِيْسَ أخوانِ ؛ فاللهُ تَعَالَى خَالِقُ النَّاسِ وَالدَّوَاب وَالأَنْعَامِ وَكُلِّ خَيْرٍ ، وَإبْلِيْسُ خَالِقُ السِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارب وَكُلِّ شَرٍّ ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ }. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً }[الصفات : ١٥٨]). وقال مقاتلُ : (نَزَلَتِ الآيَةُ فِي جُهَيْنَةَ وَخُزَاعَةَ ، قَالُواْ : إنَّ صِنْفاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ يُقَالَ لَهُمْ الْجِنُّ : بَنَاتُ اللهِ) تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيْراً.

وانتصبَ (الْجِنَّ) لكونهِ بدلاً من (شُرَكَاءَ) أو لأنهُ مفعولٌ ثانٍ على تقدير : وجعلُوا الجنَّ شركاءَ اللهِ ؛ كقولهِ : { وَجَعَلُواْ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً }[الزخرف : ١٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَلَقَهُمْ } ؛ يجوزُ أن يكون الهاءُ والميم عائدةً إلى أهلِ الشِّركِ ، ويجوز أن تكونَ عائدةً على الجنِّ ، على أن المعنى : أنَّ الله خالِقُ الجنِّ ؛ فكيفَ يكونوا شركاءَ لهُ؟!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ أي وكذبُوا بنسبةِ البنين والبنات إلى اللهِ تعالى ، فإنَّ مشركي العرب قالوا : الملائكةُ بناتُ الله ، والنصارى قالوا : المسيحُ بنُ اللهِ ، واليهود قالوا : عزيرٌ بنُ الله. وكَذبُوا كلُّهم لَعْنَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ ، يقالُ : خَرَقَ ؛ وَاخْتَرَقَ ؛ وَاخْتَلَقَ ؛ وَافْتَرَى : إذا كَذبَ.

وقرأ أهلُ المدينة : (وَخَرَّقُواْ) بالتشديد على التكثير. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } أي بجهلهم بلا حُجَّة

؛ { سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ } ؛ كلمة تَنْزِيْهٍ وتبعيدٍ لله تعالى عن كلِّ سوءٍ ؛ أي سَبحُوهُ أيُّها المؤمنونَ عمَّا يقولُ عليه الجاهلون. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَعَالَى } عُلُوّاً من العُلُوِّ ؛ أي اسْتَعْلَى عمَّا وصفوهُ به.
ويجوزُ في صفاتِ الله تعالى : (عَلاَ) ولا يجوز : ارْتَفَعَ ؛ لأن العُلُوَّ قد يكون بالاقتدارِ ؛ والارتفاعُ يقتضي الجهةَ والمكانَ.

(٠/٠)

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ أي مُبْتَدِعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ومُنْشِؤُهمَا ابتداءً على غيرِ مثال سبقَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ } ؛ أي مِن أينَ يكونُ له ولدٌ ؛ وكيفَ يكون له ولدٌ ولم تكن له زوجةً ، ولا يكون الولدُ إلا من زوجةٍ.
وَقَوْلُهُ : { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ } ؛ نَفْيٌ للزوجةِ والولد ؛ أي كيفَ يكون له ولدٌ وصاحبة وقد خَلَقَ الأشياءَ كلَّها ، { وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛ من خلْقِ العبادِ ومصالِحهم ؛ وجَهْلِ الكفَّار وعنادِهم.

(٠/٠)

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ } ؛ معناهُ : إنَّ الذي خَلَقَ الأشياءَ كلَّها وعملَها وأشركتم به هو اللهُ تعالى رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ غيرهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ من الْخَلْقِ فأطيعوهُ ووحِّدوهُ ولا تشركوا بينَهُ وبينَ غيرهِ في العبادةِ ؛ { وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } ؛ أي حافظٌ.

(٠/٠)

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ } ؛ أي لا تدركُ الأبصار كُنْهَهُ ؛ { وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ } ؛ أي يعلمُ كُنْهَهَا وماهيَّتَها ؛ فإنهُ لا أحدَ يَعْلَمُ أنَّ الإنسانَ لِمَ صارَ يُبْصِرُ من عينَيهِ ولا يبصرُ بغيرهما ؛ وما الشيءُ الذي يصيرُ به الإنسانُ مُبْصِراً ؛ وكيفَ حقيقةُ البصرِ ، فأعلَمَ اللهُ تعالى أنَّ خَلْقاً من خَلْقِهِ لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ ولا يحيطونَ بعلمهِ ؛ فيكفَ يحيطونَ باللهِ؟!

فمَنْ حَمَلَ الآيةَ على هذا التأويلِ ؛ لم يكن فيهِ ما يَنْفِي الرؤيةَ في الآخرةِ ؛ لأن معنى الرؤيةِ غيرُ معنى الإحاطةِ بحقيقة الشيء. وقال بعضُ المفسِّرين : (إنَّ الإِدْرَاكَ إذا قُرِنَ بالْبَصَرِ ؛ كَانَ الْمُرَادُ مِنْهُ الرُّؤيَةُ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : أدْرَكْتُ ببَصَرِي ؛ وَرَأيْتُ ببَصَرِي ، بمَعْنًى وَاحدٍ ، كَمَا يُقَالُ : أدْرَكْتُ بأُذْنِي ؛ وَسَمِعْتُ بأُذُنِي ، بمَعْنًى وَاحِدٍ).

قالوا : وأصلُ الإِدْراكِ : اللُّحُوقُ ؛ نحوُ قولِكَ : أدركتُ زمانَ فلانٍ ؛ وأدركَ فلانٌ أبا حَنِيْفَةَ ؛ وأدركَ الزرعَ والثمرةَ ؛ وأدركَ الغلامُ إذا لَحِقَ حَالَ الرِّجَالِ. وإدراكُ البصرِ الشيءَ ولُحُوقُهُ بهِ برُؤْيَتِهِ إيَّاهُ ، إلا أنهُ لا يَمْتَنِعُ أن تكونَ هذه الآيةُ عامَّةً من جهةِ اللفظ والمرادُ منها الخصُوصُ تَوْفِيقاً بين هذه الآيةِ وبين قولهِ تعالى : { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ }[القيامة : ٢٢-٢٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } ؛ أي اللَّطِيْفُ بعبادهِ في التَّدبيرِ ، الْخَبِيْرُ بمصالِحهم.

(٠/٠)

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ } ؛ أي جاءَكُمْ الْقُرْآنُ الذي فيه الْبَيَانُ. والبَصَائِرُ : جَمْعُ الْبَصِيْرَةِ ؛ وهي الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ ، فَمَنْ أبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ نفعهُ ، { وَمَنْ عَمِيَ } ؛ عنِ الْحَقِّ وَالْقُرْآنِ ؛ { فَعَلَيْهَا } ؛ فَعَلَى نفسهِ ضَرَرُ ذلكَ ، { وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } ؛ أي برَقِيْبٍ أحْفَظُ أعمالَكُم وأجازيكم عليها ، فإنَّ اللهَ يجازيكُم على أعمالِكم.

وَقِيْلَ : معناهُ : لستُ عليكم بحَفِيْظٍ فأَحُولَ بينَكم وبينَ إضْرَارِكُمْ بأنفسكم ، وإنَّما أنا رسولٌ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبكُمْ وهو الحفيظُ عليكم ، لا يخفَى عليهِ شيءٌ من أعمالكم.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ } أي مِثْلَ ما صَرَّفْنَا الآيَاتِ وبيَّناها فيما تُلِيَ عليكَ ؛ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ونُبَيِّنُهَا في المستقبلِ لِئَلاَّ يقولُوا : تَخْتَلِقُهُ من تِلْقَاءِ نَفْسِكَ ، وَلِئَلاَّ يَقُولُوا دَرَسْتَ ؛ أي قَرَأْتَ كُتُبَ أهلِ الكتاب. ومن قرأ (دَارَسْتَ) فمعناهُ : ذاكَرْتَ أهلَ الكتاب. وكان أهلُ مكَّة يقولون : إنَّما يَتَعَلَّمُهُ مِن جَبرٍ ويَسَار ؛ وكَانا غُلامَين عَبْرَانِيَّيْنِ بِمَكَّةَ.

وَمعنى (دَرَسْتَ) أدَرَسْتَ هذه الأخبارَ التي تَتْلُوهَا علينَا ، ومعنى (دَارَسْتَ) أي قَارَأتَ أهلَ الكتاب : تَعَلَّمْتَ منهُم وقرأتَ عليهم وقرأوا عليكَ.

وقرأ قتادةُ : (دُرِّسْتَ) أي قُرِّيْتَ وَتُلِيْتَ ، وقرأ الحسنُ وابن عامر ويعقوب : (دَرَسْتَ) بفتح الدال والرَّاء والسين وجَزْمِ التاء ؛ يعني : تَقَادَمَتْ وانْمَحَتْ وَانْمَضَتْ ، وذكر الأخفشُ : (دَرُسْتَ) بضمِّ الراء ؛ ومعناها : دَرَسْتَ ؛ إلا أن ضَمَّ الراءِ أشدُّ مبالغةً. وقرأ ابنُ مسعودٍ والأعمشُ : (دَرَسَ) بفتح السِّين من غيرِ تاء ؛ يعنونَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } ؛ أي وَلِنُبَيِّنَ الْقُرْآنَ والتصريفَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

(٠/٠)

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } ؛ أي اعْمَلْ يا مُحَمَّدُ بما أُنزل إليكَ من الْقُرْآنِ من حَلالِهِ وحَرامِهِ ؛ { لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ أنْزَلَهُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } ؛ أي اتْرُكْهُمْ في ضَلاَلَتِهِمْ. وهذا منسوخٌ بآيةِ السَّيفِ. وَقِيْلَ : معناهُ : أعرِضْ عنهم اسْتِجْهَالاً لَهم.

(٠/٠)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ } ؛ أي لو شاءَ اللهُ لَوَفَّقَهُمْ إلى الإيْمان ، { وَمَا جَعَلْنَاكَ

عَلَيْهِمْ حَفِيظاً } ؛ أي يَمْنَعُهُمْ عما يضرُّهم ، { وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ } ؛ أي وما أمَرْنَا أن تُلْزِمَهُمْ الإيْمانَ شاءُوا أم أبَوا ، فإنَّكَ لا يُمْكنكَ أنْ تفعلَ ذلك بهم ، وإنَّما هو الذي يَقْدِرُ على فِعْلِ هذا ، ولكنَّهُ لم يفعلْ حتى لا يزولَ التكليفُ.

وإنَّما جَمَعَ بين حَفِيْظٍ ووَكِيْلٍ لاختلافِ معناهما ، فإن الْحَافِظَ للشيءِ هو الذي يَصُونُهُ عما يَضُرُّهُ ، والْوَكِيْلُ بالشيء هو الذي يَجْلِبُ الخيرَ إليه.

(٠/٠)

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّواْ اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ وذلك حينَ قالَ اللهُ تعالى : { إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَاؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ }[الأنبياء : ٩٨-٩٩] قال المشركونَ : لئن لَمْ تَنْتَهِ يَا مُحَمَّدُ عن سَب آلِهَتنا وعَيْبها لَنَسُبَّنَّ إلهكَ الذي تعبدهُ ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. أي لا تَسُبُّوا معبودَهم الذي يعبدونَه من دون اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً وظُلْماً.

ونُصبَ (عَدْوًا) على المصدر ؛ أي يَعْدُونَ عَدْواً. ويقال : نُصِبَ على إرادة اللام ؛ أي يَسُبُّونَ بالعَدْو.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } أي بجَهْلِهِمْ يحملهم الغَيْظُ على أن يَسُبُّوا معبودَكم.

وفي هذا دليلٌ على أن الإنسانَ إذا أراد أن يَأْمُرَ غيرَه بالمعروفِ ، ويَعْلَمُ أنَّ المأمورَ يقعُ بذلك فيما هو أشدُّ مِمَّا هو فيه من شَتْمٍ أو ضربٍ أو قَتْلٍ ، كان الأَوْلى أن لا يَأْمُرُهُ ويتركه على ما هو فيهِ. وقرأ بعضُهم : (عَدُوًّا بغَيْرِ عِلْمٍ) أي أعْدَاءً ؛ نُصبَ على الحالِ. وقال قتادةُ : (كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أصْنَامَ الْكُفَّار ، فَنَهَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عَنْ ذلِكَ لِئَلاَّ يَسُبُّوا اللهَ ، فَإنَّهُمْ قَوْمٌ جَهَلَةٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } ؛ أي كما زيَّنا لك دِينَكَ وعملَكَ ؛ زَيَّنَّا لَهم دينَهم وعملَهم ، { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } الذي يعملونَه بمَيْلِ الطَّبائعِ إليهِ مُجَازَاةً لَهم على فِعْلِهِمْ ، كما قالَ تعالى : { بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ }[النساء : ١٥٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ } ؛ أي مصيرُهم ومُنقلبَهم إلى اللهِ تعالى ، { فَيُنَبِّئُهُمْ } ؛ فيجزِيَهم ؛ { بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا } ؛ أي حَلَفُوا بالله واجْتَهَدُوا في المبالغةِ في اليمين { لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ } أي علامةٌ لِنُبُوَّتِكَ ليصدِّقن بها. وعَنَوا بالآيةِ الآيات التي كانوا يقترحونَها عليه ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمَّدُ : { إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ } ؛ إنَّ مَجِيْءَ الآياتِ مِن عند اللهِ ؛ إن شَاءَ أنزلَها وإن شاء لم يُنْزِلْهَا ، وإنما يُنْزِلُ على حَسْب المصلحةِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } ؛ خطابٌ للمؤمنين ؛ { أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي وما يدريكم أيُّها المؤمنون ؛ أنَّهَا إذا جَاءَتْهم لاَ يُؤْمِنُونَ لِمَا سبقَ لَهم في عِلْمِ اللهِ تعالل من الشَّقَاوَةِ.

وقرأ مجاهدُ وقتادة وأبو عمرٍو وابنُ كثير : (إنَّهَا) بالكسر على الابتداءِ ؛ وخبرهُ : { لاَ يُؤْمِنُونَ }. وقرأ الباقون بالفتحِ ؛ ومعناهُ عند الخليل وسِيْبَوَيْهِ : لَعَلَّهَا إذا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ : (لاَ تُؤْمِنُونَ) بالتاء على مُخَاطَبَةِ الكفَّار ؛ أي وَمَا يُشْعِرُكُمْ يا أهلَ مَكَّةَ أنَّهَا إذا جَاءَتْ لاَ تُؤْمِنُونَ. وقرأ الباقون بالياء. وقرأ الأعمشُ : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أنَّهَا إذا جَاءَتْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

(٠/٠)

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } ؛ أي نَتْرُكُ أفْئِدَتَهُمْ وأبصارَهم مُنْقَلِبَةً كما هي في الحيرةِ التي بهم ؛ والغفلةِ التي فيهم ؛ فلا نُوَفِّقُهُمْ مجازاةً لَهم فلاَ يؤمنون { كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } أي أوَّلَ ما رَأوا من الآياتِ.

وَقِيْلَ : معناه : وَنُقَلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم على جَمْرِ جهنَّم ونارِها ؛ جزاءً على تَرْكِ الإيْمان وعقوبةً عليهِ ، { وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ؛ أي نَتْرُكُهُمْ في ضلاَلَتِهِمْ يتحيَّرون ويتردَّدون.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ } ؛ نزلَتْ هذه الآيةُ في رهْطٍ من أهلِ مكَّةَ من المستهزئينَ ، وهم : الوليدُ بنُ المغيرةِ ؛ والعاصُ بنُ وائلٍ ؛ والأسودُ بنُ عبدِ يَغُوثَ ؛ وغيرُهم. قالوا : يا مُحَمَّدُ ؛ ابْعَثْ لنا بعضَ موتَانا حتى نسألَهم عنكَ : أحقٌّ ما تقولُ أم باطلٌ ؟ فنؤمِنُ بِكَ ، وأرنَا الملائكةَ يشهدون أنَّكَ رسولُ اللهِ ، وائْتِنَا باللهِ والملائكة قَبِيْلاً – أي كَفِيلاً – على ما تقولُ إنه الحقُّ. فأنزلَ اللهُ تعالى هذهِ الآيةَ.
ومعناها : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ } معاينةً للشَّهادةِ على نبوَّتكَ كما سألوكَ ، { وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى } بأنكَ رسولُ اللهِ ، وأنَّ القُرْآنَ كلامهُ ، وجَمعنا عندَهُم كلَّ شيء من الطَّيرِ والوحوشِ والسِّباعِ وسائر الدواب كَفِيلاً يكلفُون بصحَّةِ ما تقولُ يا مُحَمَّدُ ، ما كانوا لِيُؤْمِنُوا بكَ إلا أن يُوَفِّقَهُمُ اللهُ للإيْمانِ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } ؛ أنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك.
ويجوزُ أن يكون معنى (قُبُلاً) أي قَبِيْلاً يقابِلُهم ويواجههم مِن الْمُقَابَلَةِ ، ويقالُ : جماعةٌ على معنى أن القُبُلَ جمعُ القبيلِ ، والقَبِيْلُ جمعُ القبيلةِ ؛ كسفينةٍ وسُفُنٍ. قرأ أهلُ المدينةِ والشامِ : (قِبَلاً) بكسرِ القاف وفتحِ الباء ؛ أي مُعَايَنَةً ؛ والمعنى : لو نَاطَقَتْهُمْ الأرضُ والسَّماءُ والطير والوحوشُ أن مُحَمَّداً رسولُ اللهِ ، وأن ما أتَاكُم به حقٌّ ، قالوا لَهم ذلك معاينةً ومُشَافَهَةً ؛ ما كانوا ليؤمنُوا إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَذَالِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ } أي كما جعلنا لكَ ولأُمَّتِكَ أعداءً مثلَ أبي جهلٍ وأصحابه ، كذلك جعلنا لِمَنْ تقدَّمَكَ من الأنبياءِ وأُمَمِهِمْ عَدُوّاً. و(شَيَاطِيْنَ) نصب على البدلِ من (عَدُوّاً) ومفسِّراً لهُ ، ويجوزُ أن يكون مَفْعُولاً ثانياً.
قال ابنُ عبَّاس في معنى هذه الآيةِ : (إنَّ إبْلِيْسَ قَسَّمَ جُنْدَهُ فَرِيْقَيْنِ ، فَبَعَثَ فَرِيْقاً مِنْهُمْ إلَى الإنْسِ ؛ وَفَرِيْقاً إلَى الْجِنِّ. فَشَيَاطِيْنُ الإنْسِ وَشَيَاطِينُ الْجِنِّ يَلْتَقِي بَعْضُهُمْ ببَعْضٍ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أضْلَلْتُ صَاحِبِي بكَذَا وَكَذا ، أتَيْتُهُ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذاتِ ، وَمِنْ قِبَلِ الْمَرَاكِب وَالْمَلاَبسِ وَالطَّعَامِ

وَالشَّرَاب ، فَإِنْ أعْيَانِي مِنْ وَجْهٍ أتَيْتُهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، فأَضْلِلْ صَاحِبَكَ بِمِثْلِهِ).

فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ } ؛ أي يُلْقِي بعضُهم إلى بعضٍ ويُمْلِي بعضُهم إلى بعضٍ ؛ { زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً } ؛ أي الْمُمَوَّهُ الذي يكونُ فيه تَزْيِيْنُ الأعمالِ القبيحة. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { غُرُوراً } نُصبَ على المصدرِ ؛ كأنه قالَ : يُغْرُونَ به غُرُوراً.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين : (إلَى أنَّ الشَّيَاطِيْنَ اسْمٌ لِكُلِّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ ؛ مِنَ الْجِنِّ وَمِنَ الإِنْسِ شَيَاطِيْنُ).

كما رُوِيَ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : " دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ، فأَمَرَنِي أنْ أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ؛ فَصَلَّيْتُ وَجَلَسْتُ إلَيْهِ ؛ فَقَالَ لِي : " يَا أَبَا ذرٍّ ؛ تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِيْنِ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ". فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أوَمِنَ الإِنْسِ شَيَاطِيْنَ؟! فَقَالَ : " أوَمَا تَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : { شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ } ؟ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ } ؛ أي لو شاءَ ربُّكَ أن يَمْنَعَ الشياطين من الْوَسْوَسَةِ مَا فَعَلُوهُ ، ولكن يَمْتَحِنُ عِبَادَهُ بما يعلمُ أنه أبلغُ في الحكمةِ وأجزلُ في الثواب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } ؛ أي اتْرُكْهُمْ وَافْتِرَائِهِمِ وكَذِبِهِمْ على استجهالاتِهم ، فإنِّي القادرُ عليهم.

(٠/٠)

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ } عطفٌ على (غُرُوراً) ؛ أي يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ الغُرُور ، وَلِتَمِيْلَ إليه أفئدةُ الذين لا يُقِرُّونَ بالبعثِ ، ولكن يَرْضُوا القولَ الزخرف ويَكْتَسِبُونَ من الإثْمِ ؛ وهو ما قُضِيَ عليهم في اللَّوحِ الْمَحْفُوظِ ، يقالُ : اقْتَرَفَ فُلاَنٌ ذنْباً ؛ إذا عَمِلَهُ. وَقِيْلَ : معنى (لِيَقْتَرِفُوا) أي لِيَخْتَلِقُوا وَيَكْذِبُوا. وقرأ النخعيُّ : (وَلِتُصْغِيَ) بضمِّ التاءِ وكسرِ الغين ؛ أي تَمِيْلُ ، الإصْغَاءُ : الإمَالَةُ ؛ ومنهُ الحديث : " إنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُصْغِي الإِنَاءَ لِلْهِرَّةِ ".

والأفْئِدَةُ : جمعُ فُؤَادٍ ؛ مثلُ أغْرِبَةٍ وَغُرَابٍ. { وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ } أي فَلْيَكْتَسِبُوا ما هم مُكْتَسِبُونَ. وقال ابنُ زيدٍ : (وَلِيَعْمَلُوا مَا هُمْ عَامِلُونَ). يقال : اقْتَرَفَ فُلاَنٌ مَالاً ؛ أي اكْتَسَبَهُ ، وقَارَفْتُ الأمْرَ : أي وَاقَعْتُهُ ؛ قالَ الله تعالى : { وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً }[الشورى : ٢٣]. ومَن قرأ : (وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا) بجزمِ اللام على لفظِ الأمرِ ، فمعناهُ : التهديدُ ؛ أي اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ.

(٠/٠)

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً } ؛ وذلك أن نَفَراً من أهلِ مكَّةَ قالوا : يَا مُحَمَّدُ ؛ اجْعَلْ بينَنا وبينكَ حَكَماً من اليهودِ والنَّصَارى ، فإنَّهم قرأوا الكُتُبَ قبلكَ. فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها : قُلْ لَهم يَا مُحَمَّدُ : أفَغَيْرَ اللهِ أطلبُ رَبّاً ومعبوداً يُسَاوِي حُكْمُهُ حُكْمَ اللهِ ؛ فأجعلهُ حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أنزلَ إِلَيْكُمْ القرآن مُفَصَّلاً مبيَّناً أمرَهُ ونَهْيَهُ بلغةٍ تَعرفونَها. ويقالُ : مُتَفَرِّقاً سورةً سورةً ؛ وآية آيةً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ } ؛ أي التَّوْرَاةَ ؛ هم عَبْدُاللهِ بْنُ سَلاَمٍ وأصحابُه ؛ { يَعْلَمُونَ أَنَّهُ } ؛ أي الْقُرْآنُ ؛ { مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ } ؛ بما تقدَّم لَهم من البشَارَةِ في كُتُبِهِمْ بأنَّ الله يبعثُ في آخِرِ الزمانِ نَبِيّاً من ولْدِ إسماعيلَ ، ويُنَزِّلُ عليه الْقُرْآنَ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْحَقِّ } ؛ أي بمَا أقام لَهم من البراهينِ على ذلك.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } ؛ أي لا تَكُونَنَّ يا مُحَمَّدُ من الشَّاكِّيْنَ في أنَّهم يعلمونَ ذلك. ويقالُ : هذا خطابٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ به غيرُه ، كأنه قال : لا تَكُونَنَّ أيها الجاهلُ بأَمْرِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من الشَّاكِّينَ في أمرِهِ. وقرأ الحسنُ والأعمش وابنُ عامرٍ وحفصُ : (مُنْزَّلٌ) بالتشديدِ من التَّنْزِيْلِ ؛ لأنه أُنْزِلَ نُجُوماً مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وقرأ الباقونَ بالتخفيفِ من الإنْزَالِ.

(٠/٠)

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } ؛ قرأ أهلُ الكوفة ويعقوبُ : (كَلِمَةُ) على التوحيدِ ، وقرأ الباقون : (كَلِمَاتُ) على الجمعِ. ومعنى الآية : وَتَمَّ إلزام الحجَّة على وَجْهِ الحكمة ، لاَ ينقصان في ذلك. قولهُ (صِدْقاً) أي مُخْبَرُهُ على ما أخْبَرَ به فيما وعَدَ وأوْعَدَ ، و(عَدْلاً) أي أحْكَامُهُ كلُّها عدلٌ ، و { لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } أي لا مُغَيِّرَ لِحُكْمِهِ ودِيْنِهِ ، فإن اليهودَ والنصارى – وإنْ غيَّروا التوراةَ والإنجيلَ – لن يُمْكِنَهُمْ أن يأتُوا بحُكْمٍ حتى يقومَ مقامَ حُكْمِهِ.

وَقِيْلَ : معناه : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ } أي وَجَبَ قولُ ربكَ بأنه ناصرٌ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وأنَّ

عاقبةَ الأمر له صِدْقاً وَعَدْلاً ؛ لا مُغَيِّرَ لقولهِ : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }[غافر : ٥١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } وذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كانوا يستحلُّون أكلَ الميتةِ ، ويَدعُونَ المسلمين إلى أكلِها ، وكانوا يقولون : إنَّما ذلك ذبحُ اللهِ ؛ فهو أحَلُّ مَمَّا ذبحتُم أنتم بسكاكينكُم ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ. ومعناها : إن تُطِعْ – يا مُحَمَّد – أكثرَ مَن في الأرض يصرفونَكَ عن دِيْنِ الله ، وإنَّما قال : { أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ } لأن أكثرهَم كفَّار ضُلاَّلٌ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ } ؛ معناه : إن أكثرُهم يتَّبعونَ أكَابرَهُمْ بالشَّكِّ ؛ يتبعونهم فيما يعملون " ويظنون " أنَّهم على الحق ، وإنَّما يعذبون على هذا الظنِّ ؛ لأنَّهم اقْتَصَرُوا على الظَّنِّ والجهلِ واتَّبَعُوا أهواءَهم ، { وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ } ؛ أي ما هم إلا يَكْذِبُونَ في قولِهم : ما قَتَلَ اللهُ أحقُّ أن تأكلوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ بسكاكينِكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ } ؛ أي عن دِيْنِ الإسلامِ وشرائعهِ ؛ { وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } ؛ بمُحَمَّدٍ والإسلامِ ، وإنَّما قال : (أعْلَمَ) لأنَّ الله تعالى يعلمُ الشيءَ من كلِّ جهاتهِ ، وغيرُه يعلمُ الشيءَ من بَعْضِ جهاتهِ.

(٠/٠)

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } ؛ عُطِفَ على ما دلَّ عليه الكلامُ الذي قبلَه ، كأنه قال : كُونُوا على الْهُدَى فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ من الذبائحِ ، { إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } ؛ هذا للترغيب في اعتقاد صحَّة إباحتهِ وفي أكلهِ.

(٠/٠)

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } ؛ يعني من الذبائح ، وموضع (أنْ) نصب لأنَّ (في) سقطت ، { وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ } ؛ أي وقد بَيَنَ لكم مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ من الْمَيْتَةِ والدَّمِ والخنْزيرِ على ما تقدَّم في سورةِ المائدة.
قرأ الحسنُ وقتادة وأهلُ المدينة وحفصُ : (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) بالفتحِ فيهما على معنى : فصَّل اللهُ. وقرأ ابنُ عامر وابنُ كثير وأبو عمرٍو بضمِّهما جميعاً. وقرأ أهلُ الكوفةِ إلا حفصاً : (فَصَّلَ) بالفتح (وحُرِّمَ) بالضَّمِّ. وقرأ عطيةُ العوفِيُّ : (فَصَلَ) بالتخفيف مفتوحاً ؛ يعني قَطَعَ الحكمَ فيما حرَّمَ عليكم.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ } ؛ أي إلا ما دَعتْكُمُ الضرورةُ إلى أكلهِ ، فقد رَخَّصَ لكم حينئذٍ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ كَثِيراً } ؛ يعني الكفارَ يأكلونَ الْمَيْتَةَ والذبائحَ التي لم يُذْكَرِ اسمُ اللهِ عليها عَمْداً ، والتي يذبحونَها لآلِهتهم بلا عِلْمٍ عندهم ولا بَصِيْرَةٍ ، يتَّبعون الهوَى والشَّهوات في ذلك.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ قرأ الحسنُ وأهلُ الكوفة بضمِّ الياء لقوله : { يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ }[الأنعام : ١١٦]. وقرأ الباقونَ بفتحِها لقولهِ : { هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ }[الأنعام : ١١٧]. فمعنى مَن قرأ بضمِّ الياء : أنَّهم يَصْرِفُونَ الناسَ عن الْهُدَى بالدُّعاءِ إلى أكلِ الْمَيْتَةِ على وجهِ الْجِدَالِ والْخِدَاعِ ، وقولهُ : { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ } أي أعْلَمُ بعقوبةِ المتجاوزين من الحلالِ إلى الحرام.

(٠/٠)

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ } ؛ أي لا تَقْرَبُوا ما حَرَّمَ اللهُ عليكم جهراً ولا سِرّاً ، ويقالُ : أرادَ بظاهر الإثْمِ : الزِّنَا الظاهرَ ، وبباطنهِ : الزِّنا السِّر. فالعربُ كانوا يَرَوْنَ الزِّنا ظاهراً معصِيةً ، ولا يَرَوْنَهُ في الْخِفْيَةِ معصيةً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ } ؛ أي إنَّ

الذين يعملون المعصيةَ ظاهراً وباطناً سَيُعَاقَبُونَ في الآخرةِ بما كانوا يَكْسِبُونَ في الدُّنيا من المعاصِي والفواحشِ.

(٠/٠)

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ } ؛ يعني الذبائح. رويَ عن عبدِالله بن عمرَ : (أَنَّهُ أَتَى حُرّاً ذَبَحَ شَاةً نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا ، فَأَمَرَ ابْنُ عُمَرَ غُلاَمَهُ أَنْ يَقُومَ عِنْدَهُ ، فَإِذا جَاءَ إِنْسانٌ يَشْتَرِي مِنْهُ قَالَ : إِنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ : إِنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ عَلَيْهَا اسْمَ اللهِ ، فَلاَ تَشْتَرِي).
وقال ابنُ سيرينَ : (إذا تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً ؛ لَمْ تُؤْكَلْ). إلاَّ أن أكثرَ أهل العلمِ على أن نسيانِها لاَ يوجبُ التحريْمَ. هكذا رُويَ عن عَلِيٍّ وابن عبَّاس ومجاهدٍ وعطاء وابنِ المسيِّب ؛ قالوا : (إِنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِياً لاَ بَأْسَ بأَكْلِهَا ؛ لأَنَّ خِطَابَ الآيَةِ يَتَنَاوَلُ الْعَامِدَ ، إِذِ النَّاسِي فِي حَالِ نِسْيَانِهِ لاَ يَكُونُ مُكَلَّفاً).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } ؛ أي إنَّ أكلَهُ لفسقٌ. وَقِيْلَ : إِنْ تركَ التسميةَ ، وَقِيْلَ : المذبوحَ بغير تسميةِ الله فِسْقٌ فيه حينَ ذُبحَ على غيرِ وجه الحقِّ ؛ كقولِهِ : { أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ }[الأنعام : ١٤٥].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } ؛ أي إنَّ الشياطين لِيُوَسْوِسُونَ لأوليائِهم من الإنْسِ ؛ وهم : أبُو الأَحْوَصِ الْخَثْعَمِيُّ وَبَدِيْنُ ابْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ وغَيرُهما من أهلِ مكَّة ؛ كانوا يُخَاصِمُونَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم في أكل الْمَيْتَةِ وَاسْتِحْلاَلِهَا. والوَحْيُ : إِلْقَاءُ الْمَعْنَى إِلَى النَّفْسِ فِي الْخِفْيَةِ ، { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ } ؛ في أكلِ الْمَيْتَةِ واستحلالِها من غير اضطرارٍ ، { إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } ؛ مثْلُهُمْ.

(٠/٠)

أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } ، قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ فِي عَمَّار بْنِ يَاسِرٍ ، وَأَبِي جَهْلٍ). ويقالُ : إنَّ المرادَ بالآية النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو جَهْلٍ. ومعنى الآيةِ على القولِ الأَوَّل : أوَمَنْ كَانَ كافراً ، فهديناهُ إلى المغفرةِ والإسلامِ ، { وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً } ؛ وهو نورُ القُرْآنِ والإيْمَانِ والحكمةِ ؛ { يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ } ؛ يضيءُ بذلك النور فيما بين النَّاسِ ؛ { كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ } ؛ أي كَمَثَلِ مَن هو في الضَّلاَلة وظُلُمَاتِ الكفرِ ، { لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا } ؛ أبَداً.

بيَّنَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ أنَّ أبا جَهْلٍ ليسَ بخارجٍ من الضَّلالة أبداً. وقال بعضُهم : الْمِثْلُ زائدٌ ؛ تقديره : كَمَنْ في الظُّلُمَاتِ.

وعن ابنِ عبَّاس أيضاً : (أنَّ مَعْنَاهُ : { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } يُرِيْدُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب { كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا } أبَا جَهْلٍ ؛ رَمَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَحَمْزَةُ كَافِرٌ ، فَأُخْبِرَ حَمْزَةُ بمَا فَعَلَ أبُو جَهْلٍ وَهُوَ رَاجِعٌ مِنْ قَنْصِهِ يَفُوتُ وَبِيَدِهِ قَوْسٌ ، فَأَقْبَلَ وَهُوَ غَضْبانٌ حَتَّى عَلاَ أبَا جَهْلٍ بالْقَوْسِ وَهُوَ يَتَضَرَّعُ وَيَسْتَكِيْنُ وَيَقُولُ : أمَا تَرَى مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّداً ، قَدْ سَفَّهَ عُقُولَنَا وَسَبَّ آلِهَتَنَا وَخَالَفَ آبَاءَنَا. فَقَالَ حَمْزَةُ : وَمَنْ أسْفَهُ مِنْكُمْ؟! تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أنَا أَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيْكَ لَهُ ؛ وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي كما زُيِّنَ لأبي جَهْلٍ عملهُ الذي كان يعملُ ؛ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ أعمالُهم مجازاةً لَهم على كُفْرِهم. وقال الحسنُ : (مَا زَيَّنَهَا لَهُمْ إلاَّ الشَّيْطَانُ).

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا } ؛ أي جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ذا نُور يَمشي به في الناسِ ، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ رؤساءَها وكبراءَ وعظماءَ أهلِها مُجْرِمِيهَا. وَقِيلَ : معناهُ : جعلنا في أهلِ مكَّةِ عظاؤُهم مُجْرِميها ، كَذلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيَمْكُرُواْ فِيهَا } أي لِيَصِيْرَ أمرُهم إلى أن يَمكروا بالتَّكَبُّرِ وتكذيب الرسُلِ ، { وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } ، أنَّ كلَّ وَبَالَ أمرِهم يرجعُ إليهم.

(٠/٠)

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ } ؛ أي إذا جاءَتِ الأكابرَ المذكورين ، وَقِيْلَ : أهلَ مكَّة ؛ إذا جَاءَتْهُمْ دلالةٌ واضحة على نُبُوَّةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ قالوا : لاَ نُصَدِّقُ حتى نُعطى من الآياتِ مثلَ ما أُعْطِيَ رسلُ اللهِ المعجزاتِ والدَّلائل.

وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرةِ قال : وَاللهِ لو كانتِ النُّبُوَّةُ حقّاً لكنتُ أوْلَى بها منكَ ؛ لأنِّي أكبرُ منكَ سِنّاً وأكثرُ منكَ مالاً. وقال مقاتلُ : (قالَ أَبُو جَهْلٍ : زَحَمَنَا بَنُوا عَبْدِ الْمُطَّلِب فِي الشَّرَفِ ؛ حَتَّى إذا كُنَّا كَفَرَسَي رِهَانٍ ، قَالُواْ : مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَاللهِ لاَ نُؤْمِنُ بِهِ وَلاَ نَتَّبِعُهُ أَبداً ؛ إلاَّ أنْ يَأْتِيْنَا وَحْيٌ كَمَا يَأْتِيَهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ).

يقولُ اللهُ تعالى : { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } ؛ أي هو أعلمُ مَن يُرْسِلُ ومن يَخْتَصُّ بالرسالةِ ومَن هو أهْلٌ لَها. وهذا جوابٌ يَمنعهم أن يكونوا رُسُلاً حين أنِفُوا أن يكونوا أتْبَاعاً للرُّسلِ بعد قيام حُجَّةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

بَيَّنَ اللهُ تعالى أنه إنَّما يجعلُ الرسالةَ عند مَن يقومُ بأدائِها ، ولا يجعلُ عند مَن يضيِّعُ ولا يصبرُ على الْمَكَارِهِ. وَقِيْلَ : إنَّما لم يجعلِ اللهُ الرسلَ في الرؤساءِ والأغنياء ؛ لأنَّ الناسَ يتبعونَهم وإن لم يأتوا بالْحُجَجِ ، فيقولُ مَنْ بعدُهم : إنَّما اتَّبعوهم لأنَّهم كانوا رؤساءَ وأكابرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ } ؛ أي سيصيبُ الذين اكتسَبُوا الْجُرْمَ مَذلَّةٌ وهَوَانٌ ثابتٌ لَهم عندَ الله ؛ { وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ } ؛ أي بفكرِهم وتكذيبهم الرسلَ.

قال ابن عبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمَا : (ثُمَّ رَجَعَ إلَى ذِكْرِ عَمَّارٍ وأبي جَهْلٍ) فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : { فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ } ؛ أي فمن يُرِدِ اللهُ أن يُوَفِّقَهُ للإسلام يُوسِعَ قَلْبَهُ وَيُلَيِّنْهُ لِقَبُولِ الإسلام ، { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ } ؛ أي أن يَخْذِلَهُ ويجعلهُ في ضلالةِ الكفر ، { يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً }.

{ حَرَجاً } ؛ قِيْلَ : الْحَرَجُ : مَوْضِعُ الشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ ؛ يعني أنَّ قلبَ الكافرِ لا تصلُ إليه الحكمةُ كما لا تصلُ إلى الموضعِ الذي الْتَفَّ فيه الشجرُ.

وقال أهلُ اللغة : الْحَرَجُ : أضْيَقُ الضِّيْقِ. وقال مجاهدُ : (الْحَرَجُ : الشَّكُّ) وقال قتادةُ : (حَرَجاً مُلْتَبساً). وقال النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ : (قَلِقاً) ، وقال الكلبيُّ : (لَيْسَ لِلْخَيْرِ فِيْهِ مَنْفَذٌ). قرأ ابنُ كثير : (ضَيْقاً) بالتخفيفِ ، وشدَّدهُ الباقون ؛ وهما لُغتان مثل هَيِّنٍ وَلَيِّنٍ. وقولهُ تعالى : (حَرِجاً) قرأ أهلُ المدينةِ وأبو بكرٍ بكسرِ الرَّاء ، وفتحَها الباقون ؛ وهُما لُغتان مثل دَنَفٍ وَدَنِفٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ } ؛ يعني : يَشُقُّ عليه الإيْمَانُ ويَمْتَنِعُ ويعجزُ عنه ، كما يَشُقُّ عليه صعودُ السَّماء. واختلفَ القُرَّاءُ في قوله تعالى : { يَصَّعَّدُ } فقرأ أهلُ المدينة والبصرةِ والكوفة إلا أبَا بكرٍ : (يَصَّعَّدُ) بتشديد الصَّاد والعينِ من غير ألفٍ ، وقرأ طلحةُ والنخعيُّ وأبو بكر : (يَصَّاعَدُ) بتشديدِ الصَّاد وبألفٍ بعدها ، بمعنى يَتَصَاعَدُ.

(٠/٠)

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَهَاذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً } ؛ (هذا) إشارةٌ إلى الإسلامِ ، وَقِيلَ : إلى بَيَانِ الْقُرْآنِ ، سُمي ذلك مُسْتَقِيماً ؛ لأنه يَسْتَقِيمُ بِمن يَسْلُكُهُ ؛ فلا يَعْرِجُ فيه حتَّى يُورِدَهُ إلى الجِنَّةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ } ؛ أي أتَيْنَا بآيةٍ على إثْرِ آية مُفَصَّلَةً مُبَيَّنَةً ؛ { لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } ؛ أي يَتَّعِظُونَ بآياتِ الله ، وَيَتَفَكَّرُونَ في دَلالاَتِ القُرْآنِ ، فلم يَبْقَ لأحدٍ عذرٌ في التَّخَلُّفِ عن الإيْمان بعد هذا البَيَانِ.

(٠/٠)

لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (اللهُ السلاَمُ ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ). كأنه قِيْلَ لَهم : جَنَّةُ اللهِ. وقال الفرَّاء : (مَعْنَاهُ : لَهُمْ دَارُ السَّلاَمُ الدَّائِمَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَبَلِيَّةٍ). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { عِندَ رَبِّهِمْ } أي في الآخرةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : مُقِيمُونَ عند ربهم ؛ { وَهُوَ وَلِيُّهُمْ } ؛ أي يتولَّى أمرَهم بنصرِهم في الدُّنيا وإكرامِهم في الآخرة ، { بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ مِن الطاعَة.

(٠/٠)

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِّنَ الإِنْسِ } معناه : يَوْمَ نَحْشُرُ الخلائقَ كلَّهم إلى الجزاءِ ، يقول : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنسِ مِمَّنْ أضْلَلْتُمُوهُمْ ؛ أي أضلَلْتم كثيراً من الإنسِ وكثيرٌ مُتَّبعُوكُمْ منهُم ؛ { وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم } ؛ أي قُرَنَاءُ الجنِّ ؛ { مِّنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ }.

أما اسْتِمْتَاعُ الإنسِ بالجن فما روى الحسنُ : (أنَّ الْعَرَبَ كَانُواْ إذا سَافَرُواْ فَنَزَلُواْ وَادِياً ؛ خَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُواْ : نَعُوذُ بسَيِّدِ هَذا الْوَادِي مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ ؛ فَيَبِيْتُونَ فِي جِوارٍ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا يَرَوْنَ ذلِكَ اسْتَجَارَةً بالْجِنِّ).

وأما استمتاعُ الجنِّ بالإنسِ ؛ فكان عُظَمَاءُ الجنِّ يقولون : قد سُدْنَا الإنسَ مع الجنِّ ؛ حتى أن الإنسَ يعوذُون بنَا ، فيزدادون بنَا ، فيزدادون بذلك شَرَفاً في قومِهم وَعَظَماً في أنفسهم. وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً }[الجن : ٦].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا } ؛ أي أدْرَكْنَا وَقْتَنَا الذي وُقِّتَ لنا. قِيْلَ : إنَّ المرادُ به وقتُ البعثِ ، وَقِيْلَ : إن المراد وقتُ الموتِ. وفي هذا دليلٌ على أنه لا يكون للمقتول أجَلاَنِ بخلافِ ما يقولُ بعض القومِ : إنَّ المقتولَ لو لم يُقتل لكان يبقى حَيّاً لا محالةَ. لأنه قد كان في هؤلاءِ مقتولون وقد أُخْبِرُوا كلُّهم أنَّهم قد بلغُوا أجلهم الذي أجَّلَهُ الله لَهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ } ؛ أي قالَ اللهُ تَعَالَى : النَّارُ مقرُّكم ومَنْزِلُكمْ ؛ فإنكم قد أقْرَرْتُمْ على أنفسكم باستحقاقِ العذاب ولزُومِ الحقِّ عليكم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَكَانَ مَا شَاءَ اللهُ بقَوْلِهِ : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ }[النساء : ٤٨]).

وَقِيْلَ : معناه : { إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ } ما بَيْنَ البعثِ من القبرِ إلى وقت الفَرَاغ من الحساب ؛ فإنه لا يكون لَهم عذابٌ في ذلك الوقت. وَقِيْلَ : معناه : { إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ } أن يعذِّبَهم من صُنُوفِ العذاب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ } ؛ في عِقَابِهِ ؛ { عَلِيمٌ } ؛ بقَدْر ما يستحقُّونَ من العذاب.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَذالِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } أي مِثْلَ ما قصَصْنَا عليكَ من تسليطِ الجنِّ على الإنس ؛ كذلك نُسَلِّطُ بعضَ الْمُجْرِمِيْنَ على بعضٍ ، ثم يُنْتَقَمُ منهما جميعاً في الآخرةِ بالنَّار. وقال بعضُهم : معناهُ : يَتْبَعُ بعضُهم بعضاً في النار من الْمُوَالاَةِ. وقال بِعضُهم : يُسَلِّطُ بعضَهم على بعضٍ ، يدلُّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ أعَانَ ظَالِماً سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ ".

(٠/٠)

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } ؛ أي يقول لَهم يومَ القيامةِ : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ؛ لِمَاذَا فعلتُم ما فعلتم أَلَمْ يأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقْرَأُونَ عليكُم القُرْآنَ ، { وَيُنذِرُونَكُمْ } ؛ أي وَيُخَوِّفُونَكُمْ ؛ { لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَاذَا } ؛ وهو يومُ القيامةِ.
قَالَ ابن عبَّاس : (كَانَتِ الرُّسُلُ تُبْعَثُ إِلَى الإِنْسِ ؛ وَبُعِثَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ). قال : (وَهَذا كَقَوْلِهِ : { يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ }[الرحمن : ٢٢] يَخْرُجُ مِنَ الْمِلْحِ مِنْهُمَا ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ مِنَ الإِنسِ).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا } ؛ يعني أنَّهم لا يَجِدُونَ جَوَاباً إلاَّ الاعترافَ بذنوبهم ؛ ويقولون : أقْرَرْنَا على أنفسِنا ، أنَّهم بَلَّغُوا الرسالةَ ، وكَفَرْنا بهم. يقولُ اللهُ تعالى : { وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا } ؛ أي بزهرتِها ونَعِيْمِهَا ، { وَشَهِدُواْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ } ؛ في الآخرةِ ؛ { أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ } ؛ في الدُّنيا ؛ أي أقَرُّوا.

(٠/٠)

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } (ذلِكَ) أي ذلكَ الأمرُ. وَقِيْلَ : أرادَ الإشارةِ إلى إرسَالِ الرُّسُلِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ } أي معناهُ : لأَجْلِ أنهُ لم يَكُنْ رَبُّكَ

مُعَذِّبَ أهلِ القُرى { بِظُلْمٍ } أي بشركِهم وذنوبهم { وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } عن الأمرِ والنَّهْيِ وتبليغِ الرُّسُلِ ؛ أي لم يكن يُهْلِكُهُمْ بذنوبهم قَبْلَ أن يأتيَهم رسولٌ يُبَيِّنُ لَهم. وينهاهُم عمَّا هم عليهِ من المعصيةِ ، فإن رجَعُوا وإلا عذبَهم اللهُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا يهلكهم بظلم منه ؛ ولا يعذبهم وهم غافلون لِمَا كُلِّفوا من غيرِ إقامة الحجَّة بما يُقَبَّحُ ويُحَسَّن من غيرِ تَنْبيْهِ لَهم من الرُّسُلِ.

(٠/٠)

وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ } ، أي لِكُلِّ عَاملٍ من الفريقين مراتبُ في عملهِ ، لأهل الخير درجاتٌ في الجنَّةِ بعضُها فوقَ بعضٍ ، ولأهلِ الشِّرْكِ درجاتٌ في النار بعضُها أشدُّ عذاباً من بعضٍ ، { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ } ؛ أي لا يَجْرِي عليه السَّهْوُ عن طاعةِ المطيعين ومعصيَةِ العاصِينَ ، فيجزِي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ.

(٠/٠)

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ } ؛ أي هو الغَنِيُّ عن إيْمَانِ العبادِ وطاعتِهم. والغَنِيُّ : الَّذي لاَ يَحْتَاجُ إلَى شَيءٍ ؛ فَيَكُونُ وُجُودُ كُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ وَعَدَمُهُ سَوَاءٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذُو الرَّحْمَةِ } بيانٌ أنه تَعَالَى مع كوْنِهِ غَنِيّاً عن شُكْرِ العبادِ وطاعتهم ذو إنْعَامٍ عليهم. والمعنى : وربُّكَ الْغَنِيُّ عن خَلْقِهِ ذو الرحمةِ بهم ، { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ } ؛ أي إنْ يشاء يُهْلِكُّم يا أهلَ مكَّة ؛ { وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكمْ } ويخلِف من بعدكم ؛ أي مِنْ بَعْدِ إهلاكِكم ؛ { مَّا يَشَآءُ } ؛ خَلْقاً آخرَ أطوعَ للهِ منكُم ؛ { كَمَآ أَنشَأَكُمْ } ؛ أي مِثْلَ ما ابْتَدَأ خَلْقَكم قَرْناً بعد قرنٍ ؛ { مِّن ذُرِّيَّةِ } ؛ أي من أولادِ ؛ { قَوْمٍ آخَرِينَ } ؛ هالكِين.

(٠/٠)

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ } ؛ أي إنَّ الذي تخافونَ من البَعْثِ والعَذاب لكائنٌ لا خَلَفَ فيه ، { وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } ؛ أي فائِتين لستُم تقدرونَ أن تُعْجِزُوا اللهَ عن إدراكِكم.

(٠/٠)

قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

قَوْلَهُ تَعَالَى : { قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد : اثْبُتُوا على حَالَتِكُمْ وعلى عملكم القَبيْحِ الذي أنتُم عليهِ وعلى منازلكم ؛ { إِنَّي عَامِلٌ } ؛ في أمْرِي على مَنْزِلَتِي ، وهذا على سبيلِ الوَعِيْدِ والتَّهْدِيْدِ ، { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ } ؛ أي { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } أيُّنا يَكُونُ لَهُ العَاقِبَةُ المحمودةُ في الدُّنيا ؛ وفي الآخرة ، { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } ؛ أي لا يَظْفَرُونَ بمُرادهِم. وقرأ السلميُّ وعاصمُ (عَلَى مَكَانَاتِكُمْ) على لفظِ الجماعة. وقرأ مجاهدُ وأهل الكوفة إلا عاصماً : (مَنْ يَكُونُ) بالياء ؛ لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي.

(٠/٠)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)

وقوله عَزَّ وَجَلَّ : { وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَاذَا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَاذَا لِشُرَكَآئِنَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُواْ إذا حَرَثُوا حَرْثاً ؛ جَعَلُوا للهِ خَطّاً ؛ وَقَالُواْ : مَا دُونَ هَذا الْخَطِّ لآلِهَتِنَا يُنْفَقُ عَلَيْهَا وَعَلَى خُدَّامِ الأصْنَامِ ، وَمَا وَرَاءَ هَذا الْخَطِّ للهِ يُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى أهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسَّائِلِيْنَ.

وَكَانُوا إذا أرْسَلُواْ الْمَاءَ فِيْمَا سَمَّوْهُ للهِ تَعَالَى ، فَانْفَجَرَ مِنْهُ إلَى الَّذِي جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ تَرَكُوهُ ؛ وَقَالُواْ :

هَذا أحْوَجُ وَاللهُ غَنِيٌّ عَنْهُ ، وَإذا انْفَجَرَ مِنَ الَّذِي جَعَلُوهُ لأَصْنَامِهِمْ ؛ رَدُّوهُ وَقَالُواْ : لَيْسَ لآلِهَتِنَا بُدُّ مِنَ النَّفَقَةِ. وَكَانُواْ إذا هَلَكَ الَّذِي لآلِهَتِهِمْ : وَكَثُرَ الَّذِي للهِ ؛ أخَذُوا الَّذِي للهِ وَأَنْفَقُوهُ عَلَى الأَصْنَامِ ، وَإذا هَلَكَ الَّذِي للهِ ؛ وَكَثُرَ الَّذِي لِلأَصْنَامِ قَالُواْ : لَوْ شَاءَ اللهُ لأَزْكَى الَّذِي لِهُ).

ومعنى الآية : وجعلَ المشركون مِن أهلِ مكَّة لله مِّمَّا خَلَقَ من الزَّرْعِ والأنعامِ نَصِيْباً. وللأصْنَامِ نَصِيْباً فقالُوا : هذا نصيبُ اللهِ بقولِهم ، ولم يأمرْهُم اللهُ تعالى بذلك ، وهذا نصيبُ الآخر لآلِهتنَا. وفي الايةِ إضمارٌ تقديرهُ : وَجَعَلُواْ للهِ نَصِيْباً ولشركائِهم نَصِيْباً. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِزَعْمِهِمْ } قرأ السلميُّ والأعمشُ والكسائيُّ بضمِّ الراء ، والباقون بفتحِها ، وُهما لُغتان.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي ما كان مِن نصيب آلِهتهم فلا يرجعُ إلى الذي جعلوهُ للهِ ، { وَمَا كَانَ للَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ } ؛ أي يرجعُ إلى الذي جَعَلُوهُ لشركائِهم ، { سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ } ؛ أي بئْسَ ما يَقْضُونَ ؛ يُوَفُّونَ نَصِيْبَ الأصنامِ ويُنْقِصُونَ نصيبَ الرَّحْمَنِ ، فَبِئْسَ الحكمُ حكمُهم في الإشراكِ وبالقسمةِ. وكانوا يفعلونَ بالأنعامِ الثمانيةِ أزواجٍ ونحوِها كذلكَ.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ أهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفِنُونَ بَنَاتَهُمْ أحْيَاءً كَرَاهِيَةً لِلْبَنَاتِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَحْلِفُ لَئِنْ وَلِدَ لَهُ كَذَا وَكَذا غُلاَمًا لَيَنْحَرَ أحَدَهُمْ كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِب عَلَى ابْنِهِ عَبْدِاللهِ. وَكَانَ لآلِهَتِهِمْ خُدَّامٌ يَقُومُونَ عَلَيْهِمُ الَّذِيْنَ كَانُواْ يُزَيِّنُونَ لِلْمُشْرِكِيْنَ قَتْلَ أوْلاَدِهِمْ.).

ومعنى الآية : وكما زُيِّنَ تحريمُ الحرثِ والأنعام ؛ زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين دفنُ بناتِهم أحياءً كراهيةً لَهُنَّ ومخافةَ الفقرِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { شُرَكَآؤُهُمْ } أي قُرَنَاؤُهُمْ وشَيَاطِيْنُهُمْ ، وَقِيْلَ : سَدَنَةُ ألهتِهم ؛ يعني خُدَّامَ أصنامِهم.

قرأ بعضُهم : (زُيِّنَ) على ما لَمْ يُسَمَّ فاعلهُ ، ورَفَعَ قولَهُ : { قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ } يحملُ على المعنى على الفَاعِلِ ؛ كأنهُ قال : مَنْ زُيِّنَ لَهم ، ثم قالَ (شُرَكَاؤُهُمْ) على إضمار (زَيَّنَهُ). وقرأ ابنُ عامرٍ بضمِّ الزاي ، وَقِيْلَ : بضمِّ اللام (أوْلاَدَهُمْ) بالنصب و(شُرَكَائِهِمْ) بالكسرِ. ومعنى ذلكَ : على التقديمَ والتَّاخيرِ ؛ كأنهُ قالَ : زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركينَ قَتلَ شُرَكائِهم أولادِهم ، فيكونُ معنى الشركاءِ الكفار القاتلون ، المتقدِّمون منهمُ والباقونَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيُرْدُوهُمْ } أي لِيُهْلِكُوهُمْ. يجوزُ أن تكون هذه لامَ العاقبةِ ، إن لم يكن غرضُهم بذلكَ الأمرِ إهلاكَهم ، ويجوزُ أن تكون لامَ الغرضِ ؛ لأنه قد كانَ فيهم معانِدون وغيرُ معاندين ؛ فَغلبَتْ صفةُ المعاندين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ } ؛ أي لِيَخْلِطُوا ويُشَبهُوا عليهم دينَهم دينَ إسماعيلَ عليه السلام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ } ؛ أي لو شاءَ الله لَمَنَعَهُمْ من دفنِ البناتِ أحياءً ، { فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } ؛ أي اتْرُكْهُمْ وافتراءَهم على اللهِ أنه أمَرهم بدفنِ بناتِهم أحياءً ، فإنَّ اللهَ تعالى مع قدرتهِ عليهم تَرَكَهُمْ ؛ فاتركْهُم أنتَ ، فإنَّ لَهم موعداً يُحاسبون فيهِ.

وقُرِىءَ : (قَتْلَ أوْلاَدِهِمْ شُرَكَائِهِمْ) كلاهُما بالكسرِ ، فتكون الشركاءُ من نعتِ الأولاد ؛ لأن أولادَهم شركاؤهم في أموالِهم.

(٠/٠)

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَقَالُواْ هَاذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ } ؛ أي قالوا : هذهِ الأنعامُ والحرثُ التي جعلوا بعضَها للهِ وبعضَها للأوثان حِجْرٌ ؛ أي حرامٌ لا يأكلُها ولا يذوقُها إلا مَن يُأذنُ له في أكلِها ؛ وهم الرجالُ دونَ النِّسَاءِ ، { بِزَعْمِهِمْ } أي بقولِهم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا } ؛ هي الْبَحِيْرَةُ والسَّائِبَةُ وَالْحَامُ ؛ حَرَّمُوا الركوبَ عليها ، وأما الْوَصِيْلَةُ فإنَّها كانت من الغَنَمِ خاصَّة. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } ؛ أي وأنعامٌ أُخَرُ كانوا يذبحونَها للأصنامِ تَقَرُّباً إليها ؛ زَعَمُوا أنَّ اللهَ أمرَهم بذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { افْتِرَآءً عَلَيْهِ } ؛ أي على اللهِ ، نُصِبَ على معنى : { لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا } كَذِباً على اللهِ أنهُ أمرَهم بذلك. وَقِيْلَ : نُصِبَ على المصدر ؛ أي افْتَرَوا افْتِرَاءً. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ أي سَيُكَافِئُهُمْ بكَذِبِهِمْ وافترائِهم على اللهِ.

(٠/٠)

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَاذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا } ؛ أي قالَ أهلُ الجاهليَّةِ : إنَّ الأجِنَّةَ التي في بُطُونِ هذه الأنعام – التي زَعَمُوا أنَّهَا لأوثانِهم – إذا انْفَصَلَتْ عن الأمَّهاتِ ؛ فهي حلالٌ لرجالِنا منافعُها وألبانُها ، ومُحَرَّمٌ على نسائِنا ما دامَت تلكَ حَيَّةً. وأمَّا تأنيثُ الـ (خَالِصَةٌ) ؛ فعلى معنَى : سَأَلَهُمْ.

قال جماعةٌ : مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنْعَامِ أو الأنعامِ التي في بُطُونِ هذهِ الأنعامِ. وأما تذكيرُ قولهِ : { وَمُحَرَّمٌ } فلأنهُ مردودٌ على لفظِ (مَا). وقرأ الأعمشُ : (خَالِصٌ لِذُكُورنَا) بغيرِها ، وردَّهُ إلى (مَا). ومَن نَصَبَ (خَالِصَةً) فعلى القَطْعِ ؛ تقديرهُ : مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأنْعَامِ لِذُكُورنَا خَالِصاً. وقرأ ابنُ عبَّاس : (خَالِصَةِ) بالإضافةِ إلى الهاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَكُن مَّيْتَةً } ؛ أي قالُوا : وَإنْ تَكُنْ أجنَّةُ هذه الأنعام ميتةً ؛ { فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ } ؛ الرِّجَالُ النساءُ. قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ : (وَإنْ تَكُنْ) بالتاء (مَيْتَةٌ) بالرفعِ على معنى وإنْ يَقَعْ. وقرأ ابنُ كثيرٍ كذلكَ إلا أنه بالياء ، وقرأ أبو بكرٍ التاء (تَكُنْ مَيْتَةً) بالنصب على معنى : وإن تكن الأجنةُ ميتةً. وقرأ الباقون (يَكُنْ) بالياء والنصب ، وردُّوه إلى ما يؤيِّدُ ذلكَ قولهُ : { فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ } ولم يقل : فيها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ } ؛ أي سَيَجْزِيَهِمْ في الآخرةِ بوَصْفِهِمْ الذي وَصَفُوا في هذه الأنعام ، إلا أنهُ لَمَّا حذفَ الباءَ انتصبَ ، ويجوزُ أن يكون معناه : سَيَجْزِيهِمْ جَزَاءَ وَصْفِهِمْ ، إلا أنهُ حذف الجزاءَ ، وأجرى إعرابَهُ على (وَصْفَهُمْ) ، { إِنَّهُ حِكِيمٌ } ؛ في مجازاتهم ؛ { عَلِيمٌ } ؛ بمقدار جزائِهم. والمعنى : سيجزيهم على وَصْفِهِمُ الكذبَ على اللهِ.

(٠/٠)

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ أي الذين قَتَلُوا بناتِهم أحياءً جَهْلاً منهم ، { بِغَيْرِ عِلْمٍ } أي بلاَ بَيَانٍ ولا حُجَّةٍ. نزلت في رَبِيْعَةَ ومُضَرٍ الذين كانوا يدفِنون بناتِهم أحياءً

مخافةَ السِّبْيِ والفقرِ ، إلا مَن كان مِن بني كِنَانَةَ ، فإنَّهم كانوا لا يفعلونَ ذلك. وقرأ الحسنُ والسلميُّ وأهلُ مكة والشَّام : (قَتَلُوا) بالتشديد على التَّكْثِيْرِ ، وخفَّفَ الباقون.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ } ؛ أي حَرَّمُوا على أنفسِهم ما أعطاهُم اللهُ من الرِّزْقِ ومن الأنعامِ والحرث ، يعني : أنَّ هؤلاء الكفَّار لِجَهْلِهِمْ يقتلونَ البناتَ أحياءً مخالفةَ الفقرِ والإنفاق ، ثم يجعلون طائفةً من أموالِهم للأوثانِ ، ويُحَرِّمُونَهَا على إنَاثِ أولادِهم.

وقولهُ : { افْتِرَآءً عَلَى اللَّهِ } أي يَفْتَرُونَ ذلك افْتِرَاءً عَلَى اللهِ ؛ بأنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشياءَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ ضَلُّواْ } ؛ أي ضَلُّوا في فِعْلِهِمْ هذا عنِ الْهُدَى ، { وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } ؛ مَنَ الضَّلاَلَةِ.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } ؛ أولُ هذه الآية راجعٌ إلى ما قبلِها ، كأنهُ قال : افْتِرَاءً عَلَى اللهِ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ ؛ أي هو الذي خَلَقَ بساتينَ مَعْرُوشَاتٍ ؛ وهي الكُرُومُ رَفَعَ بَعْضَ أغصانِها على بعضٍ ، { وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } وهي الشَّجَرُ والزَّرْعُ وكلُّ ما لا يرتفعُ بعضُه على بعضٍ ، هكذا رُوِيَ عنِ ابنِ عبَّاس والحسنِ.

ويقالُ : معنى { مَّعْرُوشَاتٍ } ما لا يرفع له حيطان ، { وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } ما لا يجعلُ له حائطٌ ، وَقيلَ : { مَّعْرُوشَاتٍ } ما انْبَسَطَ على الأرضِ وأنبتَ مما يُغْرَسُ مثلِ الكَرْمِ والقَرْعِ والبطِّيخِ وشَبَهِهَا ، { وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } ما قامَ على سَاقٍ فطالَ مثلَ النَّخْلِ والزَّرْعِ وسائرِ الأشجار. وقال الضَّحاكُ : { مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } الكَرْمُ خَاصَّةً ؛ مِنْهَا مَا غُرِسَ ؛ وَمِنْهَا مَا لَمْ يُغْرَسْ). وروي عنِ ابنِ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أيضاً : (أنَّ الـ { مَّعْرُوشَاتٍ } ما نَبَتَهُ النَّاسُ ، { وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } مَا أُخِذ مِنْ الْبَرَاري وَالْجِبَالِ مِنَ الثِّمَار). يدلُّ عليه قراءة علي رضي الله عنه (مَغْرُوساتٍ وغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ) بالغين والسين.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } ؛ معناهُ : وأنشأَ النخلَ الزرعَ ، وهذا تخصيصُ بعضِ ما دخلَ في عمومِ الأوَّل ؛ لكونِهما أعمُّ نفعاً من جملةِ ما يكونُ في البساتين. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } أي مُخْتَلِفاً جملةً من الألوان كلِّها ، ومختلفٌ في الطَّعْمِ من الْحُلْوِ والحامضِ والْمُرِّ ؛ والجيِّدِ والرَّديءِ. ونُصِبَ { مُخْتَلِفاً } على الحال ؛ أي أنشأهُ في حالِ اختلاف أكُلِهِ. وقد يقالُ : ارتفعَ { أُكُلُهُ } بالابتداءِ { مُخْتَلِفاً } نَعْتُهُ ، إلا أنه لَمَّا تقدَّمَ النعتُ على الاسمِ نُصِبَ ، كما يقالُ : عندي طَبَّاخاً غُلامٌ قال الشاعرُ : الشِّرُّ مُسْتَتِرٌ يَلْقَاكَ عَنْ غُرُضٍ وَالصَّالِحَاتُ عَلَيْهَا مُغْلَقاً بَابُقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ } ؛ أي وأنْشَأَ شجرَ الزَّيْتونِ والرُّمَّانِ ، { مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } ؛ أي منها ما هو متشابهٌ ؛ ومنها ما هو غيرُ متشابهٌ ؛ ومنها ما هو غيرُ متشابهٍ. وَقِيْلَ : { مُتَشَابِهاً } بالنَّظَرِ { وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } في الطَّعمِ ؛ نحوُ : كالرُّمَّانَتَيْنِ لونُهما واحدٌ ؛ وطعمُهما مختلفٌ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ } ؛ هذا أمرُ إباحةٍ لا أمرُ إيجابٍ ، والفائدةُ في قولهِ تعالى : { إِذَآ أَثْمَرَ } إباحةُ الأكلِ من قَبْلِ إخراجِ الحقِّ الذي وَجَبَ فيه شائعاً للمساكينِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } ؛ أي أعْطُوا حقَّ اللهِ تعالى يَوْمَ يُحْصَدُ ، أرادُوا العُشْرَ فيما سَقَتْهُ السَّماءُ ، ونِصْفَ الْعُشْرِ فيما سُقِيَ بغرب ودَالِيَةٍ. قال ابنُ عبَّاس والحسنُ وقال ابنُ عمر رضي الله عنه : ({ وَآتُواْ حَقَّهُ } مَا يَتطَوَّعُ بهِ الإِنْسَانُ عِنْدَ رَفْعِ الْغُلَّةِ وَالتَّصَدُّقُ بهِ).

قال مجاهدُ : (إذا حَصَدْتَ فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِيْنُ ، فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ ، وَإذا دَرَسْتَهُ وَذرَّيْتَهُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ ، فَإذا عَرَفْتَ كَيْلَهُ فَأَخْرِجْ زَكَاتَهُ). قال إبراهيمُ النَّخعِيُّ : (هَذِهِ الآيَةُ مَنْسُوخَةً بالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ). وفي قوله : { حَصَادِهِ } قراءتان بكسرِ الحاء وفتحِها.

(٠/٠)

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً } ؛ الْحَمُولَةُ : كِبَارُ الإِبلِ الَّتِي يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهَا ، وَالْفَرْشُ : صِغَارُهَا الَّتِي لاَ يُمْكِنُ الْحَمْلُ عَلَيْهَا ، سميت فَرْشاً لاستوائِها في الصِّغَرِ والانْحِطَاطِ كما سُوِّيَ ما يُفْرَشُ. وَقِيْلَ : سُميت فَرْشاً ؛ لِقُرْبِهَا من الإبلِ ، وتسمى أيضاً الغَنَمُ : فَرْشاً.

والمعنى : مما نشاء من الأنعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً. ويقالُ : أرادَ بالفَرْشِ ما يُفْرَشُ من الثِّياب والبُسُطِ التي تُعْمَلُ من الوَبَرِ. إلا أنَّ القولَ الأوَّل أقربُ ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ في الآيةِ بعدَها : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ }[الأنعام : ١٤٣] ؛ أي أنْشأَ اللهُ في الْحَمُولَةِ والفَرْشِ ثَمانيةَ أزواجٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } ؛ إذْنٌ الأكلِ من الحرث والأنعامِ ، { وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ } ؛ في تحريْمِ الحرثِ والأنعامِ ؛ أي { ولا تَتَّبعُوا طُرُقَ الشيطانِ } ؛ في تحريم الحرثِ والأنعام ؛ أي ولا تَتَّبعُوا طُرُقَ الشيطلنِ ، فإنه لا يدعوكُم إلاَّ إلى المعصيةِ ، { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } ؛ أي ظاهرُ العداوة ، وقد بَانَت عداوتهُ لأبيكُم آدَمُ عليه السلام.

(٠/٠)

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مَّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ } ؛ معناهُ : وَأَنْشَأَ لُكُمْ { ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ } أي أصْنَافٍ ، { مَّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ } ذكَرٍ وأنثى ، يعني بالذكرِ زَوْجاً وبالأنثى زَوْجاً ، يقالُ لكلِّ مَنْ له قَرِيْنٌ : زَوْجٌ ، كما قالَ تعالى : { اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ }[الأعراف : ١٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ } أي ذكَرٍ وأُنثى زوجين اثنين. والضَّأْنُ : ذوَاتُ الإلْيَةِ ، وهو جمع ضَائِنٍ ، كما يقال : تَاجِرٌ وتُجَرٌ ، وَقِيْلَ : واحدهُ ضَائِنَةٌ. وَالْمَعْزِ : ذوَاتُ الأَذْنَاب الْقِصَار ، وفيه قراءتان : تَسْكِيْنُ العينِ ؛ وفتحُها.

قوله : { قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ } أي قل لَهم يا مُحَمَّد : مِن أينَ جاء هذا التحريمُ الذي تذكرونَهُ أيُّها الكفارُ في الولدِ السَّابعِ في الغنمِ أنه حرامٌ على النساءِ ؛ حرَّمَ اللهُ الذكرَ من الضأْنِ ؛ والذكرَ من المعزِ ؛ فحرَّم ولدَهما لحرمةِ الإناث؟

فإن جاءَ هذا التحريمُ من قِبَلِ ذُكورهما ؛ فيجبُ أن تكون كلُّ أنثى حرامٌ عليكم ، وإنْ كانَ من قِبَلِ اشتمالِ أرحامِ الأنْثَيَيْنِ ؛ فيجبُ أن يكونَ كلُّ أولادِهما من الذكرِ والأنثى حَرَاماً عليكم ؛ لأنَّ الأرحام تشتملُ عليهما جمعياً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ أي قُلْ للكافرين خَبرُونِي وفَسِّروا لِي ما حُرِّمَ عليكم ببَيَانِ حُجَّةٍ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ في مقالَتِكم : إنَّ اللهَ حَرَّمَ الوَصِيْلَةَ ونحوِها. وإنَّما قال : { إن كُنتُمْ صَادِقِينَ } لأن الصِّدْقَ لا يُمكن إلا بعلمٍ.

(٠/٠)

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ } ؛ أي وَأَنْشَأَ مِنَ الإبلِ اثْنَيْنِ ؛ ذكَرٍ وأُنثى من جملةِ الثمانيةِ الأزواجِ ،

{ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ } ؛ ذكَرٍ وأُنثى ، { قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّد : إنَّكم تُحَرِّمُونَ الولدَ من الجاموس والإبلِ والبقرِ على النِّساء ، فمِنْ أينَ جاء هذا التحريمُ ؛ مِن قِبَل الذكور ؛ { أَمِ الأُنْثَيَيْنِ } ؛ أي مِن قِبَلِ الإناث ؟ { أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ } ، أي مَن الذي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أرْحَامُ الأُنَثَيَيْنِ ، { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَاذَا } ؛ أي أمْ شاهَدتُم اللهَ تعالى حرَّم هذه الأشياءِ التي تحرِّمونَها وأمرَكم بتحريْمها.

يعني إذا كُنْتُمْ لا تُقِرُّونَ بِنَبِيٍّ من الأنبياءِ ؛ فمِن أينَ عَلِمْتُمْ تحريمَ اللهِ ؛ أبالْقِيَاسِ ؟ لأنَّ الله تعالى أمَرَ نَبيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن يُنَاظِرَهُمْ ، ويُبَيِّنَ بالحجَّةِ فسادَ قولِهم وبطلانَ اعتقادِهم ، فلمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ " قَرَأهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على أبي الأحْوَصِ الْجُشَمِي ومَالِكِ بْنِ عَوْفٍ – وكان هو الَّذي يُحَرِّمُ لَهم ، وكانوا يرجعون إليه فيه – فَسَكَتَ مَالِكُ وَتَحَيَّرَ فِي الْجَوَاب. فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا لَكَ يَا مَالِكُ لاَ تَتَكَلَّمُ ؟ " فَقَالَ لَهُ مَالِكُ : بَلْ تَكَلَّمْ أَنْتَ ؛ أنَا أسْمَعُ ".

فنزلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ } ؛ هذا استفهامٌ بمعنى التَّوْبِيْخِ وَالتَّعَجُّب ؛ معناه : أيُّ أحدٍ أعْتَى وأجرأ على اللهِ مِمَّنِ اختلقَ على اللهِ كَذِباً { لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ } أي لِيَصْرِفَ الناسَ عن دِينه وحُكْمِهِ بالْجَهْلِ ، { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } ؛ أي لا يُهْدِيْهِمْ إلى الْحُجَّةِ فيما افْتَرَواْ على اللهِ ، ويقالُ : لا يهديهم إلى حُجَّتِهِ وثوابِهِ.

فلما نزلَتْ هذه الآيةُ قال مالكُ بنُ عوفٍ : فِيْمَ هذا التحريمُ الذي حَرَّمَهُ آباؤُنا من السَّائِبَةِ والوَصِيْلَةِ والْحَامِ وَالْبَحِيْرَةِ ؟ فَأنزلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ } ؛ فقرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الآية ، ثُمَّ قَالَ : " يَا مَالِكُ ؛ أسْلِمْ " فَقَالَ : إنِّي امْرِؤٌ مِنْ قَوْمِي فَأُخْبِرُهُمْ عَنْكَ. فأَبَى قَوْمُهُ ؛ فَقَالُواْ : كَيْفَ رَأيْتَ ؟ فَقَالَ : رَأَيْتُ رَجُلاً مُعَلَّمًا. وَذكَرَ لَهُمْ ؛ فَقَالُواْ : إنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ.

ومعنى الآية : قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : لاَ أجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إلَيَّ من القرآن شيئاً مُحَرَّماً عَلَى آكِلٍ يَأْكُلُهُ إلاَّ أنْ يَكُونَ مَيْتَةً لَمْ يُذكَّ ؛ وهي تَموتُ حَتْفَ أنْفٍ. فمَنْ قرأ { إلاَّ أَن يَكُونَ } بالياء فعلى معنى : إلاَّ أن يكونَ المأكولُ ميتةً. ومن قرأ بالتاء ؛ فعلى معنى : إلا أن تكونَ تلك الأشياءُ ميتةً. وقرأ عَلِيٌّ رضي الله عنه : (يَطَّعِمُهُ) بتشديدِ الطاء ، فأدْغَمَ التاءَ في الطاء.

(٠/٠)

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } ؛ في هذه الآية بيانُ ما حَرَّمَ اللهُ على اليهودِ. قال ابنُ عبَّاس : (أرَادَ بقَوْلِهِ : { كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } الإبلَ والنَّعامَ وَالْبَطَّ وَالإِوَزَّ وَمَا أشْبَهَ ذلِكَ مِمَّا لاَ يَكُونُ مُنْفَرِجَ الأَصَابِعِ). وَقِيلَ : أراد به ما يصيدُ بالظُّفْرِ مثلَ النُّسُور والبراري وما يُشَاكِلُ ذلكَ من السِّبَاعِ والكلاب. وقال ابنُ زيدٍ : (هِيَ الإبلُ فَقَطْ). قرأ الحسنُ : (كُلَّ ذِي ظِفْرٍ) بكسرِ الظَّاء وإسكان الفاء. وقرأ أبو السِّمَال : (ظِفِرٍ) بكسرِهما جميعاً ؛ وهي لغةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا } ؛ من الشِّحْمِ وهو السَّمْنُ ، { أَوِ } ؛ ما حَمَلَتِ ؛ { الْحَوَايَآ } ؛ وهي الْمَبَاعِرُ والأمْعَاءُ التي عليها الشَّحْمُ من داخلِها ؛ واحدتُها حَاوِيَةٌ وحَاوِيَاءُ وحَوِيَّة ؛ سُميت بذلك لأنَّها تَحوي ما في البَطْنِ. وقولهُ : { أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ } ؛ أرادَ به ما يكونُ من الشَّحْمِ الْمُخَلَّطِ من اللَّحمِ على عَظْمِ الجنب. وأما الإلْيَةُ ؛ فقد كانت داخلةً في التحريم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ } ؛ أي ذلك التحريمُ عاقبناهُم بظلمِهم ، { وَإِنَّا لَصَادِقُونَ } ؛ فيما نقولُ إنَّ هذه الأشياءِ كانت حَلالاً في الأصلِ ؛ فحرَّمناها على اليهودِ بمعصيتِهم ومخالفتهم لأنبيائِهم ، وكانتِ اليهودُ مع هذا التحريمِ يجملونَ الشُّحُومَ فيبيعونَها ؛ فيستحلُّون ثَمنَها ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ ؛ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ الشُّحُومُ فَجَمَلُوهَا وَبَاعُوهَا وَأَكَلُو ثَمَنَهَا ؛ إنَّ اللهَ تَعَالَى إذا حَرَّمَ شَيْئاً حَرَّمَ بَيْعَهُ وَأَكْلَ ثَمَنِهِ ".

فلمَّا نزلت هذه الآيةُ ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " هَذا مَا أوْحَى اللهُ تَعَالَى إلَيَّ أنَّهُ مُحَرَّمٌ مِنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ ، وَمِنْهُ عَلَى الْيَهُودِ ". فقالَ المشركون : إنَّكَ لَمْ تُصِبْ فيما قُلْتَ ، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ : { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ } ؛ أي إنْ أنكرُوا ولم يقبلُوا قولَكَ ؛ فقُلْ : { رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ } بالإمهالِ بأن لَنْ يُعَاجِلَكُمْ بالعقوبةِ ؛ { وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي لا يُرَدُّ عذابهُ عن المشركين واليهودِ إذا جاء وقتُ العذاب.

(٠/٠)

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا } ؛ أي آباؤُنا من قبلِنا الذين اسْتَنَنَّا بهم ، { وَلاَ حَرَّمْنَا } ؛ على أنفسِنا ؛ { مِن شَيْءٍ } ؛ من الحرْثِ والأنعام ، ولكنه شَاءَ لنا الشِّرْكَ والتحريمَ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ كَذَّبَ } ؛ أي قالَ ؛ { الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم } ؛ أي هكذا كَذبَ الذين مِنْ قبلِهم رُسُلَهُمْ كما كَذبَ قومُك ، { حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا } ؛ أي عذابَنا. من قرأ (كَذلِكَ كَذبَ الَّذِينَ) بالتخفيفِ ؛ فمعناهُ : كما كَذبَ قومُك على اللهِ ؛ كذلك كَذبَ مَن قبلَهم من الأُمَمِ الخالية على اللهِ ؛ حتى ذاقُوا عذابَنا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد : هَلْ عندَكم من عِلْمٍ من بَيَانٍ وحُجَّةٍ غير ما في القُرْآنِ ؛ فَبَيِّنُوهُ لَنَا ، { إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ } ؛ يعني ظَنَّهُمْ في تحريمِ البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ وَالْوَصِيْلَةِ وَالْحَامِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ } ؛ ما أنتم إلاَّ تَكْذِبُونَ على اللهِ.

قال المشركون : لو شاءَ الله ما أشْرَكْنَا ، على وجهِ الاستهزاء ؛ فكذبَهم اللهُ في ذلك ، وإنْ كانت المشيئةُ حقّاً كما في سورة (المنافقون) : { إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ }[المنافقون : ١] فكذبَهم الله في قولِهم : إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ؛ وإن كان ذلك حَقّاً ؛ لأنَّهم قالوا على وجهِ الاستهزاء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ آبَاؤُنَا } عطفٌ على الْمُضْمَرِ المتَّصل ؛ معناهُ : ما أشْرَكْنَا نحنُ ولا آباؤنا. ثُمَّ اعْلَمْ أنَّ بعضَهم قال : إنَّ مشيئةَ المعاصي إذا أُضيفت إلى اللهِ تعالى كان معناها الْخُذْلاَنَ مجازاةً لَهم على سُوءِ أفعالِهم ، وإصرارهم على المعصيةِ.

(٠/٠)

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ أي إنَّ الله قد أبلغَكم حُجَّتَهُ ؛ وهو ما أحَلَّهُ من الثمانيةِ أزواجٍ ؛ فلو شاءَ لَوَفَّقَكُمْ لدينهِ وأكرمَكم بمعرفته. وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : قَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ وَجَاءَكُمُ الرَّسُولُ ؛ فَلَوْ شَاءَ لَوَفَّقَكُمْ وأجْبَرَكُمْ على الإيْمانِ). و { الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ } : التَّامَّةُ الكافيةُ.

(٠/٠)

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَاذَا } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّد : هَاتُوا شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذه الأشياءِ ، { فَإِن شَهِدُواْ } ؛ بأنَّ اللهَ حرَّمَها ، { فَلاَ تَشْهَدْ } ، أنتَ يا مُحَمَّدُ ، { مَعَهُمْ } ؛ لأنَّهم لا يشهدون إلاَّ الباطِل.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ } ؛ أي لا تَعْمَلُ بهوى الذين جَحَدُوا بكَ وبالقُرْآنِ ؛ ولا بهوى الذين لاَ يُصَدِّقُونَ بالبعثِ. وإنَّما فَصَلَ بين الفريقين ؛ لأنَّ مِن الكفارِ مِن يُؤْمِنُ بالبعثِ كأهل الكتاب ؛ ومنهُم مَن لا يؤمِن بذلكَ كَعَبَدَةِ الأوثانِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } ؛ أي يُسَوُّونَ باللهِ تعالى في الطاعةِ.

(٠/٠)

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } ؛ أي قل يا مُحَمَّد لِمَالِكِ بنِ عوفٍ الْخُشمي ولأصحابه : هَلُمُّوا واجْتَمِعُوا أقْرَأ عليكم الذي حَرَّمَ ربُّكم عليكُم.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً } ؛ أي أوْصِيْكُمْ وآمُرُكُمْ أنْ لا تُشْرِكُوا. ويقال : أتْلُوا عليكم أنْ لا تُشركوا كما في قولهِ : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ }[الأعراف : ١٢]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً } ؛ أي وَأوْصِيكُمْ بالوالدين ؛ أي بالإحسانِ إلى الوالدين برّاً بهما وعَطْفاً عليهما ، { وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ } ؛ أي لا تَدْفُنُوا بناتِكم أحياءً مخافةَ الفقرِ.
والإملاقُ في اللغة : نَفَادُ الزَّادِ وَالْنَفَقَةِ ، يقال : أمْلَقَ الرجلُ ؛ إذَا نَفِدَ زَادُهُ وَنَفَتُهُ ومنه الْمَلَقَ ؛ وهو بَذْلُ الْمَجْهُودِ فِي تَحْصِيْلِ الْمُرَادِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } ؛ أي علينا رزْقُكُمْ ورزْقُهُمْ جميعاً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } ؛ أي لا تقربوا الزنا مسرِّين ولا معلنين ، { وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ } أي إلاَّ بإحدى ثلاثِ خِلاَلٍ : زناً بعد إحْصَانٍ ؛ وكفرٌ بعد

أيْمَانٍ ؛ وقتلُ نفسٍ بغير حقٍّ.
وروي " أن عثمان رضي الله عنه حين أرادوا قتله أشرف عليهم وقالَ : " عَلاَمَ تَقْتُلُونِي ؟ سَمِعْتُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إلاَّ بإحْدىَ ثَلاَثٍ : رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إحْصَانٍ ؛ فَعَلَيْهِ الرَّجْمُ ، وَرَجُلٌ قَتَلَ عَمْداً ، أو ارْتَدَّ بَعْدَ إسْلاَمِهِ ". فَوَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلاَ إسْلاَمٍ ؛ وَلاَ قَتَلْتَ أحَداً فَأفْتَدِي نَفْسِي مِنْهُ ؛ وَلاَ ارْتَدَدْتُ مُنْذُ أسْلَمْتُ ؛ إنِّي أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسم ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ } ؛ أي هذا الذي ذُكِرَ لكم أمَرَكُمُ اللهُ في كتابهِ لِكَي تَفْعَلُوا ما أمرَكم بهِ ، { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }.

(٠/٠)

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } ؛ أي لا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ الذي لا أبَ لهُ إلا لِحِفْظِهِ وتَمييزه وإصلاحِه ، { حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ }. قال الشعبيُّ : (هُوَ بُلُوغُ الْحُلُمِ ؛ حَيْثُ تُكْتَبُ الْحَسَنَاتُ وَتُكْتَبُ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتُ).
وقال السُّدِّيُّ : (الأشَدُّ : أنْ يَبْلُغَ ثَلاَثِيْنَ سَنَةً). وقال الكلبيُّ : (مَا بَيْنَ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً إلَى ثَلاَثِيْنَ سَنَةً). وجعل أبُو حَنِيْفَةَ غَايَةَ الأَشُدِّ : (خَمْساً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً ؛ فَإذا بَلَغَهَا دَفَعَ إلَيْهِ مَالَهُ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْتُوهاً).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ } ؛ أي أتِمُّوا الكَيْلَ والوزنَ بالعدلِ عند البيعِ والشِّراء ، { لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } ؛ أي إلاَّ طاقَتَها وجَهْدَهَا. وهذه الآيةُ أصلٌ في جواز الاجتهاد في الأحكامِ ، وإنَّ كلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيْبٌ ؛ فإذا اجتهدَ الإنسانُ في الكيلِ والوزن ، ووَقَعَتْ فيه زيادةٌ يسيرةٌ أو نقصان يسيرٌ لم يُؤَاخِذْهُ اللهُ به إذا اجتهدَ جهده ، وإنه اعتاد الكيل على ذلك فزادَ أو نقص أثبت التراجع إذا كان ذلك القدر من التفاوت مما يقع بين الكيلين.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى } ؛ أي إذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا في الْمَقَالَةِ. قِيْلَ : معناه : قولوُا الحقَّ إذا شهدتُم وحكمتُم ولو كان المشهودُ عليه أُوْلِي قرابةٍ من الشاهد.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ } ؛ أي أتِمُّوا فرائضَ اللهِ التي أمرَكم بها ، كما قالَ تعالى : { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يابَنِي ءَادَمَ }[يس : ٦٠]. ويقال : أرادَ بالعهدِ في هذه الآية : النَّذْرَ واليمينَ ، كما قال تعالى :

{ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ }[النحل : ٩١]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ؛ أي في هذا الذي ذكَرَهُ اللهُ لكم وأمرَكم اللهُ به في الكتاب لكي تتَّعِظُوا فَتَمْتَنِعُوا عنِ الْمُحَرَّمَاتِ.

(٠/٠)

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَأَنَّ هَاذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً } ؛ في الجنَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّبِعُوهُ } ؛ أي اعْتَقِدُوا حلالَ هذا الدينِ وحرامَه ومَأْمُورَهُ وَمَنْهِيَّهُ ، { وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ } ؛ أي ولا تَتَّبِعُوا اليهوديَّةَ والنصرانيَّة وسائرَ مِلَلِ الكفرِ ؛ فإنَّها سَبيْلُ الشَّيْطانِ وهي طريقُ النَّارِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } ؛ أي فَيُضِلُّكُمْ ذلك السُّبُلُ الذي تتَّبعونَه بهواكم عن دينِ الله الذي هو الإسلامُ ، { ذالِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ } ؛ أي هذا الذي أمَرَكم اللهُ به في القُرْآنِ ، { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } ؛ أي لِتَتَّقُوا السُّبُلَ المختلفةَ وتَسْتَقِيْمُوا على الإيْمانِ.
قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (هَذِهِ الثَّلاَثُ آيَاتٍ مِنَ الْمُحْكَمَاتِ ؛ وَهُنَّ إِمَامٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيْلِ وَالزَّبُور وَالْفُرْقَانِ ؛ لَمْ يَنْسَخْهُنَّ شَيْءٌ فِي جَمِيْعِ الْكُتُبِ ؛ وَهِيَ مُحَرَّمَاتٌ عَلَى بَنِي آدَمَ كُلِّهِمْ ؛ وَهُنَّ أُمُّ الْكِتَاب ؛ مَنْ عَمِلَ بِهِنَّ دَخَلَ الجَنَّةَ ؛ وَمَنْ تَرَكَهُنَّ دَخَلَ النَّارَ). قال كعبُ الأحبَار : (وَالَّذِي نَفْسُ كَعْبٍ بيَدِهِ ؛ إِنَّ هَذِهِ لأَوَّلُ شَيْءٍ فِي التَّوْرَاةِ : بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ ؛ قُلْ تَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.إِلَى آخرِ الآياتِ الثَّلاَثِ).

(٠/٠)

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ } ؛ معناه : بل آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ.
وَقِيْلَ : معنى (ثُمَّ) معنى العطفِ كأنه قال تعالى : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ }[الأنعام : ٥١] ثم أُتْلُ ما آتاهُ اللهُ موسى من التَّوراةِ. قولهُ : { تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ } أي تَماماً للأحْسَنِ على

الْمُحْسِنِيْنَ النَّبِيُّ موسَى عليه السلام أحدُهم.
ويقالُ : معناه : تَمَاماً على ما أحْسَنَ موسَى عليه السلام. كان موسَى عليه السلام مُحْسِناً فِي معرفةِ العلمِ وكُتُب المتقدِّمين ، فأعطيناهُ التوراةَ زيادةً على ذلك. و(تَمَاماً) نُصِبَ على القطع. وَقِيْلَ : على التَّفسيرِ. وقرأ ابنُ عمر : (عَلَى الَّذي أحْسَنُ) بالرفعِ على معنى : على الذي هُوَ أحْسَنُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي تَتْمِيْماً بالإحسانِ إليهم ؛ وتَبْيِيْناً لكلِّ شيءٍ من الحلالِ والحرام ؛ والهُدى من الضَّلالةِ ؛ والنَجَاةَ من العذاب لِمَنْ آمَنَ به وعَمِلَ بما فيه ؛ لَعَلَّهُمْ بالبعثِ الذي فيه جزاءُ الأعمال يُقِرُّونَ وَيُصَدِّقُونَ.

(٠/٠)

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهَاذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } ؛ أي وَهَذا القُرْآنُ كتابٌ أنزلناهُ فيه بركةٌ وخير كثيرٌ لِمن آمَنَ به. ومعنى الْبَرَكَةِ : ثُبُوتُ الْخَيْرِ وديمومتهُ ، { فَاتَّبِعُوهُ } ؛ أي اقْتَدُوا به في أوامرِهِ ونواهيه ، { وَاتَّقُواْ } ، مخالفَته سُخْطَهُ ، { لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ لتكونوا على رَجَاءِ الرَّحمةِ.

(٠/٠)

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن تَقُولُواْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا } ؛ أي كراهةَ أن يقولوا : إنَّما أنزلَ الكتابَ على طائفتين مِن قبلِنا ؛ أرادَ به التوراةَ لليهود ؛ والإنجيلَ للنصارى ، { وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } ؛ أي وقد كُنَّا عن قراءةِ كُتُبِهِمْ التوراةِ والإنجيل لَغَافِلِيْنَ عمَّا فيه. وَقِيْلَ : معناهُ : وما كُنَّا عن قراءةِ كُتبهم التوراةَ والإنجيل إلاَّ غافلين عمَّا فيهما.

(٠/٠)

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّآ أَهْدَى مِنْهُمْ } ؛ أي وكراهةَ أن يقولوا : لَوْ أنَّا أنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ كما أُنْزِلَ على اليهودِ والنصارى ، لكُنَّا أسرعُ إجابةً منهم. وذلك : أنَّ أهلَ مكَّة كانوا يقولون : قاتلَ اللهُ اليهودَ ؛ كيف كذبوا على أنبيائِهم ، واللهِ لو جاءَنا نذيرٌ كتابٌ لكُنَّا أهْدَى منهم.
قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي القُرْآنُ بَيَاناً ودلالةً من ربكم ، { وَهُدًى } ؛ مِن الضَّلالة ؛ { وَرَحْمَةٌ } ؛ لِمن آمنَ به واتَّبعَهُ ، رَحِمَ اللهُ بإنزالِهِ عبادَهُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ } ؛ أي لا أجِدُ أعْتَى ولا أجْرَأ على الله مِمَّنْ كَذبَ بآيَاتِ اللهِ ، { وَصَدَفَ عَنْهَا } ؛ أي أعْرَضَ عنها ، { سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ } ؛ أي سَنُعَاقِبُ الذين يُعْرِضُونَ عن آياتِنا بأقبحِ العذاب وأشدِّه بإعراضِهم وتكذيبهم.

(٠/٠)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ } ؛ أي ما يَنْظُرُ أهلُ مكةَ بعد نزولِ الآيات وقيام الْحُجَجِ عليهم إلا إتيانَ مَلَكِ الموتِ وأعوانِهِ لِقَبْضِ أوارحهم ؛ أي لَمْ يَبْقَ إلاَّ هذا. قولهُ : { أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ } ؛ معناهُ : أو يَأْتِي أمرُ ربكَ بإهلاكهم والانتقامِ منهم ؛ إمَّا بعقابٍ عاجل أو بالقيامَةِ. وقولهُ : { أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ } ؛ يعني طلوعَ الشَّمْسِ من مغربها.
قال الحسن : (أوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبكَ الْحَاجَّة مِنَ التَّوْبَةِ) ، قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " بَادِرُوا بالأَعْمَالِ سِتّاً : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ وَدَابَّةَ الأَرْضِ ؛ وَخُرُوجَ الدَّجَّالِ ؛ وَالدُّخَانَ ؛ وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ – يَعْنِي مَوْتَهُ – ، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ – يَعْنِي الْقِيَامَةَ " ".
وقال صلى الله عليه وسلم : " بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِب مَسِيْرَةَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةٍ ، وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى ذلِكَ الْبَاب يَدْعُو النَّاسَ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَإِذا أَرَادَ اللهُ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ طَلَعَتْ مِنْ ذلِكَ الْبَاب

سَوْدَاءَ لاَ نُورَ لَهَا ؛ فَتَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ ثُمَّ رَجَعَتْ ، فَيُغْلَقُ الْبَابُ وَتُرَدُّ التَّوْبَةُ ، ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى شَرْقِهَا لِتَطْلُعَ بَعْدَ ذلِكَ مِائَةً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً ، إلاَّ أنَّها سَوْدَاءُ تَمُرُّ مَرّاً ".

وعن ابن عبَّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ؛ رُفِعَ بهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابعَةِ فِي سُرْعَةِ طَيَرَانِ الْمَلاَئِكَةِ ، وَتُحْبَسُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَيُسْتَأْذنُ مِنْ أيْنَ تَطْلُعُ ؛ أمِنْ مَطْلَعِهَا أمْ مِنْ مَغْرِبهَا ، وَكَذا الْقَمَرُ ، فَلاَ يَزَالاَ كَذلِكَ حَتَّى يأْتِيَ اللهُ بالْوَقْتِ الَّذِي وَقَّتَهُ لِتَوْبَةِ عِبَادِهِ.

وَتَكْثُرُ الْمَعَاصِي فِي الأَرْضِ ، وَيَذْهَبُ الْمَعْرُوفُ فَلاَ يَأْمُرُ بِهِ أحَدٌ ، وَيَكْثُرُ الْمُنْكَرُ فَلاَ يَنْهَى عَنْهُ أحَدٌ ، فَإذا فَعَلُوا ذلِكَ حُبِسَتِ الشَّمْسُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَإذا مَضَى مِقْدَارُ لَيْلَةٍ سَجَدَتْ ، وَاسْتَأْذَنَتْ رَبَّهَا مِنْ أيْنَ تَطْلُعُ ، فَلَمْ يجِئْ لَهَا جَوَابٌ حَتَّى يُوَافِقَهَا الْقَمَرُ ، فَيَسْجُدُ مَعَهَا ؛ فَلاَ يَعْرِفُ مِقْدَارَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ إلاَّ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي الأَرْضِ ؛ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ عِصَابَةً قَلِيْلَةً فِي هَوَانٍ مِنَ النَّاسِ.

فَيَنَامُ أحَدُهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مِثْلَ مَا يَنَامُ قَبْلَهَا مِنَ اللَّيَالِي ، ثمَّ يَقُومُ فَيَتَهَجَّدُ وِرْدَهُ ؛ فَلاَ يُصْبِحُ ؛ فَيُنْكِرُ ذلِكَ ، فَيَخْرُجُ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ ؛ فَإذا هِيَ باللَّيْلِ مَكَانَهَا وَالنُّجُومُ مُسْتَدِيْرَةٌ ، فَيُنْكِرُ ذلِكَ وَيَظُنُّ فِيْهِ الظُّنُونَ ، فَيَقُولُ : خُفَّتْ قِرَاءَتِي ؛ أوْ قَصُرَتْ صَلاَتِي ؛ أمْ قُمْتُ قَبْلَ حِيْنٍ؟!

ثُمَّ يَقُومُ فَيَعُودُ إِلَى مُصَلاَّهُ ، فَيُصَلِّي نَحْوَ صَلاَتِهِ فِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ ؛ فَلاَ يَرَى الصُّبْحَ ، فَيَخْرُجُ فَإذا هُوَ باللَّيْلِ كَمَا هُوَ ، فَيُخَالِطُهُ الْخَوْفُ ، ثُمَّ يَعُودُ وَجِلاً خَائِفاً إِلَى مُصَلاَّهُ ، فَيُصَلِّي مِثْلَ وِرْدِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلاَ يَرَى الصُّبْحَ ؛ فَيَشْتَدُّ بِهِ الْخَوْفُ.

فَيَجْتَمِعُ الْمُتَهَجِّدُونَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي فِي مَسَاجِدِهِمْ ، وَيَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بالْبُكَاءِ والتَّضَرُّعِ. فَيُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى جِبْرِيْلَ عليه السلام إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَيَقُولُ لَهُمَا : إنَّ اللهَ يأْمُرُكُمَا أنْ تَرْجِعَا إِلَى مَغَارِبكُمَا فَتَطْلُعَا مِنْهُ ، فإنَّهُ لاَ ضَوْءَ لَكُمَا عِنْدَنَا وَلاَ نُورَ ، فَيَبْكِيَانِ عِنْدَ ذلِكَ وَجَلاً مِنَ اللهِ بُكَاءً يَسْمَعُهُ أهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَأهْلُ سُرَادُقَاتِ الْعَرْشِ ، ثُمَّ يَبْكِي مَنْ فِيْهِمَا مِنَ الْخَلاَئِقِ مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ وَالْقِيَامَةِ.

فَبَيْنَمَا الْمُتَهَجِّدُونَ يَبْكُونَ وَيَتَضَرَّعُونَ وَالْغَافِلُونَ فِي غَفَلاَتِهِمْ ؛ إذا بالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ قَدْ طَلَعَتَا مِنَ الْمَغْرِب أسْوَدَانِ لاَ ضَوْءَ لِلشَّمْسِ وَلاَ نُورَ لِلْقَمَرِ كَصِفَتِهِمَا فِي كُسُوفِهِمَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } [القيامة : ٩] ، فَيَرْتَفِعَانِ كَذلِكَ مِثْلَ الْبَعِيْرَيْنِ يُنَازِعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اسْتِبَاقاً ، فَيَتَصَارَخُ أهْلُ الدُّنْيَا حِيْنَئِذٍ وَيَبْكُونَ.

فَأَمَّا الصَّالِحُونَ فَيَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ ، وَيُكْتَبُ لَهُمْ عِبَادَةً ، وَأمَّا الْفَاسِقُونَ فَلاَ يَنْفَعُهُمْ بُكَاؤُهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَيُكْتَبُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً. فَإذَا بَلَغَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ سُرَّةَ السَّمَاءِ وَمُنْتَصَفَهَا ، جَاءَ جِبْرِيْلُ فَأَخَذ بقُرُونِهِمَا فَرَدَّهُمَا إِلَى الْمَغْرِب ؛ فَيَغْرُبَانِ فِي بَاب التَّوْبَةِ ".

فَقَالَ عُمَرُ : بأَبي وَأُمِّي أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؛ مَا بَابُ التَّوْبَةِ ؟ قَالَ : " يَا عُمَرُ ؛ خَلَقَ اللهُ بَاباً لِلتَّوْبَةِ خَلْفَ الْمَغْرِب ؛ لَهُ مِصْرَاعَانِ مِنْ ذهَبٍ ؛ مَا بَيْنَ المِصْرَاعِ إِلَى الْمِصْرَاعِ أرْبَعُونَ سَنَةً لِلرَّاكِب ، فَذلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحٌ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ خَلْقَهُ إِلَى صَبِيْحَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ مَغْرِبِهِمَا ، فَإذا غَرَبَا فِي

ذلِكَ الْبَابِ رُدَّ الْمِصْرَاعَانِ وَالْتَأَمَ مَا بَيْنَهُمَا ، فَيَصِيْرُ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا صَدْعٌ. فَإذا أُغْلِقَ بَابُ التَّوْبَةِ لَمْ يُقْبَلْ لِلْعَبْدِ تَوْبَةٌ بَعْدَ ذلِكَ ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ حَسَنَةٌ يَعْمَلُهَا إلاَّ مَنْ كَانَ قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِناً ، فَإنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا كَانَ يَجْرِي قَبْلَ ذلِكَ الْيَوْمِ ".

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ } ؛ قرأ حمزةُ والكسائيُّ : (فَارَقُوا) بالألفِ ؛ أي خَرَجُوا من دينِهم وتركوهُ ؛ وهي قراءةُ عَلِيٍّ رضي الله عنه. وقرأ الباقونَ (فَرَّقُوا) بالتَّشديدِ بغيرِ ألفٍ ؛ وهي قراءةُ ابنِ مسعُودٍ وابنِ عَبَّاس وأُبَيّ بنِ كعبٍ ؛ أي جعلُوا دينَ الله فِرَقاً يتهوَّدُ قوم ، ويَتَنَصَّرُ قومٌ ، يدلُّ عليه قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانُواْ شِيَعاً } أي فِرَقاً مختلفةً.

وقال مجاهدُ : (أَرَادَ بِهِمْ الْيَهُودَ) فَإنَّهُمْ كَانُوا يُمَالِئُونَ الْمُشْرِكِيْنَ عَلَى الْمُسْلِمِيْنَ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ. وقال قتادةُ : (هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؛ فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ بَعْضاً). وعن أبي هريرةَ أنه قال : (هُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلاَلَةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ ، فَإنَّ بَعْضَهُمْ يُكَفِّرُ بَعْضاً بالْجَهَالَةِ).

قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَكَانُواْ شِيَعاً } ؛ أي فِرَقاً مختلفةً ، والشِّيَعُ : جمع الشِّيْعَةِ ؛ وهي الفِرْقَةُ التي يَتْبَعُ بعضُها بعضاً ؛ يقال : شَايَعَهُ على الأمرِ ؛ إذا اتَّبَعَهُ ، وَقِيْلَ : أصلُ الشِّيَعِ الظُّهُورُ ؛ يقال : شَاعَ الحديثُ يَشِيْعُ ، إذا ظَهَرَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } ؛ أي لَسْتَ مِن مذاهبهم الباطلة في شيءٍ ؛ أي أنتَ بَرِيْءٌ من جميعِ ذلك ، { إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ } ؛ أي مصيرُهم ومُنْقَلَبُهُمْ إلى اللهِ ، { ثُمَّ يُنَبِّئُهُم } ؛ ثم يجزيهم في الآخرةِ ، { بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } ؛ أي بما كانوا يعملونَ في الدُّنيا ، فَيَنْدَمُ الْمُبْطِلُ ، ويَفْرَحُ الْمُحِقُّ.

(٠/٠)

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا } ؛ أي مَن جاءَ بِخصْلَةٍ من الطاعاتِ فله عَشْرُ

حسناتٍ ، { وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا } ؛ أي مَن جاءَ بخصْلَةٍ من المعصيةِ فلا يُجزى إلاَّ مثلَها ، { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } ؛ بالزيادةِ على مقدار ما يستحقُّون من العقاب ، وإنَّما قالَ ذلك لأنَّ الفضلَ بالنِّعَمِ جائزٌ ، والابتداءُ بالعقاب لا يجوزُ. وقرأ الحسنُ وسعيدُ بن جبير ويعقوبُ : (فَلَهُ عَشْرٌ) بالتنوينِ (أَمْثَالُهَا) بالرَّفعِ على معنى : فَلَهُ حسناتٌ عشرٌ أمثالُها.

وقد تكلَّمَ أهلُ العلمِ بالحسنات العَشْرِ التي وَعَدَ اللهُ في هذه الآية ؛ فقالَ بعضُهم : المرادُ بها التحديدُ بالعشرةِ. وقال بعضُهم : المرادُ بها التضعيفُ دونَ التَّحديدِ بالعشرة ؛ كما يقولُ القائل : لإِنْ أسديتَ إلَيَّ معروفاً لأُكَافِئَنَّكَ بعشرةِ أمثالِهِ.

ثُمَّ اختلفُوا ؛ فقالَ بعضُهم : هو كُلُّهُ بفضلٍ وثَوَابٍ غير ذلكَ ؛ كأنهُ قال تعالى : مَنْ جَاءَ بالْحَسَنَةِ فلهُ عشرُ حسناتٍ من النِّعَمِ والسُّرورةِ زيادةً على ثواب حَسَنَتِهِ. قالُوا : ولا يجوزُ أن تُسَاوَى منْزلةُ التفضيل بمَنْزِلَةَ الثواب ؛ لأن الثوابَ لا بُدَّ أن يُقَارِنَهُ التعظيمُ والإجلالُ.

وقال بعضُهم : هذه الحسناتُ العَشْرُ تفضُّلٌ من اللهِ تعالى ؛ قالوا : ويجوزُ أن يَتَفَضَّلَ على مَن لا يعملُ مِثْلَ ثواب العامل ابتذالاً منه ؛ وتفضل في فعله على مَن لا يستحق عليه شيء.

وعن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : أنَّهُ " إذا حَسُنَ إسْلاَمُ أحَدِكُمْ ؛ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا يُكْتَبُ لَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا ؛ إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ؛ إلَى مَا شَاءَ اللهُ. وَكُلّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا ؛ يُكْتَبُ لَهُ مِثْلُهَا إلَى أنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى "

وعن خُرَيْمِ بنِ فَاتِكٍ قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " الأَعْمَالُ سِتَّةٌ : مُوجِبَتَانِ ؛ وَمِثْلٌ بِمِثْلٍ ؛ وَحَسَنَةٌ بحَسَنَةٍ ؛ وَحَسَنَةٌ بعَشْرٍ ؛ وَحَسَنَةٌ بسَبْعِمِائَةٍ. فَأَمَّا الْمُوجِبَتَانِ ؛ فَهُوَ مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ ، ومَنْ مَاتَ وَهُوَ مُشْرِكٌ باللهِ دَخَلَ النَّارَ. وَأَمَّا مِثْلٌ بمِثْلٍ ؛ فَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ؛ فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا. وَأَمَّا حَسَنَةٌ بحَسَنَةٍ ؛ فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ حَتَّى يُشْعِرَ بهَا نَفْسَهُ وَيَعْلَمُهَا اللهُ مِنْ قَلْبِهِ ؛ كُتِبَ لَهُ حَسَنَةٌ. وَأَمَّا حَسَنَةٌ بعَشْرٍ ؛ فَمَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا. وَأَمَّا حَسَنَةٌ بسَبْعِمِائَةٍ ؛ فَالنَّفَقَةُ فِي سَبِيْلِ اللهِ "

(٠/٠)

قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ أي قل لَهم يا مُحَمَّدُ : إنَّنِي وَفَّقَنِي ربي وأرشدَنِي إلى دين الحقِّ الذي أدعُو الْخَلْقَ إليه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { دِيناً قِيَماً } ؛ أي دِيْناً هو غايةٌ في الاستقامة.

قرأ أهلُ الكوفةِ والشَّام : (قِيَماً) بكسرِ القاف وفتحِ الياء مخفَّفاً ؛ فمعناهُ : المصدرُ ؛ كالصِّغَرِ والكِبَرِ ، ولم يقلْ : قَوْماً ؛ لأنه مِن قولك : قَامَ يَقُومُ قِيَاماً وقِيَماً. وقرأ الباقونَ بالتشديد. وتصديقُ التشديدِ : { ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }[التوبة : ٣٦]{ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ }[البينة : ٥]. والقيِّمُ : الْمُسْتَقِيْمُ. واختلفَ النُّحَاةُ في نصبهِ ؛ فقال الأخفشُ : (هَدَانِي دِيْناً قَيِّماً). وَقِيْلَ : عرَّفَني ديناً. وَقِيْلَ : أعْنِي ديناً. وَقِيْلَ : انتصَبَ على الإغرِءِ ؛ أي الْتَزِمُوا ديناً واتَّبعوا ديناً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } ؛ أي دينَ إبراهيم ؛ وهو بدلٌ من قوله (دِيْناً). وقولهُ (حَنِيْفاً) أي مَائلاً عن الشِّركِ وجميع الأديانِ الباطلة مَيْلاً لا رجوعَ فيه ، وهو نَصْبٌ على الحال ؛ كأنه قال : عَرَّفَنِي دينَ إبراهيم في حالِ حَنِيْفِيَّتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } ، أي ما كانَ إبراهيمُ عليه السلام على دينِ المشركين. إنَّما أضافَ هذا الدينَ إلى إبراهيم ؛ لأن إبراهيمَ كان مُعَظَّماً في عُيُونِ العرب ، وفي قلوب سائرِ أهل الأديَان ؛ إذ أهلُ كلِّ دينٍ يزعمون أنَّهم يُبَجِّلُونَ دينَ إبراهيم عليه السلام.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ أي قُلْ لَهم يا مُحَمَّدُ : إنَّ صلاتِي بعدَ الصَّلواتِ الخمسِ المفروضة ، { وَنُسُكِي } أي طَاعَتِي ، وأصلُ النُّسُكِ : كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بهِ إلَى اللهِ تَعَالَى ، ومنه قولُهم لِلْعَابدِ : نَاسِكٌ. وقال ابنُ جبير : (مَعْنَاهُ : { وَنُسُكِي } فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ للهِ رَب الْعَالِمِيْنَ). ويقالُ : أراد بالصلاةِ صلاةَ العِيْدِ ، وبالنُّسْكِ الأضْحِيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي } أي وَحَيَاتِي ومَوتي للهِ رب الخلائقِ كلِّهم. وإنَّما أضافَ الْمَحْيَا والْمَمَاتَ إلى الله وإن لم يكن ذلكَ مِمَّا يُتقَرَّبُ به إليهِ ؛ لأن الغرضَ بالآية التَّبَرُّئَ إلى اللهِ تعالى من كلِّ حَوْلٍ وقُوَّةٍ والإقرارَ له بالعبوديَّة. وَقِيْلَ : المرادُ بذلك أنَّ الله تعالى هو الْمُخْتَصُّ بأن يُحْيِيهِ ويُميتَهُ ؛ لا شريكَ له في ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذالِكَ أُمِرْتُ } ؛ أي أمَرَنِي بذلك ، { وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ } ؛ أي أوَّلُ مَنِ استقامَ على الإيْمان من أهلِ هذا الزمان. قرأ أهلُ المدينة : (وَمَحْيَايْ) بسكون الياء. وقرأ الباقون بفتحِها كَيْلاً يجتمعَ سَاكِنَانِ. وقرأ السلميُّ : (وَنُسْكِي) بإسكانِ السِّين.

وعن أنس رضي الله عنه عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؛ " أنَّهُ قَرَّبَ كَبْشاً أمْلَحَ أقْرَنَ ؛ فَقَالَ : " لاَ

إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ؛ وَاللهُ أَكْبَرُ ؛ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَب الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ " الآيةُ ، ثمَّ ذَبَحَ فَقَالَ : " شَعْرُهُ وَصُوفُهُ فِدَاءٌ لِشَعْرِي مِنَ النَّار ، وَجِلْدُهُ فِدَاءٌ لِجِلْدِي مِنَ النَّارِ ، وَعُرُوقُهُ فِدَاءٌ لِعُرُوقِي مِنَ النَّار " فَقَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ ؛ هَنِيْئاً مَرِيْئاً ؛ هَذا لَكَ خَاصَّةً ؟ فَقَالَ : " لاَ ؛ بَلْ لأُمَّتِي عَامَّةً إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، أَخْبَرَنِي بذلِكَ جِبْرِيلُ عليه السلام عَنْ رَبِي عَزَّ وَجَلَّ " ".

(٠/٠)

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } ؛ أي قُلْ يا مُحَمَّد : أَغَيْرَ اللهِ أَطْلُبُ إِلَهاً لِي ولكم { وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ } أي هو مَالِكِي ومالِكُكم ومالكُ كلِّ شيء ؛ فكيف أطلبُ النفعَ من مَرْبُوبٍ مثلي ومثلكُم ، وأدَعُ سؤالَ ربي يَملكني ويَملككم ؛ فهل يجوزُ هذا ؟ وهل يحسنُ هذا ؟ لا بُدَّ أن يكون جوابهُ : لاَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا } ؛ أي لا تعملُ كلُّ نفسٍ طاعةً ولا معصيةً إلاَّ عَلَيْهَا. قال أهلُ الإشارةِ : ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ من خيرٍ أو شَرٍّ إلاَّ عليها ، أما الشَّرُّ فهو مأخوذٌ به ، وأمَّا الخيرُ فهو مطلوبٌ منه صِحَّةُ قصدِهِ. وخُلُوِّهِ من الرِّياءِ والعُجْب والافتخار به.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى } ؛ أي ما تحملُ حاملةٌ ثُقْلَ أخرى ، والمعنى : لا يحملُ أحداً ذنبَ غيرِهِ ، بل كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بجُرْمِهَا وعقوبةِ إِثْمِهَا. والوِزْرُ في اللغة : هُوَ الثِّقْلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ } ، أي مصيرُكم ومُنْقَلَبُكُمْ ، { فَيُنَبِّئُكُمْ } ، أي فيجزِيكم ؛ { بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } ؛ في دار الدُّنيا.

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ } ؛ أي جعلكم يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ خَلَفاً في الأرض ،

والْخَلاَئِفُ : جمعُ الْخَلِيْفَةِ ، وكلُّ قَرْنٍ خَلِيْفَةٌ للقرنِ الذين كانوا قبلَهم في الأرضِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } ؛ أي فَضَّلَ بعضَكم في المالِ والمعاشِ والجَاهِ ؛ تقديرهُ : إلى دَرَجَاتٍ ، ثم حُذفَ (إلى) وانتصبَ (دَرَجَاتٍ). ويقالُ : إنَّ الدرجاتِ مفعولٌ عن تقدير : وَرَفَعَكُمْ درجاتٍ ، كما يقال : كَسَوْتُ فلاناً ثوباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ } ؛ أي لِيَخْتَبِرَكُمْ فيما أعطاكُم ؛ يختبرُ الغنِيُّ بالفقيرِ ؛ والفقيرَ بالغنيِّ ، فيظهرُ للناس شُكْرُ الشاكرين وصَبْرُ الصابرين. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي إذا عَاقَبَ فإنهُ سريعُ العقاب مع أنه مَوْصُوفٌ بالْحُلْمِ والإمهالِ ؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ. وَقِيْلَ : أراد بقوله : { سَرِيعُ الْعِقَابِ } سريعَ الحساب. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ } أي غَفُورٌ لِمن تاب من الذنوب ، { رَّحِيمٌ } بمن ماتَ على التوبة. وقال عطاءُ : (سَرِيْعُ الْعِقَاب لأَعْدَائِهِ ، غَفُورٌ رَحِيْمٌ لأَوْلِيَائِهِ). واللهُ أعلمُ.

(٠/٠)

المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } ؛ قال ابنُ عَبَّاس : في قوله : { المص } : (مَعْنَاهُ : أنَا اللهُ أعْلَمُ وأَفصِّلُ). وَقِيْلَ : اللاَّمُ افتتاح اسْمِهِ : لَطِيْفٌ ؛ والميمُ افتتاح اسْمِهِ : مَجِيْدٌ وَمَالِكٌ ؛ والصادُ افتتاح اسْمِه : صَمَدٌ وصَادِقُ الوَعْدِ وصَانِعُ الْمَصْنُوعَاتِ.

وَقِيْلَ : هي حرفُ اسمِ الله الأعظم. وَقِيْلَ : هي حروفٌ تحوي معانٍ كثيرة. وموضعهُ رَفْعٌ بالابتداء ، و { كِتَابٌ } خبرُه ؛ كأنه قالَ : المص حروفُ كتابٍ أُنزِلَ إلَيْكَ. وَقِيْلَ : { كِتَابٌ } خبرُ مبتدأ مضمرٍ ؛ أي هَذا كتابٌ. وَقِيْلَ : رُفِعَ على التقديم والتأخير ؛ يعني : أُنزِلَ إلَيْكَ كِتَابٌ ؛ وهو القُرْآنُ.

قَوْلُهُ : { فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ } أي فلا يَقَعْ في نفسِكَ شَكٌّ منه ؛ خاطبَ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعنَى به الْخَلْقَ كلَّهم ؛ أي لا تَرْتَابُوا وتَشُكُّوا. ويقال : الْحَرَجُ : الضِّيقُ ؛ أي لا يَضِيْقُ صدرُكَ من تأديَة ما أُرْسِلْتَ به ، ولا تَخَافَنَّ من إبلاغِ الرِّسالة ، فإنكَ في أَمَانِ اللهِ ؛ واللهُ يعصِمُكَ من الناسِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِتُنذِرَ } أي أُنْزِلَ إليكَ لِتُخَوِّفَ { بِهِ } بالقُرْآنِ أهلَ مكة. { وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } أي وليكونَ عِظَةً لِمن اتَّبَعَكَ.

(٠/٠)

اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { اتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } ؛ أي اعملوا بمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبكُمْ. وحقيقةُ اتِّبَاعِ القُرْآنِ تصرفُ الناسِ تصريفَ القُرْآن لَهم وتدبُّرهم بتدبيرِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ } أي لا تَتَّخِذُوا من دونِهِ أوْثاناً ، ولا تَتَوَلَّوا أحداً إلا لِوَجْهِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ } ، أي قليلاً ما تَتَّعِظُونَ.

(٠/٠)

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ } أي وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أهْلَكْنَا أهلَها بأنواعِ العذاب فَجَاءَهَا بَأْسُنَا لَيْلاً. وسَمَّى الليلَ بَيَاتاً ؛ لأنه بَيَاتٌ فيه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ } أي وقتَ الظَّهيرةِ ؛ يعني نَهَاراً في وقتُ القَائلَةِ. و { قَآئِلُونَ } : نَائِمُونَ وقتَ الْهَاجِرَةِ.
وإنَّما خصَّ هذين الوقتين بنُزولِ العذاب ؛ لأنَّهما من أوقاتِ الرَّاحة. وَقِيْلَ : من أوقاتِ الغَفْلَةِ. ومجيءُ العذاب في حالِ الراحة أغلظُ وأشدُّ ؛ أهلكَ اللهُ قوم شُعَيْبٍ في نِصْفِ النهار ، وفي حَرٍّ شديدٍ وهم قَائِلُونَ. وفائدةُ هذه الآية : التهديدُ والوعيد على معنى : إنْ لَمْ تَتَّعِظُوا أتَاكُمُ العذابُ ليلاً أو نَهَاراً كما أتَى الأوَّلين الذين لم يَتَّعِظُوا.
ثم أخبَرَ جَلَّ ذِكْرُهُ عن حال مَن أتاهم العذابُ فقال عَزَّ وَجَلَّ : { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } ؛ معناهُ : لم يكن قولُهم ودعاؤُهم حين جاءَهم عذابُنا إلا الاعترافَ بالظلم والشِّركِ ؛ أي اعْتَبرُوا بهم ؛ فكما لم ينفعهُم تضرُّعهم عند رؤيةِ البَأْسِ ؛ كذلك لا ينفعُكم إذا جاءكم العذابُ تضرُّعُكم.
قال سِيْبَوَيْهِ : (إنَّ الدَّعْوَى تَصْلُحُ فِي مَعْنَى الدُّعَاءِ ، وَيَجُوزُ أنْ يُقَالَ : اللَّهُمَّ أشْرِكْنَا فِي صَالِحِ دَعْوَى الْمُسْلِمِيْنَ وَدُعَاءِ الْمُسْلِمِينَ). فإن قِيْلَ : إنَّ الهلاكَ يكون بعد البأسِ ؛ فكيفَ قال : { أَهْلَكْنَاهُمْ }[الكهف : ٥٩]{ أَهْلَكْنَاهَآ }[الأنبياء : ٦] { فَجَآءَهَا بَأْسُنَا } ؟ قِيْلَ : إنَّهما يَقَعَانِ معاً كما يقالُ : أعطيتَني فأحسنتَ. ويجوزُ أن يكون التقديرُ : أهْلَكْنَاهَا في حُكْمِنَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا.

(٠/٠)

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } إخبار عن حالهم يوم القيامة. ودخول الفاء أوَّلَ في هذه الآية لتقريب ما بين الْهَلاك وسؤال يوم القيامة. والمعنى : فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ : هل بلَّغتكُم الرسلُ الرسالَةَ ؟ وماذا أجبتُموهم ؟ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ : هل بَلَّغْتُمْ قَومَكم ما أُرسلتُم به ؟ وماذا أجابُوكم؟

(٠/٠)

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ } ؛ أي لَنَجْزِيَنَّهُمْ بما عملوا بعِلْمٍ منَّا ؛ معناهُ : إنَّا لَنَسْأَلُهُمْ لِنَعْلَمَ أنَّ ما نسألُهم لإقامةِ الحجَّة عليهم. قَوْلُهُ : { وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ } معناهُ : إنَّا كُنَّا عالِمين بكلِّ شيءٍ من تبليغِ الرِّسالةِ وجواب الأُمَمِ.

(٠/٠)

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ } ؛ أي وَزْنُ الأعمالِ يومَ القيامة الحقُّ ؛ لا يُنْقَصُ من إحسان مُحْسِنٍ ؛ ولا يُزَادُ على إساءَةِ مُسِيْءٍ. وقال مجاهدُ : (مَعْنَاهُ : وَالْقَضَاءُ يَوْمَئِذٍ الْعَدْلُ).
قولهُ : { فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } ؛ أي مَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ على سيِّئاتِه فأولئكَ هم الظَّافِرُون بالمرادِ ، { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ } أي رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ على حسناتِه ، { فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ

أَنْفُسَهُم } عَمَواْ حَظَّ أنفسِهم ، { بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ } ؛ أي بما كانوا بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم يَجْحَدُونَ. فَالْخُسْرَانُ : ذهَابُ رَأسِ الْمَالِ ؛ ورأسُ مالِ الإنسان نفسُه ؛ فإذا هَلَكَ بسوءِ عمله فقد خَسِرَ نفسَه.

وقد تكلَّموا في ذِكْرِ الموازينِ يومَ القيامة ؛ قال ابنُ عبَّاس : (تُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ فِي مِيْزَانٍ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَان تُوضَعُ فِيْهِ أعْمَالُهُمْ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنَ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أحْسَنِ صُورَةٍ ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ ؛ فَتَثْقُلُ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ؛ فَيُوضَعُ عَمَلُهُ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ مَنَازِلِهِ ؛ ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : إلْحَقْ بعَمَلِكَ ؛ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَعْرِفُهَا بعَمَلِه.

وَأمَّا الْكَافِرُ ؛ فَيُؤْتَى بعَمَلِهِ فِي أقْبَحِ صُورَةٍ ؛ فَيُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيْزَانِ ؛ فَيَخِفُّ – وَالْبَاطِلُ خَفِيْفٌ – ثُمَّ يُرْفَعُ فَيُوضَعُ فِي النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : إلْحَقْ بَعَملِكَ ؛ فَيَلْحَقُ فَيَأْتِي مَنَازِلَهُ فِي النَّار).

وَقِيْلَ : إنَّ المرادَ بالعملِ في هذا الخبرِ أنَّ الله يجعلُ للحسناتِ صورةً حسَنةً ؛ وللسيِّئاتِ صورةً قبيحةً ، إلاَّ أن عَيْنَ الأعمالِ تُوزَنُ ؛ لأنَّ الأعمال أعراضٌ مُنْقَضِيَةٌ لا تُعَادُ. وقال ابنُ عمر : (يُؤْتَى بصُحُفِ الطَّاعَاتِ وَصُحُفِ الْمَعَاصِي ، فُتُوزَنُ الصُّحُفْ).

وعن رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قالَ : " يُؤْتَى بالْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلَى الْمِيْزَانِ ، ثُمَّ يُؤْتَى بتِسْعَةٍ وَتِسْعِيْنَ سِجِلاً ؛ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَدَّ الْبَصَرِ ؛ فِيْهَا خَطَايَاهُ وَذُنُوبُهُ ؛ فَتُوضَعُ فِي كَفَّةِ الْمِيزَانِ ، ثُمَّ تُخْرَجُ بطَاقَةً مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ بمِقْدَار أنْمُلَةٍ ؛ فِيْهَا شَهَادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ ؛ فَتُوضَعُ فِي الْكَفَّةِ الأُخْرَى. فَيَقُولُ الْعَبْدُ : يا رَب ؛ مَا تَزِنُ هَذِهِ الْبطَاقَةُ مَعَ هَذِه الصَّحَائِفِ؟! فَيَأْمُرُ اللهُ أنْ تُوضَعَ ؛ فإذا وُضِعَتْ فِي الْكَفَّةِ طَاشَتِ الصُّحُفُ وَرَجَحَتِ الْبطَاقَةُ "

وقول بعضُهم : يُوزَنُ الإنسانُ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " يُؤْتَى بالرَّجُلِ الأَكُولِ الشَّرُوب الْعَظِيْمِ فَيُوزَنُ ؛ فَلاَ يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ؛ إقْرَأوا إنْ شِئْتُمْ : { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً } " [الكهف : ١٠٥].

وأما ذِكْرُ الموازينِ بلفظ الجماعة ؛ فلأنَّ الميزانَ يشتملُ على الكفَّتين والخيوطِ والشاهدين. فإن قِيْلَ : ما الحكمةُ في وزنِ الأعمال ، واللهُ قادرٌ عالِمٌ بمقدار كلِّ شيء قبلَ خَلْقِهِ إيَّاهُ وبعدَه ؟ قِيْلَ : لإقامةِ الحجَّة عليهم ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { إنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[الجاثية : ٢٩] فأخبرَ بنسخِ الأعمال وإثباتِها مع عِلْمِهِ بها لِما ذكرنا. وَقِيْلَ : الحكمةُ فيه تعريفِ الله العبادَ ما لَهم عندهُ من جزاءٍ على الخير والشرِّ. وَقِيْلَ : جعلهُ الله علامةً للسعادة والشقاوَةِ. وَقِيْلَ : لامتحانِ الله عبادَهُ بالإيْمان به في الدُّنيا.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } ؛ أي مَكَّنَّاكُمْ بالتمليكِ والإقرار ودفع الموانع ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِي الأرضِ مَعَايشَ ؛ وهو ما تَعِيْشُونَ به من الرِّزْقِ ؛ وهو ما يخرجُ من الأرضِ من الحبُوب والأشجار والثِّمار. وَقِيْلَ : معنى (الْمَعَايشَ) : التواصل إلى ما يُعَاشُ به مِن الحراثة والتجارة ، وأنواعِ الْحِرَفِ والزراعات. قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ } ؛ أي شُكْرُكُمْ فيما صُنِعَ إليكم قليلٌ. وَقِيْلَ : معنى قوله : { وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ } أي تَعِيشُونَ بها أيَّامَ حياتِك من الْمَآكِلِ والمشارب.

(٠/٠)

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ } ؛ أي خَلَقْنَا آدمَ الذي هو أصلُ خِلْقَتِكُمْ ، ثم صوَّرناهُ إنساناً ، { ثُمَّ قُلْنَا } ؛ من بعدِ خَلْقِهِ من الترابِ وتصويرِهِ ؛ { لِلْمَلائِكَةِ } ؛ الذين كانوا في الأرضِ مع إبليسَ : { اسْجُدُواْ لأَدَمَ } ؛ سجدةَ تَحِيَّةٍ ؛ { فَسَجَدُواْ } ؛ المأمورونَ ؛ { إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ } ؛ لآدمَ.

وَقِيْلَ : معنى الآيةِ : ولقد خلقناكُم في بطونِ أُمَّهاتِكم نُطَفاً ؛ ثم علقاً ؛ ثم مُضَغاً ؛ ثم عِظَاماً ؛ ثم لَحْماً ، ثم صوَّرناكُم : الحسَنَ والذميمَ ؛ والطويلَ والقصيرَ ، وصوَّرنا لكُم عُضْواً من العينِ والأنْفِ والأُذُنِ واليَدِ والرِّجْلِ وأشباهِ ذلك.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لأَدَمَ } قال الأخفشُ : ((ثُمَّ) هَا هُنَا فِي مَعْنَى الْوَاوِ) أيْ وقُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ الآنَ. قَوْلُهُ تَعَالَى للملائكةِ : { اسْجُدُواْ لأَدَمَ } قَبْلَ خَلْقِنَا وَتَصْوِيْرِنَا.

وأنكرَ الخليلُ وسيبويه أن تكونَ (ثُمَّ) بمعنى (الواو) ، ولكن تكونُ للتراخِي. ويجوزُ أن يكونَ معنى (ثُمَّ) ها هنا التَّراخِي من حيثُ الإخبارُ دون تَرَادُفِ الحالِ.

(٠/٠)

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } ؛ ليسَ هذا الجوابُ عمَّا سَأَلَهُ تعالى من جهةِ اللفظ ؛ لأن هذا الجوابَ جوابُ : أيُّكما خَيْرٌ ؟ إلاَّ أن هذا جوابٌ من جهةِ المعنى ، فإن معناهُ : إنَّما مَنَعَنِي من السجودِ إلا أنِّي كنتُ أفضلَ منه.

وكان هذا القولُ من اللَّعِيْنِ تَجْهِيْلاً منهُ بخَالِقِهِ ؛ كأن قال : إنَّكَ فضَّلْتَ الظُّلْمَةَ على النُّور وليسَ ذلكَ من الحكمةِ. فأعلَمَ اللهُ تعالى أنهُ صَاغِرٌ بهذا القولِ ، وليس الأمرُ على ما قاله الْمَلْعُونُ ؛ لأنهُ رأى أنَّ جوهرَ النار أفضلُ من جوهرِ الطِّينِ في المنفعةِ ، وليس كذلكَ لأن عَامَّة الثِّمَار والحبوب والفواكه من الطِّينِ ، وكذلك الملابسُ كلُّها لا تخرجُ إلا من الطِّين ، وعمارةُ الأرضِ من الطين ، وهو موضعُ القَرَار عليهِ لا استغناءَ عنهُ في حالٍ من الأحوال. وأما النَّارُ فهي لِلْخَرَاب ، وإنْ كان فيها بعضُ المنافعِ.

وقال ابنُ عبَّاس : (أوَّلُ مَنْ قَاسَ فَأَخْطَأَ الْقِيَاسَ إبْلِيْسُ لَعَنَهُ اللهُ ، فَمَنْ قَاسَ الدِّيْنَ بتَبَعٍ مِنْ رَأيهِ قَرَنَهُ اللهُ مَعَ إبْلِيْسَ). وكان قياسُ إبليسَ أنه قال : النارُ خيرٌ وأفضلُ وأصفَى وأنورَ من الطِّين. وقال ابنُ سيرينَ : (أوَّلُ مَنْ قَاسَ إبْلِيْسُ ، وَمَا عُبدتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إلاَّ بالْمَقَاييْسِ).

وَقَدْ أخْطَأَ عَدُوُّ اللهِ حِيْنَ فَضَّلَ النَّارَ عَلَى الطِّيْنِ ، بَلِ الطِّيْنُ أفْضَلُ مِنَ النَّارِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ؛ أحْسَنُهَا : إنَّ جَوْهَرَ الطِّيْنَ السُّكُونُ وَالْوَقَارُ وَالْحَيَاءُ وَالصَّبْرُ وَالْحُلْمُ ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لآدَمَ بَعْدَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إلَى التَّوْبَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فأَوْرَثَهُ الْمَغْفِرَةَ وَالاجْتِبَاءَ والْهِدَايَةَ وَالتَّوْبَةَ. وَمِنْ جَوْهَرِ النَّار الْخِفَّةُ والطَّيْشُ وَالحِدَّةُ وَالارْتِفَاعُ وَالا ضْطِرَابُ ، وَذلِكَ هُوَ الدَّاعِي لإِبْلِيْسَ بَعْدَ الشَّقَاوَةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ إلَى الاسْتِكْبَار وَالإصْرَار ، فأَوْرَثَهُ الْعَذابَ وَالْهَلاَكَ وَاللَّعْنَةَ وَالشَّقَاءَ.

وَالثَّانِي : أنَّ الطِّينَ سَبَبٌ لِجَمْعِ الأَشْيَاءِ ، وَالنَّارُ سَبَبٌ لِتَفَرُّقِهَا. وَالثَّالِثُ : أنَّ الْخَبَرَ نَاطِقٌ بَأَنَّ تُرَابَ الْجَنَّةِ مِسْكٌ أذفَرُ ، وَلَمْ يَنْطِقِ الْخَبَرُ أنَّ فِي الجَنَّةِ نَاراً وَفِي النَّار تراباً. وَالرَّابعُ : أنَّ النَّارَ سَبَبُ عَذاب الله تَعَالَى لأَعْدَائِهِ ، وَلَيْسَ التُّرَابُ لِلْعَذاب. وَالْخَامِسُ : أنَّ التُّرَابَ مُسْتَغْنٍ عَنِ النَّارِ ، وَالنَّارُ تَخْرُجُ إلَى الْمَكَانِ وَمَكَانُهَا التُّرَابُ).

(٠/٠)

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا } ؛ أي من الجنَّةِ. وَقِيْلَ : من السَّماءِ إلى الأرضِ ، فإنَّ السَّماءَ ليس

بموضعٍ للمتكبرينَ. وَقِيْلَ : معناهُ : فَاهْبطْ من الأرضِ ؛ أي اخْرُجْ منها وَالْحَقْ بَجَزَائِرِ البحار ، فإنَّما تسلط بهِ في الجزائرِ فلا تدخلُ الأرضَ إلا كهيئةِ السَّارقِ عليه أطمار يروعُ فيها ، حتى يخرجَ من الأرضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا } ؛ أي ليسَ لكَ أن تَتَعَظَّمَ في الأرضِ على بَنِي آدمَ ، { فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ } ؛ أي مِن الأذِلاَّءِ. والصّٰغَارُ هُوَ الذُّلُّ.

(٠/٠)

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } ؛ أي قال إبليسُ حين خَشِيَ أن يُعَاجِلَهُ اللهُ بالعقوبة : أمْهِلْنِي وأخِّرْ جزائي إلى يومِ يُبْعَثُونَ مِن قبورهم ؛ وهيَ النفخَةُ الأخيرةُ عندَ قيامِ السَّاعةِ. أرادَ الخبيثُ أن لا يذوقَ الموتَ. { قَالَ } ؛ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ } ؛ أي المؤخَّرين المؤجَّلين إلى يومِ الوقت المعلوم ؛ وهي النفخةُ الأُولى عند موتِ الْخَلْقِ كلِّهم.

وهذا ليسَ بإجابةٍ إلى ما سأَلَ ؛ لأنه سَأَلَ اللهَ الإمهالَ إلى النفخةِ الثانية ، فأبَى اللهُ أن يُعْطِيَهُ ذلكَ ، { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ }[الحجر : ٣٧-٣٨] يعني إلى النفخةِ الأُولى يَموتُ حينئذٍ أهلُ السَّمواتِ والأَرضِ ، ويَموتُ إبليسُ معهم. وبين النفخةِ الأُولى والثانيةِ أربعينَ سنةً.

واختلفُوا في أنَّ اللهَ تعالى هل يُجِيْبُ دعوةَ الكافرِ أم لا ؟ قال بعضُهم : لا يجيبُ ؛ لأنَّ إجابةَ الدُّعَاءِ تكون تَعْظِيماً للدَّاعِي ؛ ولِهذا يرجُو الإنسانُ أنه مُجَابُ الدَّعوةِ ، ولا يُحْسَنُ مِن اللهِ تعالى أن يُعْلِمَ أحداً مدَّةَ حياتهِ لِمَا في ذلك من الإغراءِ بالمعَاصِي. كيفَ يجوزُ ، يُجِيْبَ اللهُ تعالى إبليسَ إلى مَا سألَ ، ولم يكن سُؤَالُهُ على جهةِ التَّضَرُّعِ والْخُشُوعِ والرَّغبةِ إلى اللهِ ، وإنَّما سألَ لِيُغْوِي الناسَ ويُضِلَّهُمْ. وقال بعضُهم : يجوزُ إجابةُ دعاءِ الكافر استدراجاً واسْتِضْلاَلاً لهُ ولغيرِهِ ، ولا تكونُ إجابةُ الكافرِ تعظيماً له بحَالٍ أبَداً.

(٠/٠)

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي } ؛ أي فَبِمَا أضْلَلْتَنِي عنِ الْهُدَى ، { لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ } ؛ أي لأَرْصُدَنَّ علَى طريقِ بَنِي آدمَ ، وأصُدَّهُمْ عن دِيْنِكَ المستقيم. وقال الحسنُ : (مَعْنَى : (أغْوَيْتَنِي) لَعَنْتَنِي). وَقِيْلَ : (أغْوَيْتَنِي) خَيَّبْتَنِي ، وقد يكونُ الغِوَى بمعنى الْخَيْبَةِ. وَقِيْلَ : (أغْوَيْتَنِي) أي أهْلَكتَنِي.

(٠/٠)

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : أنَّ إبْلِيْسَ قَالَ : لآتِيَنَّهُمْ مِنْ قِبَلِ آخِرَتِهِمْ ؛ فَلأُخْبِرَنَّهُمْ أنَّهُ لاَ جَنَّةَ وَلاَ نَارَ ، وَلاَ بَعْثَ وَلاَ حِسَابَ). { وَمِنْ خَلْفِهِمْ } ؛ أي مِنْ قِبَلِ دُنياهم ؛ فَلآمُرَنَّهُمْ بجَمْعِ المالِ مخافةَ الفقرِ وأن لا يؤدوا حقَّهُ ، { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } ؛ أي مِنْ قِبَلِ دِينهم فَأُبَيِّنَ لَهم ضَلالَتَهُم ، وإنْ كانُوا على هُدًى شَبَّهْتُهُ عليهم حتى أُخرِجهم منهُ ، { وَعَن شَمَآئِلِهِمْ } ؛ أي مِنْ قِبَلِ اللَّذاتِ والشَّهواتِ فأُزَيِّنُهَا لَهم ، { وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ } ؛ لِنِعْمَتِكَ.

وقال السُّدِّيُّ : (مَعْنَى : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ } أرَادَ الدُّنْيَا أُغْوِيْهِمْ إلَيْهَا ، { وَمِنْ خَلْفِهِمْ } فمِنَ الآخِرَةِ أشَكِّكُهُمْ فِيْهَا وأبعِدُها عَلَيْهِم ، { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } قَالَ : الْحَقُّ أُشَكِّكُهُمْ فِيْهِ ، { وَعَن شَمَآئِلِهِمْ } قالَ : الْبَاطِلُ أُخْفِيْهِ عَلَيْهِمْ وأُرَغِّبُهُمْ فِيْهِ).

وَقِيْلَ : أرادَ بقولِه { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ } من جهةِ الحسنات أغْفَلَهُمْ عنها ، { وَعَن شَمَآئِلِهِمْ } يعني من جهةِ السيِّئات ، فإنَّ الحسناتِ تُضَاف إلى اليمينِ ، والسيِّئاتِ تُضافُ إلى الشمالِ. وَقِيلَ : معنى الايةِ : ثم لأَحْتَالَنَّ في إغوائِهم من كلِّ وجهٍ. قال قتادةُ : (أتَاكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، غَيْرَ أنَّهُ لاَ يَسْتَطِيْعُ أنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَحْمَةِ رَبكَ ، إنَّمَا تَأْتِيْكَ الرَّحْمَةُ مِنْ فَوْقِكَ).

وقال شقيقُ بنُ إبراهيمَ : (مَا مِنْ صَبَاحٍ إلاَّ قَعَدَ لِي الشَّيْطَانُ عَلَى أرْبَعَةِ مَرَاصِدَ : مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِيْنِي ، وَعَنْ شِمَالِي. أمَّا مَا بَيْنَ يَدَيَّ ؛ فيَقُولُ لِي : لاَ تَحْزَنْ فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ، فَأَقُولُ : ذلِكَ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى.

وَأمَّا مِنْ خَلْفِي ؛ فَيُخَوِّفُنِي الضَّيْعَةَ عَلَى ذُرِّيَّتِي وَمَنْ خَلْفِي ، فَأَقُولُ : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا. وأمَّا مِنْ قِبَلَ يَمِيْنِي ؛ فَيَأْتِيَنِي مِنْ قِبَلِ النِّسَاءِ ، فَأَقُولُ : وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. وأمَّا مِنْ قِبَلِ شِمَالِي ؛ فَيَأْتِيَنِي مِنَ اللَّذاتِ وَالشَّهَوَاتِ ، فأَقُولُ : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

وإنَّما ذكر (مِنْ) في قولِهِ : { مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ } وذكرَ (عَنْ) في قولِهِ : { وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن

شَمَآئِلِهِمْ } لأن القدَّامَ والخلفَ يكونُ لابتداءِ الغاية ، والغايةُ تذكرُ بحرفِ (مِنْ). وأمَّا جهةُ اليمينِ والشمال فإنَّها تكون للانحرافِ ، فذكرَها بـ (عَنْ).

فإن قِيْلَ : مِنْ أينَ عَلِمَ إبليسُ أنه لا يكونُ أكثرُهم شاكرينَ ؛ أي أكْثَرُ الناسِ شاكرينَ ؟ قِيْلَ : إنَّهُ ظَنَّ بهم ظَنّاً ، فوافقَ ظَنُّهُ مَظْنُونَهُ ، كما قالَ : تعالَى : { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ }[سبأ : ٢٠]. وإنَّما ظَنَّ ذلكَ ؛ لأنه لَمَّا تَمَكَّنَ من اسْتِزْلاَلِ آدمَ وحوَّاء ؛ عَلِمَ أنَّ أولادَهما أضعفُ منهما ، فيكون تَمَكُّنُهُ منهم أكثرُ.

(٠/٠)

قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً } ؛ أي أُخْرُجْ من الجنَّةِ. وَقِيْلَ : من السَّمَاءِ ، { مَذْءُوماً } أي مَذْؤُماً مَعِيباً ، والذأمُ والذِّيْمُ : شَدَّةُ الْعَيْب ، يقال : ذامَتِ الرَّجُلَ ذوْمَةٌ وَذأْمَةٌ ؛ إذا عِبْتُهُ وَذِمْتُهُ. قولهُ : { مَّدْحُوراً } أي مُبعداً من الخيرِ والرحمة. والدَّحْرُ : الدَّفْعُ على وجهِ الْهَوَانِ وَالذُلِّ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ : (مَذْءُومًا) مَمْقُوتاً. وقال مجتهدُ : (مَذْءَومًا) صَاغِراً. وقال أبُو العاليةِ : (مَذْءُومًا) أي مُزْدَراً. وقال عطاءُ : (مَدْءُومًا) أيْ مَلْعُوناً. وقال الكسائيُّ : (الْمَذْمُومُ : الْمَقْبُوحُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ واللاَّمُ في قولهِ : (لَمَنْ) لام القَسَمِ دخَلتْ على لفظِ الشَّرطِ والجزاء بمعنى التأكيدِ والمبالغَةِ ؛ كأنهُ قال تَعَالَى : مَنْ تَبعَكَ لأُبَالِغَنَّ في تعذيبهِ عذاباً شَديداً ، كذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ } أي مِنكَ ومن ذُرِّيَّتِكَ ومن كفَّار ذُرِيَّةِ آدمَ عليه السلام.

(٠/٠)

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا

أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَآءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } ؛ أي اسْكُنْ أنتَ وزوجَتُكَ الجنَّةَ ؛ لأن الإضافةَ إليه دليلٌ على ذلكَ ، وحذفُ التاءِ أحسنُ ؛ لِما فيه من الإيجاز من غيرِ إخلالٍ بالمعنى. وأمّا الجنَّةُ التي أسْكَنَهُمَا اللهُ فيها ؛ فهي جَنَّةُ الْخُلْدِ في أكثرِ أقوال أهلِ العلم ، بخلاف ما يقولهُ بعضُهم : إنَّهَا كَانَتْ بُسْتاناً في السَّماءِ غيرَ جنَّةِ الْخُلْدِ. وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى عَرَّفَ الجنَّةَ بالألفِ واللام على جهةِ التَّشريفِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا } ؛ أي مِن أيِّ شيءٍ شِئْتُمَا مُوسِعاً عليكُما ، { وَلاَ تَقْرَبَا هَاذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ } ؛ يجوزُ أن يكونَ منصوباً ؛ لأنَّهُ جوابُ النَّهيِ ، ويجوزُ أن يكون مَجْزُوماً عَطْفاً على النَّهيِ ، ومعناهُ : فتكونا من الضَّارِّيْنَ أنفُسَكما.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَاذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ } ؛ أي زَيَّنَ لَهم الشيطانُ الأكلَ من الشجرةِ ؛ لِيُظْهِرَ لَهما ما سُتِرَ من عَوْراتِهما. وَالْوَسْوَسَةُ : إلْقَاءُ الْمَعْنَى إلَى النَّفْسِ بصَوْتٍ خَفِيٍّ. والفرقُ بينَ وَسْوَسَ لهُ وَوَسْوَسَ إليهِ : أنَّ معنى وَسْوَسَ لَهُ : أوْهَمَهُ ، ومعنى وَسْوَسَ إليهِ : ألْقَى إلَيْهِ.

وإنَّما سُميت العورةُ سَوْأَةً ، لأنه يَسُوءُ الإنسانَ انكِشَافُها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ } قرأ بعضُهم : (مَلِكَيْنِ) بكسرِ اللاَّم ، ومعناهُ : إلاَّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ تَعْلَمَانِ الخيرَ والشَّرَّ ، وإن لم تكونَا ملَكين تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ لا تَموتان.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ } ؛ أي لا تَموتان فَتَفْنَيَانِ أبَداً ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ ياآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ }[طه : ١٢٠] أي على شَجَرَةِ مَن أكلَ منها لَمْ يَمُتْ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى }[طه : ١٢٠] أي جديدٌ لا يَفْنَى. وعلى قراءةِ مَنْ قرأ (مَلِكَيْنِ) بكسرِ اللاَّمِ استدلالاً لهُ بقولهِ تعالى : { هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى }[طه : ١٢٠].

قِيْلَ : كيفَ أوهَمَهُما أنَّهما إذا أكَلاَ من تلكَ الشجرةِ تغيَّرت صورتُهما إلى صورةِ الْمَلَكِ ، أو يزدادُ في حياتِهما ؟ قِيْلَ : أوْهَمَهُمَا أنَّ من حكمةِ اللهِ أن مَن أكَلَ منها صارَ مَلَكاً أو ليزيدَ حياتَهُ. وقِيْلَ : إنَّهُ لم يُطْمِعْهُمَا في أن تصيرَ صورتُهما كصورةِ الْمَلَكِ ، وإنَّما أطْمَعَهُمَا في أن تصيرَ مَنْزِلَتُهُمَا مَنْزِلَةَ الْمَلَكِ في العُلُوِّ والرِّفْعَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } ؛ أي حَلَفَ لَهُمَا إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فيما أقولُ. وإنَّما قال : { وَقَاسَمَهُمَآ } على لفظ المُفَاعَلَةِ ؛ لأنهُ قَابَلَهُمَا بالحلفِ ، وهذا كما يقالُ : عَاقَبْتُ اللِّصَّ ؛ ونَاوَلْتُ الرَّجُلَ.

قال قتادةُ : (حَلَفَ لَهُمَا حَتَّى خَدَعَهُمَا ، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ باللهِ تَعَالَى ، وَقَالَ لَهُمَا : إِنِّي خُلِقْتُ قَبْلَكُمَا ، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا ، فَاتَّبِعَانِي أُرْشِدْكُمَا). وكان بعضُ العلماءِ يقولُ : (مَنْ خَادَعَنَا باللهِ خَدَعَنَا). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم :

(٠/٠)

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَابَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً } ؛ أي أَنْزَلَ اللهُ المطرَ مِن السَّمَاءِ فكانتِ الْكِسْوَةُ منهُ ، يعني أنَّ لِبَاسَهُمْ من نباتِ الأرض من القُطْنُ والكِتَّانِ. وهو ماءُ السَّماء ، وما يكونُ من الكسوةِ من أصوافِ الأغنام ، فَقِوَامُ الأنعام أيضاً من نباتِ ماء السَّماء ، كذا قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (وقوله : { يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ } قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرِيشاً } يَعْنِي مَالاً) هكذا قال ابنُ عبَّاس ومجاهدُ والضحَّاك والسُّدِّيُّ.

ويقالُ : تَرَيَّشَ الرَّجُلُ ؛ إذ تَمَوَّل. وقال ابنُ زيدٍ : (الرِّيْشُ : الْجَمَالُ). وقرأ عثمانُ بنُ عفَّانٍ والحسنُ وقتادة : (وَرِيَاشاً) بالألفِ وهو جَمْعُ رِيْشٍ ، مثلُ ذئبٍ وذِئَابٍ. وقال الأخفشُ : (الرِّيَاشُ : الْخِصْبُ وَالْمَعَاشُ). وَقِيْلَ : معنى الرِّيْشِ : ما يُتَأَنَّثُ بهِ في البيتِ من متاعِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِبَاسُ التَّقْوَى } ؛ قال قتادةُ والسُّدِّيُّ : (هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ) ، { ذلِكَ خَيْرٌ } ؛ لأنَّهُ يَقِي مِن العذاب والعقاب ، كأنَّهُ قالَ : لِبَاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ من الثياب ؛ لأنَّ الفاجرَ وإنْ كان حَسَنَ الثياب فهو بَادِي العورةِ. قال الشاعرُ : إنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لاَ حَيَاءَ لَهُ وَلاَ أَمَانَةَ وَسْطَ الْقَوْمِ عُرْيَانَاوقال ابنُ جُرَيجٍ : (لِبَاسُ التَّقْوَى هُوَ الإِيْمَانُ). وقال مَعْبَدُ الْجُهَنِيُّ : (هَوَ الْحَيَاءُ). وَقِيْلَ : هو السَّمْتُ الْحَسَنُ بالوجهِ. وقال وهب : (الإِيْمَانُ عُرْيَانٌ ؛ وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى ؛ وَرِيْشُهُ الْحَيَاءُ ؛ وَمَالُهُ الْفِقْهُ ؛ وَثَمَرَتُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ). وَقِيْلُ : لباسُ التقوَى ما يُلْبَسُ من الثِّياب للتَّضَرُّعِ والتَّخَشُّعِ مثلَ الصُّوفِ والثِّياب الْخَشِنَةِ ، وهو خيرٌ من لباسِ الْكِبْرِ.

قرأ أهلُ المدينةِ والشَّام والكسائيُّ : (وَلِبَاسَ) بالنصب عطفاً على قوله : (لِبَاساً). وقرأ الباقون بالرَّفعِ على الابتداءِ ؛ وخبَرهُ (خَيْرٌ). وجعلوا (ذلِكَ) صِلَةً في الكلامِ ، ولذلك قرأ ابنُ مسعود وأُبَيُّ بنُ كعبٍ : (وَلِبَاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ } ؛ معناه : أنَّ إنزالَ اللِّباسِ من دلائلِ الله على إثباتِ وحدانيَّتِهِ ونِعَمِهِ ، { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } ، أي لكي يَتَّعَظُونَ فيعرفُوا أنَّ ذلك كلُّهُ مِن اللهِ تعالَى.

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَابَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ } ؛ أي لا يَضُرَّنَّكُمْ الشيطانُ بالدعاءِ إلى الغَيِّ والمعصيةِ كما اسْتَزَلَّ أبَوَيْكُمْ آدمَ وحوَّاءَ من الجنَّةِ { يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا } ، فَتَسَبَّبَ في نَزْعِ لباسهما لِحملهما على المعصيةِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ } ؛ أي لِيُظْهِرَ لَهما عوارتِهما أنَّ ذلك يُغِيْظُهُمَا ، وإنَّما أضافَ الإخراجَ من الجنَّةِ إلى الشيطانِ ؛ لأن ذلكَ كان بوَسْوَسَتِهِ وإغوائِه.

واختلفُوا في لباسِهما في الجنَّةِ ؛ فقال بعضُهم : كان مِن لِبَاسِ الْجَنَّةِ ، عن ابنِ عبَّاس : (أنَّ لِبَاسَهُمَا كَانَ مِنْ الظُّفُرِ ؛ أيْ كَانَ يُشْبهُ الظُّفْرَ ، فَإنَّهُ كَانَ مَخْلُوقاً عَلَيْهِمَا خِلْقَةَ الظُّفُرِ). وقال وهبٌ : (كَانَ لِبَاسُهُمَا مِنَ النُّور). ومعنى قولهِ : { لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ } أي كونُوا على حَذرٍ من ذلكَ ، فإنه عَدُوٌّ لكم. وهذا اللفظُ أبلغُ من أنْ تقولَ : لا تَقْبَلُوا فتنة الشيطانِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ } ؛ أي إنَّ الشيطانَ وَنَسْلَهُ يَرَوْنَكُمْ وأنتم لا ترونَهم ، وإنَّما قالَ هكذا ؛ لأنَّا إذا لَمْ نَرَاهُمْ لم نعرِفْ قصدَهم بالكيدِ والإغْوَاء حتى نكونَ على حَذرٍ في نَجدَةِ نفوسِنا من وَسَاوِسِهِ.

وفي هذا بيانٌ أنَّ أحَداً من البَشَرِ لاَ يَرَى الْجِنَّ ، بخلافِ ما يقولُ بعضُهم : إنَّ منَّا مَن يراهُم. وإنَّما لا يراهُمُ البشرُ ؛ لأنَّهم أجْسَامٌ رقيقةٌ تحتاجُ في رؤيتِكَ إلى أفضلِ شُعاعٍ ، واللهُ تعالى لم يُعْطِنَا من الشُّعَاعِ قَدْرَ ما يُمكننا أن نراهم ، وأمَّا هم فإنَّهم يَرَوننَا ؛ لأنَّهم يرى بعضُهم بعضاً مع أنَّهم أجسامٌ رقيقةٌ ، فلأَنْ يرونَا ونحنُ أجسامٌ كثيفة أوْلَى.

وذهب بعضُ الناسِ إلى أنه يجوزُ أن يراهم البشرُ ، بأنْ يكشِفُوا أجسامَهم ، وقال : وهم مُمَكَّنُونَ من ذلك. وَقِيْلَ : إنَّ هذا لا يصلحُ ؛ لأنه لو أمكنَهم أن يَكْشِفُوا أجسامَ أنفسِهم أمكنَهم أن يكشِفُوا أجسامَ غيرِهم. وقال مالكُ بن دينارٍ : (إنَّ عَدُوّاً يَرَاكَ وَلاَ تَرَاهُ لَشدِيْدُ الْمُؤْنَةِ إلاَّ مَنْ عَصَمَ اللهُ).

وَقِيْلَ : هو زيَّن لآدم فسكن له ، ويجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّمِ ، وأنتَ لا تُقَاومُهُ إلا بعون اللهِ ، والشيطانُ يراكَ وأنتَ لا تراهُ ، وهو لا يَنْساكَ وأنتَ تنساهُ. وفيه يقولُ بعضهم : وَلاَ أرَاهُ حَيْثُمَا يَرَانِي وَعِنْدَمَا أنْسَاهُ لاَ يَنْسَانِيفَيُبْدِي إنْ لَمْ يَكُنْ سَبَانِي كَمَا سَبَى آدَمَ مِنْ جِنَانِوقال ذُو النون : (إنْ هُوَ يَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَاهُ ، فَإنَّ اللهَ يَرَاهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَى اللهَ ، فَاسْتَعِنْ باللهِ عَلَيْهِ ، فَإنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ

ضَعِيْفاً).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي جعلناهم قُرَنَاءَ للذينَ لا يؤمنونَ بالله.

(٠/٠)

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا } ؛ معناهُ : أنَّ كُفَّارَ مَكَّة كانوا إذا فَعَلُوا معصيةً يَعْظُمُ قُبْحُهَا نَحْوَ طوافِهم بالبيتِ عُرَاةً ، وتحريْمِهم ما أحلَّ اللهُ تعالى من البَحِيْرَةِ والسَّائِبَةِ ، قَالُوا : وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَائَنَا وأسلافَنا ، { وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا } : أي بهذه الأشياءِ ، { قُلْ } ؛ لَهم يا مُحَمَّد : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ } ؛ أي لا يأمُرنا بالمعاصِي ، { أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } استفهامٌ بمعنى الإنكار على جهة إلزامِ الْحُجَّةِ ؛ لأنَّهم إنْ قالوا : نقولُ على اللهِ ما لَمْ نَعْلَمْ ، فَضَحُوا أنفسَهم ، وإنْ قالوا : لا نقولُ على الله مَا لا نعلمُ ، لَزِمَتْهُمْ الحُجَّةُ ؛ لأنَّهم لم يكن لَهم حُجَّةٌ على ما قالُوا.

(٠/٠)

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ } ؛ أي بالعدل والصَّواب ، وقال ابنُ عبَّاس : (لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) ، وقال الضَّحاكُ : (بالتَّوْحِيْدِ). { وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } ؛ قال مجاهدُ والسُّدِّيُّ : (أيْ تَوَجَّهُوا إِلَى الْقِبْلَةِ فِي الصَّلاَةِ أَدَاءً عِنْدَ كُلَّ مَسْجِدٍ) ، وقال الكلبيُّ : (مَعْنَاهُ : إذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ وَأَنْتُمْ فِي مَسْجِدٍ ، فَصَلُّوا فِيْهِ وَلاَ يَقُولَنَّ أحدُكمْ : أُصَلِّي فِي مَسْجِدِي ، وَإذا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فَلْيَأْتِ أيَّ مَسْجِدٍ شَاءَ ، وَلْيُصَلِّ فِيْهِ).
وهذه الآية تدلُّ على وُجُوب فعلِ الصَّلاةِ المكتوبة في الجماعةِ ، وقد رُوِيَ عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهُ قَالَ : " مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يُجِبْهُ ، فَلاَ صَلاَةَ لَهُ " وقال صلى الله عليه وسلم : " لَقَدْ هَمَمْتُ

أنْ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بالنَّاسِ ، ثُمَّ أنْظُرُ إلَى قَوْمٍ يَتَخَلَّفُونَ عَنِ الْجَمَاعَاتِ ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ "

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } ، أي مُخْلِصِيْنَ لهُ الطاعةَ والعبادةَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ } ؛ أي خَلَقَكُمْ حين خَلَقَكُمْ مؤمناً وكافراً ؛ وشَقِيّاً وسَعِيداً ، فكما خلقَكم فكذلك تعودون إليه يومَ القيامةِ ، { فَرِيقاً هَدَى } ؛ وهم المؤمنونَ ، { وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ } ؛ وهم أهلُ الكفرِ ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاس ، كما قالَ تعالى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ }[التغابن : ٢] ثم يعيدُهم يومَ القيامةِ كما بدأ خَلْقَهُمْ مؤمناً وكافراً ، فَيَبْعَثُ المؤمنَ مؤمناً ؛ والكافرَ كافراً.

وقال الحسنُ ومجاهدُ : (مَعْنَاهُ : كَمَا بَدَأْكُمْ فَخَلَقَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَم تَكُونُوا شَيْئاً ، كَذلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أحْيَاءً).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ أي إنَّ أهْلَ الضَّلالةِ اتَّخذُوا الشياطينَ أولياءَ بطاعتِهم فيما دَعوهُم إليه ، { وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ } ؛ أي يَظُنُّونَ أنَّهم على الْهُدَى.

(٠/٠)

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَابَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ } ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يطُوفُونَ بالبيتِ عُرَاةً ويقولون : لاَ نطوفُ في الثياب التي أذْنَبْنَا فيها ودَنَّسْنَاهَا بالذنوب ، فكانتِ المرأةُ منهم تَطُوفُ بالبيتِ عَرْيَانَةً باللَّيْلِ ، إلا أنَّهَا كانت تَتَّخِذُ سُيُوراً مُقَطَّعَةً تُشَدُّ في حِقْوَيْهَا ، فكانت السُّيُورُ لا تسترُها سِتْراً تامّاً.

قال المفسِّرون : كانت بنُو عامرٍ في الجاهليَّة يفعلونَ ذلك ، كان رجالُهم يطوفون عراةً بالنَّهار ، ونساؤُهم ليلاً. وحُكِيَ أنَّ امرأةً كانت تطوفُ عريانةً وهي تقولُ : الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُوكانوا إذا قَدِمُوا منهُ طَرَحَ أحدُهم ثيابَه في رجلِهِ ، فإن طافَ وهي عليه ضُرِبَ وانْتُزِعَتْ منهُ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ : { يَابَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } يعني الثِّيَابَ. وقال مجاهدُ : (يَعْنِي : مَا يُوَارِي عَوْرَتُكُمْ وَلَوْ عَبَاءَةً).

وقال الكلبيُّ : (كَانَتْ بَنُو عَامِرٍ لاَ يَأْكُلُونَ مِنَ الطَّعَامِ إلاَّ قُوْتاً ، وَلاَ يَأْكُلُونَ دَسِماً فِي أيَّامِ حَجِّهِمْ ، يُعَظِّمُونَ بذلِكَ حَجَّهُمْ. وَكَانَتْ قُرَيْشُ وَكِنَانَةُ يَفْعَلُونَ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، نَحْنُ أحَقُّ أنْ نَفْعَلَ ذلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { يَابَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ }. { وَلاَ

تُسْرِفُواْ } ؛ أي الْبَسُوا ثيابَكم عندَ كلِّ مسجدٍ ، وكُلُوا اللَّحْمَ والدَّسِمَ ، واشربُوا من ألبانِ السَّوائبِ والبَحَائِرِ ، { وَلاَ تُسْرِفُواْ } أي لا تُجَاوِزُوا تحريْمَ ما أحلَّ اللهُ لكم.

والإِسْرَافُ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ؛ فتارةً تكون مجاوزةُ الحلالِ إلى الحرام ؛ وتارةً تكونُ مجاوزةُ الحدِّ في الإنفاقِ ؛ وتارةً تكونُ بأنْ يأكلَ الإنسانُ فوقَ الشَّبَعِ فيؤدِّي به ذلكَ إلى الضَّرر.

ويروى : أنَّ هَارُونَ الرَّشِيْدَ كان له طبيبٌ نصرانيٌّ حاذقٌ ، فقال لعليِّ بن الحسين ابن واقدٍ : أَلَيْسَ في كتابكم من علمِ الطب شيءٌ ؟ والعلمُ عِلمان : علمُ الأديانِ وعلمُ الأبدانِ ، فقالَ لهُ : إنَّ اللهَ تعالى قد جَمَعَ الطبَّ كلَّه بنصفِ آيةٍ من كتابنا. وقال : ومَا هِي ؟ قال : قَوْلُهُ تَعَالَى : { وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ }. وفقال النصرانيُّ : هل يُؤْثَرُ عن رسولِكم شيءٌ من الطب ؟ قال : نَعَمْ ؛ جمعَ رسولُنا صلى الله عليه وسلم الطبَّ في ألفاظٍ يسيرة. قال : وما هيَ ؟ قال : قَوْلُهُ : " الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ ، وَالْحِمْيَةُ رَأسُ كُلِّ دَوَاءٍ ، وَعَوِّدُواْ كُلَّ جِسْمٍ مَا اعْتَادَ " فقال النصراني : ما تركَ كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوسَ طِبّاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ } ؛ أي لا يرضَى عملَهم ، ولا يُثْنِي عليهم : فلما نَزَلَتْ هذه الآيةُ طَافَ المسلمونَ في ثيابهم ، وأكلُوا اللَّحمَ والدسمَ ، فعيَّرهُم المشركون بذلكَ ، فأنزلَ اللهُ :

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ } أي قُلْ لَهم يَا مُحَمَّدُ : مَن حَرَّمَ الثيابَ التي يَتَزَيَّنُ بها الناسُ ، ومَنْ حَرَّمَ المستلذاتِ من الرِّزْق ؟ ويقالُ : أرادَ بالطيِّباتِ : الحلالَ من الرِّزْقِ ، وفي قَوْلِهِ تَعَالَى : { خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ } أمرٌ للإنسانِ أن يَلْبَسَ أحسنَ ثيابِهِ في الأعيادِ والْجُمَعِ.

(٠/٠)

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)

(٠/٠)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } تخويفٌ ووعيدٌ من

اللهِ تعالى لَهم ، معناهُ : ولكلِّ أهلِ دينٍ مُهْلَةٌ ؛ ولكلِّ وقتٍ مؤقَّت ، فإذا انْقَضَتْ مُهْلَتُهُمْ فلا يستأخِرون من بعدِ الأجلِ ساعةً ولا يستقدمونَ في الأجلِ. وليسَ ذكرُ السَّاعةِ في الآية على وجه التحديدِ ، فإنَّهم لا يستأْخرونَ ولا يستقدمون ساعةً ولا أقلَّ من ساعةٍ ، ولكن ذُكِرَتِ السَّاعةُ لأنَّها أقلُّ أسْمَاءِ الأوقات بين الناسِ.

فإنْ قِيْلَ : لِمَ قال : { يَسْتَأْخِرُونَ } ولم يَقُلْ : يَتَأَخَّرُونَ ؟ قِيْلَ : معناهُ : لا يطلبونَ التَّأَخُّرَ عن ذلكَ لأجلِ اليَأْسِ عنهُ. وقرأ ابنُ سيرينَ : (فَإِذَا جَاءَ آجَالُهُمْ).

(٠/٠)

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَابَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } ؛ معناهُ : يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا أن يأتيكم رُسُلٌ من جِنْسَكُمْ يقرأونَ عليكم ويَعْرِضُونَ عَلَيْكُمْ كِتَابي وكَلامِي ، { فَمَنِ اتَّقَى } ، اللهَ وأطاعَ الرسولَ ، { وَأَصْلَحَ } ؛ العملَ ، { فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } ؛ حين يخافُ أهلُ النار ، { وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } ؛ على ما خَلَّفُوا في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى. وَقِيْلَ : معناهُ : وتكبَّروا عن الإيْمانِ بمُحَمَّد صلى الله عليه وسلم والقُرْآنِ.

(٠/٠)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ } ؛ أي حَظُّهُمْ مما قضَى اللهُ عليهم في الكتاب ؛ وهو سوادُ الوجوهِ وزُرْقَةُ الأعيُنِ ؛ كما قال تعالَى : { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ }[الزمر : ٦٠].
وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْعَذَاب). وقال مجاهدُ : (مَا سَبَقَ مِنَ الشَّقَاوَةِ). وقال الربيعُ : (يَعْنِي يَنَالُهُمْ مَا كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الأَرْزَاقِ وَالأَعْمَال). فَإذا فَرَغَتْ وَفَنِيَتْ ؛ { جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ } أي يَقْبضُونَ أرْوَاحَهُمْ ؛ يَعْنِي مَلَكَ الْمَوْتِ وَأَعْوَانَهُ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ } ؛ يعني إذا جاءَتْهم ملائكةُ العذاب يذيقونَهم عذاباً في الآخرةِ كما قالَ تعالى : { وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ }[إبراهيم : ١٧]. { قَالُواْ } ؛ أي فتقولُ لَهم الملائكةُ – وهم خَزَنَةُ جهنَّم : { أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ } ؛ يعنونَ الأصنامَ. يقولون لَهم ذلك تَوْبِيْخاً وتَنْكِيْراً وحسرةً عليهم ، { قَالُواْ } ؛ فيقولُ الكفَّارُ عندَ ذلك : { ضَلُّواْ عَنَّا } ؛ أي ذهَبَ الأصنامُ عَنَّا. فلم يَقْدِرُوا لنا على نَفْعٍ ولا دفع ضُرٍّ ، { وَشَهِدُواْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ } ؛ أي أقَرُّوا على أنفُسِهم ، { أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ } ؛ في الدُّنيا. قال مقاتلُ : (يَشْهَدُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ بَعْدَمَا شَهِدَتْ عَلَيْهِمُ الْجَوَارِحُ بمَا كَتَمَتِ الأَلْسُنُ).

(٠/٠)

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّن الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ } ؛ معناه : قَالَ اللهُ لَهم : ادْخُلُوا النارَ مع أُمَمٍ قَدْ خلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإنس فِي النَّار.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا } ؛ في الدِّينِ والْمِلَّةِ. ولم يَقُلْ : أخَاهَا ؛ لأنه عَنَى بها

الأمَمَ والجماعةَ ؛ فَلَعَنَتِ المشركونَ المشركين ؛ واليهودُ اليهودَ ؛ والنصارىَ النصارى ؛ والْمَجُوسُ الْمَجوسَ ، ويَلْعَنُ الأتباعُ القادةَ ويقولون : لَعَنَكُمُ اللهُ أنتم عَزَّرْتُمُونَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً } ؛ أي تَلاَحَقُوا واجتمعوا في النَّار.

قرأ الأعمشُ : (حَتَّى إذا تَدَرَكُوا فِيْهَا). وقرأ النخعيُّ : (حَتَّى إذا ادَّرَّكُوا فِيْهَا) بتشديدِ الدَّال من غير ألفٍ. والمعنى : حَتَّى إذا اجتمعُوا في النَّار القادةُ والأتباعُ ؛ { قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ } ؛ أي قالَتْ أُخرَى الأممِ الْمُكَذَّبَةِ لأوَّلِ الأمَمِ { رَبَّنَا هَاؤُلاءِ } ؛ الْمُقَدَّمُونَ ؛ { أَضَلُّونَا } ؛ عن الْهُدَى بإلقاءِ الشُّبهة علَيْنَا ؛ { فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ } ؛ أي زِدْهُمْ في عذابهم ، واجعل عذابَهم مُضَاعفاً مِمَّا علينَا ، { قَالَ } ؛ اللهُ تعالى : { لِكُلٍّ ضِعْفٌ } ؛ أي لكلٍّ من الأَوَّلين والآخرين ضِعْفٌ من العذاب ، { وَلَاكِن لاَّ تَعْلَمُونَ } ؛ أنتُم شِدَّة ما عليهِم.

ومَنْ قرأ (وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ) بالياء ؛ فمعناهُ : لا يعلمُ كلُّ فريقٍ منهم مقدارَ عذاب الفريق الآخرِ. وقال مقاتلُ : (مَعْنَاهُ : { قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ } أي { أُخْرَاهُمْ } دُخُولاً النَّارَ الأَتْبَاعُ { لأُولاَهُمْ } وَهُمْ الْقَادَةُ). وقال السُّدِّيُّ : (أُخْرَاهُمْ الَّذِينَ أتَوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، لأوْلاَهُمْ يَعْنِي الَّذِينَ شَرَّعُوا لَهُمْ ذلِكَ الدِّيْنَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ } أي قالت أوَّلُ الأُممِ لآخر الأمَمِ ، والمتبوعون للتابعين : لم يكُنْ لكم علينا فَضْلٌ في شيءٍ حتى تطلبُوا من اللهِ أن يزيدَ في عذابنا ويُنْقِصَ من عذابكم ، وأنتم كفرتُم كما كفَرْنا ، ونحنُ وأنتم في الكُفْرِ سواءٌ ، وكذا نكونُ في العذاب سواءٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ } ؛ يجوزُ أن يكون هذا من قَوْلِ الأوَّلِينَ للآخرين ، ويجوزُ أن يكونَ قال اللهُ لَهم ذلكَ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ } ؛ أي الذينَ جَحَدُوا بآياتِنا وتَعَظَّمُوا عن الإِيْمانِ بها ؛ لا تفتحُ لأرواحِهم أبوابُ السَّماءِ إذا مَاتُوا هَوَاناً ، وتفتحُ للمؤمنينَ كرامةً لَهم. وَقِيْلَ : معناه : لا تفتحُ لأعمالِهم أبوابُ السَّماءِ ؛ لأنَّها خَبِيْثَةٌ ، بل يَهْوِي بعملهم إلى الأرضِ السَّابعةِ ، وتُرْقَمُ في الصَّخْرةِ التي تحتَ الأرضين كما قالَ اللهُ تَعَالَى : { كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ }[المطففين : ٧-٩].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ } قراءةُ الأكثرينَ بالتَّاء المشدَّدة راجعةٌ إلى جماعةِ الأَبْوَاب. وقرأ بعضُهم بالياءِ والتخفيف ؛ لأن تأنيثَ الأبواب ليس بحقيقيٍّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ } ؛ أي لا يدخلون الْجَنَّةَ أبداً كما لا يدخلُ البعيرُ في خُرْمِ الإبرةِ. وهذا تَمثيلٌ في الدَّلالةِ على يَأْسِ الكفَّار من دخولِهم الجنَّة. والعربُ إذا أرادت تأكيدَ النَّفْيِ عَلَّقَتْهُ بما يستحيلُ كونُه ، كما قالَ الشاعرُ : إذا شابَ الْغُرَابُ أتَيْتُ أهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كاللَّبَنِ الْحَلِيبوالْخِيَاطُ وَالْمَخِيْطُ بمعنى واحدٍ. وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه (أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْجَمَلِ ؛ فَقَالَ : هُوَ زَوْجُ النَّاقَةِ ؛ كَأَنَّهُ اسْتَجْهَلَ مَنْ سَأَلَهُ وَتَعَجَّبَ مِنْهُ). وفي قراءة ابنِ عبَّاس : (حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّلُ) بضمِّ الجيمِ وتشديد الميم ، وهو حَبْلٌ يسمى القَلْسُ. وقال عكرمةُ : (هُوَ الْحَبْلُ الَّذِي يُصْعَدُ بِهِ النَّخْلُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } ؛ أي هكذا يُجزَون.

(٠/٠)

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ } ؛ أي لَهم فراشٌ من النار يضطجِعُونَ ويقعدُونَ وفوقَهم غَوَاشِيُ ؛ أي غَاشِيَةٌ من فوق غَاشِيَةٍ ، كما قالَ تعالى في موضعٍ آخرَ : { لَهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ }[الزمر : ١٦]. وقال صلى الله عليه وسلم : " يَلْبَسُ الْكَافِرُ لَوَحَيْنِ مِنَ النَّار فِي قَبْرِهِ ، فَذلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ "
و { غَوَاشٍ } : وأصلُ غَوَاشٍ : غَوَاشِيُ بإثْبَاتِ الْيَاءِ مَعَ الضَّمَّةِ ، فحذفَتِ الضَّمَّةُ والياءُ استثقالاً ، وأدخلَ الثقل ذهابَ حركَتها وبائه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ } ؛ يعني الكفارين.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } ؛ أي إنَّ الذين آمَنُوا باللهِ

ورسُولهِ ، وعمِلُوا الطاعاتِ بمقدورهم وبوِسْعِهِمْ. { لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } أي طاقَتَها وقدرتَها ، { أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } ؛ باقونَ دائمون.

(٠/٠)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ } ؛ أي نَزَعْنَا ما في قلوبهم من غِشٍّ وحَسَدِ وَعَدَاءِ بعضِهم على بعضٍ في الدُّنيا ، وألْقَيْنَا في قلوبهم التَّوَادُدَ في الآخرةِ حتى لا يَحْسُدُ بعضُ أهلِ الجنَّة بعضاً أعلى درجةً منه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَا } ؛ أي مِن تحتِ شجرِهم وغُرَفِهم الأنْهَارُ في حال نزعنا ما في قلوبهم ؛ تكونُ (تجري) في موضعِ الحال.
قال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَطَلْحَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَمَّار بْنِ يَاسِرٍ وسَلْمَانَ وأبي ذرٍّ ، يَنْزِعُ اللهُ فِي الآخِرَةِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِشٍّ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي الْعَدَاوَةِ وَالثِّقَلِ الَّذِي كَانَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وَالأَمْرُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيْهِ ، فَيَدْخُلونَ إِخْوَاناً مُتَقَابلِيْنَ).
قال : (فَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ تُعْرَضُ لَهُمْ عَيْنَانَ تَجْرِيَانِ ، فَيَشْرَبُونَ مِنْ أحَدِ الْعَيْنَيْنِ ، فَيَذْهَبُ الْهَمُّ مِنْ غِلٍّ ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْعَيْنَ الأُخْرَى ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيْهَا فَتُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ ، وَتُصْقَلُ وُجُوهُهُمْ ، وَيَلْبَسُونَ بَهَاءَ النُّورِ ، وَيُطَيِّبُ اللهُ رِيْحَهُمْ بِهِ).
{ وَقَالُواْ } ؛ فعندَ ذلك يقولون : { الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَاذَا } ؛ أي أرشِدْنا إلى ما صِرْنَا به رَبُّنَا واغتسلنَا من العَيْنَيْنِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ } ؛ قرأ ابنُ عامرٍ : (مَا كُنَّا) بغير واو. وقرأ الباقون بالواوِ : (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ إِلَى هَذا الذي أَكْرَمَنَا اللهُ به لولاَ أَنَّ اللهَ هدَانا إليهِ) وقال صلى الله عليه وسلم : "كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَنْزِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ : لَوْلاَ هَدَانَا اللهُ ، فَتَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ. وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَنْزِلَهُ فِي النَّار فَيَقُولُون : لَوْلاَ أَنَّ اللهَ هَدَانَا "
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } ؛ شهادةٌ منهم بإرسالهِ للحقِّ إليهم ؛ أي جَاءُوا بالصِّدْقِ ؛ فصدَّقناهُم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } ؛ معناه : نادَتْهم الملائكةُ : أنَّ هذه الجنَّةُ التي وُعِدْتُمُوهَا في الدُّنيا بأعمالِكم. وَقِيْلَ : معنى { أُورِثْتُمُوهَا } أنْزِلْتُمُوهَا. وفي الخبرِ : أنه يقالُ لَهم يومَ القيامةِ : جُوزُوا الصِّرَاطَ بعَفْوِي ؛ وادخلوُا الجنَّةَ برحمتِي لا بأعمالِكُم.

(٠/٠)

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ } ؛ وذلكَ حين يستقرُّ أهلُ الجنَّة في الجنَّةِ ، وأهلُ النَّار في النار ؛ ينادي أصحابُ الجنَّةِ أصحابَ النار : أنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا من الثَّواب والكرامة حَقّاً ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ من العذاب حَقًّا ؟ قَالُوا نَعَمْ ، فاعترفُوا في وقتٍ لا ينفعُهم الاعترافُ. وفي (نَعَمْ) قراءتانِ ؛ قراءةُ الكسائيِّ : (نَعِمْ) بكسرِ العين في القُرْآنِ ، وقرأ الباقون بالفتحِ ؛ وهما لُغتان.
وإنَّما سألَ أهلُ الجنةِ أهلَ النار ؛ لأنَّ الكفارَ كانوا يكذِّبون المؤمنين فيما يَدْعُونَ لأنفسِهم من الثواب ولَهم من العقاب ، فَلِذا سألَهم المسلمونَ تَبْكِيْتاً لَهم ، ليكونَ ذلك حَسْرَةً للكفارين وسُرُوراً للمؤمنينَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } ؛ رُوِيَ في الخبر : " أنَّ مُنَادِياً يُنَادِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار ؛ يَسْمَعُهُ الْخَلاَئِقُ كُلُّهُمْ : أنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُحْسِنِيْنَ ، وَأنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ " أي على الكافِرين. وقرأ بعضُهم : (أنَّ لَعْنَةَ اللهِ) بالتشديد وَنصْب اللَّعْنَة.

(٠/٠)

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي عن الدِّيْنِ الذي هو طريقُ اللهِ إلى جَنَّتِهِ ، { وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً } ؛ أي يطلبونَ لَها غَيْراً أو زَيْفاً بإلقاءِ الشُّبهة التي يُلْبسُونَ بها على النَّاسِ ، { وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ } ؛ أي هم جَاحِدُونَ بالبعثِ بعدَ الموتِ.

(٠/٠)

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ } ؛ أي بين الجنَّةِ والنار سُورٌ يحجبُ بينَ الفريقين ، كما قالَ تعالى : { فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }[الحديد : ١٣]. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ } ؛ أي وعلى أعَالِي السُّور بابٌ ؛ يقال : أعالِي عُرْفٍ وجَمْعُهُ أعْرَافٌ ؛ ومنه عُرْفُ الدِّيك ؛ وعُرْفُ الأضراسِ.

والأعْرَافُ : سُورٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ؛ سُمِّي أعرافاً لأن أصحابَهُ ، { يَعْرِفُونَ } ؛ الناسَ ؛ { كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ } ؛ يعرفونَ أهلَ الجنَّةِ ببياضِ وجوههم ؛ وأهلَ النَّار بسوادِ الوجوهِ.

قال عبدُاللهِ بنُ عبَّاس : (أصحابُ الأعْرَافِ : قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ ، فَحَالَتْ حَسَنَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّار ، وَحَالَتْ سَيِّئَاتُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَسَنَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بِهَا الْجَنَّةَ ، وَلاَ سِيِّئَاتٌ فَاضِلَةٌ يَدْخُلُونَ بِهَا النَّارَ ، فَوَقَفُواْ عَلَى السُّورِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّار يَعْرِفُونَ الْكُلَّ بِسِيْمَاهُمْ. فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ عَرَفُوهُ بِبَيَاضِ وَجْهِهِ أغَرّ مُحَجَّلاً مِنْ أثَرِ الْوُضُوءِ ؛ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً. وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ عَرَفُوهُ بِسَوَادِ وَجْهِهِ وَزُرْقَةِ عَيْنَيْهِ).

وعن أبي مَجْلِزٍ رَحِمَهُ اللهُ أنه قال : (هُمْ المَلاَئِكَةُ). فبلغَ ذلك مجاهدَ فقال : (كَذبَ أبُو مَجْلِزٍ ؛ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : { وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ }. فبلغَ ذلك أبا مجْلِزٍ ؛ فقال : (هُمُ الْمَلاَئِكَةُ ، وَالْمَلاَئِكَةُ ذُكُورٌ لَيْسَ بِإِنَاثٍ ؛ صُوَرُهُمْ صُوَرُ الرِّجَالِ).

وَقِيْلَ : قومٌ استوت حسناتُهم وسيِّئاتُهم ، فَوُقِفُوا هناكَ حتى يقضيَ اللهُ فيهم ما يشاءُ ، ثم يدخلونَ الجنَّةَ بفضلِ رحمتهِ ؛ وهم آخرُ مَن يدخلُ الجنة قد عَرَفُوا أهلَ الجنَّة وأهلَ النار. فإذا أراد الله أن يُعَافِيَهُمْ انطلقَ بهم إلى نَهْرٍ يقال لَهُ : نَهْرُ الْحَيَاةِ ؛ كَأَفْتَاتِ الذهَبِ ؛ مُكَلَّلٌ باللُّؤلؤِ ؛ تُرابُهُ الْمِسْكُ. فَيُلْقَوا فيه حتى تُصْبحَ ألوانُهم في نحورهم شامةً بيضاءَ يُعْرَفُونَ بها ، ثم يُؤْتَى بهم فيدخلونَ الجنَّة ، يُسَمَّوْنَ مساكينَ أهلِ الجنَّةِ.

" وسأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أصْحَابُ الأَعْرَافِ ؟ قَالَ : " هُمْ رجَالٌ غَزَوا فِي سَبِيْلِ اللهِ عُصَاةٌ لآبَائِهِمْ ؛ فقُتِلُوا فَأُعْتِقُوا مِنَ النَّارِ بِقَتْلِهِمْ فِي سَبِيْلِ اللهِ ، وَحُبِسُوا عَنِ الْجَنَّةِ بِمَعْصِيَتِهِمْ آبَاءَهُمْ ، فَهُمْ آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ". ورويَ عنِ ابنِ عبَّاس أيضاً أنه قالَ : (هُمْ أوْلاَدُ الزِّنَا). وعن مجاهدٍ : (أنَّهُمْ قَوْمٌ رَضِيَ عَنْهُمْ آباؤُهُمْ دُونَ أُمَّهَاتِهِمْ ، أوْ أُمَّهَاتُهُمْ دُونَ آبَائِهِمْ ، فَيُحْبَسُونَ فِي الأَعْرَافِ إلَى أنْ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنَ خَلْقِهِ ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ } ؛ معناهُ : أنَّ أصحابَ الأعرافِ إذا نَظَرُوا إلى أصحاب الجنَّةِ قالوا لَهم : سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، فيردُّ أهلُ الجنَّةِ عليهم

السَّلامَ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَمْ يَدْخُلُوهَا } أي لا يدخلُ أصحابُ الأعراف الجنَّةَ وهم يطمعونَ في دخولِها ، بأنْ يغفرَ اللهُ لَهم سيِّئاتِهم ويُدْخلَهم الجنَّةَ بحسناتِهم. وما جعلَ اللهُ الطمعَ في قلوبهم إلاَّ لكرامةٍ يزيدُهم بها.

(٠/٠)

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ معناهُ : وإذا نظرَ أصحابُ الأعرافِ إلى أصحاب النَّار ، دَعَوا اللهَ تعالى واستعاذُوا من النَّار وقالوا : رَبَّنَا لا تَجْعَلَنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ في النَّار ؛ أي يَدْعُونَ بذلكَ خَوْفاً مِن اللهِ لأجل معاصِيهم.

(٠/٠)

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (إنَّ أصْحَابَ الأَعْرَافِ يُنَادُونَ الْكِبَارَ مِنَ الْكُفَّار الَّذِينَ كَانُوا عُظَمَاءَ فِي الْكُفْرِ كَالْوَلِيْدِ بْنِ الْمُغِيْرَةِ وَأَبِي جَهْلٍ وَسَائِرِ رُؤَسَائِهِمْ). يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ يُنَادُونَهُمْ وَهُمْ عَلَى السُّور : يَا وَلِيْدَ ابْنَ الْمُغِيْرَةِ! يَا أَبَا جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ! يَا فُلاَنَ ابْنِ فُلاَنٍ ؛ مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ؛ أي تَتَعَظَّمُونَ عنِ الإيْمان باللهِ عَزَّوَجَلَّ.
ثم ينظرونَ إلى الجنَّةِ ؛ فَيَرَوْنَ فيها الضعفاءَ والمساكين مِمَّنْ كان يَسْتَهْزِئُ بهم كفارُ مكَّةَ ؛ مثل صُهَيْبٍ وَخَبَّاب وَعَمَّار وسَلْمَانَ وبلاَلٍ وأشبهاهِم ، فينادَون : { أَهَؤُلاءِ } ؛ الضعفاءُ هُمُ ، { الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ } ؛ أي حَلَفْتُمْ أيُّها المشركون وأنتُم في الدُّنيا ، { لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ } ؛ يا من أقْسَمْتُمْ لا يدخلهم اللهُ الجنَّةَ. قال ابنُ عبَّاس : (فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لأَصْحَاب الأَعْرَافِ : { ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ }).
فإنْ قِيْلَ : كيفَ يصحُّ هذا التأويلُ في الحجاب بينَ الجنَّةِ والنار ؛ ومعلومٌ أنَّ الجنةَ في السَّماءِ والنار

في الأرضِ ؟ قِيْلَ : لَمْ يُبَيِّنِ اللهُ حالَ الحجاب بالمذكور في الآية ، ولا قَدْرَ المسافةِ ، فلاَ يَمتنعُ أن يكون بينَ الجنَّةِ والنار وإنْ بَعْدَتِ المسافةُ.

وقرأ بعضُهم : (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْثِرُونَ) بالثَّاءِ ؛ أي تجمعونَ المالَ الكثيرَ. وقال مقاتلُ في تفسيرِ هذه الآية : (إذا قَالَ أصْحَابُ الأعْرَافِ لأَصْحَاب النَّار : مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ. قَالَ لَهُمْ أصْحَابُ النَّار : وَأنْتُمْ مَا أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ، وَأقْسَمُوا لَتَدْخُلُنَّ النَّارَ مَعَنَا).

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى ، أوْ تَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ لأَهْلِ النَّار : أهَؤُلاءِ الَّذِينَ أقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمْ اللهُ برَحْمَةٍ ؛ أي لا يصيبُهم برحمتِهِ. ثم يقالُ لأصحاب الأعرافِ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

(٠/٠)

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا سَكَنَ أهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ؛ وَسَكَنَ أهْلُ النَّار النَّارَ ؛ وَحُرِمَ أهلُ النَّار الْمَاءَ وَالثِّمَارَ مَعَ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ ألْوَانِ الْعَذاب ، نَادَوا أصْحَابَ الْجَنَّةِ : أنِ اسْقَونَا شَيْئاً مِنَ المَاءِ ، وَالثِّمَارَ مَعَ مَا هُمْ فِيْهِ مِنْ ألْوَانِ الْعَذاب ، نَادَوا أصْحَابَ الْجَنَّةِ : أنِ اسْقُونَا شَيْئاً مِنَ الْمَاءِ ، أوْ صُبُّوا وَأفْرِغُوا عَلَيْنَا ، وَأطْعِمُونَا شَيْئاً مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ مِنْ ثِمَار الْجَنَّةِ). فيجيبُهم أهلُ الجنَّةِ : { قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ } ، أي شرابُ الجنَّة وثِمَارُها. وإنَّما جُعلَ شرابُ الكافرين الحميمَ الذي يُصْهَرُ بِهِ ما في بطونِهم والجلود ، وطعامُهم الضَّرِيْعَ وَالزَّقُّومَ.

وَقِيْلَ : إنَّ أهلَ النار ينادونَ أهلَ الجنَّةِ بعد أن يستغيثُوا فَيُغَاثُوا بمَاءٍ كَالْمُهْلِ ، ثم يستغيثُوا بالطعامِ فيغاثوا بالزَّقُّومِ والضَّرِيْعِ ، فيُقْبلُونَ على الصَّبْرِ فلا يُغني عنهم ، فيقولون : سَوَاءً علينا أَجَزِعْنَا أمْ صَبَرْنَا ، ثم ينادون حينئذٍ أهلَ الجنة : يا أهلَ الجنَّةِ! يا أهلَ السَّعادةِ! منكُم الآباءُ والأمَّهاتُ ؛ والأبناء والأخواتُ ؛ والجيرانُ والمعارف والأصدقاءُ ، أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ حتى تُطْفِئُوا حَرَّ ما نَجِدُ من العطشِ ، أو مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ من الطعامِ فَنَأْكُلُهُ لعلَّهُ يطفئُ عنَّا الجوعَ. فلا يُؤذنُ لأهلِ الجنَّةِ في الجواب مقدارَ أربعينَ سنةٍ ، ثم يُؤذنُ لَهم في جوابهم ؛ فيقولونَ : إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ، يَعْنونَ الماءَ والطعامَ.

وفي الآية بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يستغني عن الطعامِ والشراب وإن كان في العذاب ، قال أبُو الجوزَائِيِّ : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ : أيُّ الصَّدَقَةِ أفْضلُ ؟ قَالَ : (الْمَاءُ ، أرَأَيْتَ أهْلَ النَّار لَمَّا اسْتَغَاثُوا بأَهْلِ الْجَنَّةِ قَالُوا ؟ : أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ).

(٠/٠)

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاوةُ الدُّنْيَا } ؛ أولُ الآية نَعْتٌ للكفارِينَ ؛ ومعناهُ : أنَّهم اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَ أنفُسِهم ؛ لاَهِيْنَ لاَعِبِيْنَ. ويقالُ : هم الذين اخْتَارُوا في دِيْنِهم الباطلَ واللَّعِبَ والفرحَ والْهُزْئَ ، (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي غَرَّهُمْ ما أصابوهُ من زينةِ الدُّنيا مع ما كانوا فيه من طُولِ الأمَلِ ، وكذلك كانوا يَسْتَهْزِئُونَ بالمسلمينَ ، كما رُوِيَ في الخبر : أنَّ أبا جَهْلٍ بَعَثَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلاً يَسْتَهْزِءُ بهِ : أن أطعِمْنِي من عِنَب جَنَّتِكَ أو شيئاً من الفواكهِ! فَقَالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : (قل إنَّ اللهَ حَرَّمْهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).
قَوْلُهُ تَعَالَىَ : { فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَاذَا } ؛ { فَالْيَوْمَ } أي يومَ القيامةِ معناهُ : اليومَ نترُكهم كما تَرَكُوا العملَ للقاءِ يَوْمِهِمْ هَذا. ويقال : معنى قولهِ : { نَنسَاهُمْ } نَتْرُكُهُمْ ، { كَمَا نَسُواْ } أي كما أعْرَضُوا عن العملِ للقاءِ يومِهم هذا اعراضَ الناسي للشيء. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } في موضعِ الجرِّ عَطْفٌ على (مَا نَسُوا) ؛ المعنى : وَبجَحْدِهِمْ بآياتِنَا الدالَّةِ على التوحيدِ { نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَاذَا }.

(٠/٠)

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ } ؛ أي لقد أتَيْنَاهُمْ بالقُرْآنِ الذي أتينَا به آيةً بعد آيةٍ ؛ وسورةً بعد سورةٍ عَلَى عِلْمٍ منَّا بأن ذلكَ أقربُ لِلتَّدَبُّرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { هُدًى وَرَحْمَةً } ؛ في موضعِ نَصْبٍ على تقديرِ : هَادِياً وذا رَحْمَةٍ ، { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ أي يُصَدِّقُونَ أنهُ مِن عندِ اللهِ.

(٠/٠)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ } ؛ معناه : ما ينظرُ أهلُ مكَّة إلا عاقبةَ ما وَعَدَهم اللهُ به في القُرْآنِ أنه كائنٌ ، منه ما يكونُ في الدُّنيا ؛ ومنهُ ما يكونُ في الآخرةِ. ويقالُ معناه : هل يَنْظُرُونَ إلى ما يَؤُولُ إليه أمرُهم من البعثِ والعذاب وورُودِ النَّار.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ } أي يوم يأتي عاقبةُ ما وُعِدُوا فيه ؛ وهو يومُ القيامةِ ، يَقُولُ الَّذِينَ كفرُوا وتَرَكُوا العملَ له في دار الدُّنيا : قدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبنا بالصِّدْق في أمرِ البعثِ بعدَ الموتِ فكذبناهُم ، { فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ } ؛ أي يقولونَ هذا القولَ حين يَرَوْنَ الشُّفعاءِ يشفعونَ للمؤمنين ، فيقال لَهم : ليسَ لكم شَفِيْعٌ ، فيقولون : هل نُرَدُّ إلى الدُّنيا فنُصدِّقَ الرسلَ ، ونعملَ الأعمالَ الصالحة ؟ فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ }. وجوابُ الاستفهامِ بالفاءِ يكونُ نَصْباً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ خَسِرُواْ أَنْفُسَهُمْ } ؛ أي غَبَنُوا حَظَّ أنفُسِهم من الجنَّةِ ، فَوَرَثَهُمْ المؤمنونَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } ؛ أي بَطَلَ عنهم فلم يَنْفَعْهُمْ وذهبَ عنهُم آلِهتُهم ؛ وهي التي كانوا يَفْتَرُونَ بها على الله تعالى أنَّها شفعاؤهم. ويقالُ : معناه : وَضَلَّ عَنْهُمْ حينئذٍ افْتِرَاؤُهُمْ على اللهِ تعالَى.

(٠/٠)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } ؛ وذلكَ : أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عيَّرَ المشركينَ بعبادةِ الأصنامِ بقوله : { وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }[الأعراف : ٥٣] سَأَلُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا مُحَمَّدُ ؛ مَنْ رَبُّكَ الذي تدعُونا إليه ؟ فأرادُوا بذلك أن يَجْحَدُوا معنى في أسمائهِ ، وفي شيء من أفعاله فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةِ ، فتحيَّروا وعجَزُوا عن الجواب.

ومعنى الآية : أنَّ خالِقَكم ورازقَكُم هو اللهُ الذي ابتدأ خَلْقَ السَّمَواتِ والأَرض لا على مثالٍ سابق ؛ فَوَحِّدُوهُ يا أهلَ مكَّةَ واعبدوهُ وأطيعوهُ ؛ ودعُوا هذه الأصنامَ ؛ فإنَّها لم تَخْلُقْ سَماءً ولا أرضاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ } قال ابنُ عَبَّاس : (أَوَّلُهَا الأحَدُ وَآخِرُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ). قال الحسنُ : (هِيَ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا). ويقالُ : في سِتَّةِ ساعاتٍ من ستة أيَّامٍ من أوَّل أيَّامِ الدُّنيا. ولو شاءَ لَخَلَقَهَا في أسرعِ من اللَّحظةِ ، ولكنه عَلَّمَ عبادَهُ التَّأَنِّي والرِّفْقَ والتدبيرَ والتثبُّتَ في الأمور.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ؛ اختلفَ المفسِّرون في ذلكَ ؛ قال بعضُهم : يطلقُ الاستواءُ كما نَطَقَ به القُرْآنُ ولا يكيِّفُ ، كما أثْبَتَ اللهُ ولا نُكَيِّفُهُ. وهذا القولُ مَحْكِيٌّ عن مالكِ بنِ أنسٍ ، فإنه سُئِلَ عن معنى هذه الآية ؛ فقال : (الاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ ، وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ ، وَالإيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ ، وَالْجُحُودُ بِهِ كُفْرٌ ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ).

وقال بعضهُمْ : معنى (اسْتَوَى) : اسْتَوْلَى ، كما يقال : اسْتَواءَ الأميرُ على بلدِ كذا ؛ أي اسْتَوْلَى عليهِ واحتوَى وأحرزه ، ولا يرادُ بذلكَ الجلوسُ. قال الشاعرُ : قَدِ اسْتَوَى بِشْرُ عَلَى الْعِرَاق مِنْ غَيْر سَيْفٍ ودَم مِهْرَاقأراد بذلكَ بِشْرَ بْنَ مَرْوَانٍ ، واستواءَهُ على العراقِ : لا الْمَلِكَ.

وقال بعضُهم : لفظ الاستواءِ في الآيةِ كنايةٌ عن نَفَاذِ الأمْرِ وعِظَمِ القُدْرَةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : ثُمَّ أقبلَ على خَلْقِ العرشِ وعَمَدَ إلى خَلْقِهِ ، وكذلكَ{ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ }[فصلت : ١١] أي عَمَدَ إلى خَلْقِ السَّماءِ.

فإن قِيْلَ : ما معنى دخول (ثُمَّ) في قولهِ تعالى : { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } ، و(ثُمَّ) تكون للحَادِثِ ، واستيلاءُ اللهِ تعالى واقتدارهُ ومُلكه للأشياءِ ثابتٌ فيما لَمْ يَزَلْ ولاَ يزالُ ؟ قِيْلَ : معناه : ثُمَّ رَفَعَ العرشَ فوقَ السَّمواتِ واستولَى عليهِ. وإنَّما أدخلَ (ثُمّ) مُتَّصِلةً في اللفظ بالاستواءِ ؛ لأن الدلالة قد دَلَّتْ من جهةِ العقل على أنَّ اقتدارَهُ على الأمور ثابتٌ فيما لم يزل. وهذا مثلُ قولهِ تعالى : { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ }[محمد : ٣١] أي حتى يُجَاهِدَ الْمُجَاهِدُونَ منكم ونحنُ عَالِمونَ بهم.

ويقال : معنى (ثُمَّ) هنا بمعنى الواو على طريق الجمع والعطف دون التَّراخِي ، فإنَّ خَلْقَ العرشِ والاستيلاء عليه كان قَبْلَ خَلْق السَّمواتِ والأَرضِ. وقد وردَ في الخبر : " أنَّ أوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ الْقَلَمُ ، ثُمَّ اللَّوْحُ ، فأَمَرَ اللهُ الْقَلَمَ أنْ يَكْتُبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ "

(٠/٠)

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } ؛ أي ادْعُوهُ علانيةً وسِرّاً ، فإنَّ التَّضَرُّعَ من الضَّرَاعَةِ وهي إظهارُ شدَّة الحاجةِ. ويقالُ : معنى التَّضَرُّعِ : التَّمَلُّقُ والتَّخَشُّعُ والْمَيْلُ في الجهادِ ، يقال : ضَرَعَ يَضْرَعُ ضَرْعاً إذا مالَ بإِصْبَعَيْهِ يَميناً وشِمالاً خَوْفاً وذُلاً.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَخُفْيَةً } أي أدعُوا بالخضوعِ في السِّرِّ ودونَ العلانيةِ فكأنَّ اللهَ تعالى أمرَ في الدعاءِ أن يُجْمَعَ بَيْنَ أن يُخْفِيَهِ وبين أن يَفْعَلَهُ في غايةِ الْخُضُوعِ والانقطاعِ إليه ؛ لإنَّ ذلكَ أبعدُ من الرِّياءِ.

وهذا القولُ أصحُّ من الأوَّلِ لقولهِ صلى الله عليه وسلم : " خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ " وعن الحسنِ أنه قالَ : (كَانُوا يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً).

وعنْ عُمَرَ رضي الله عنه قالَ : "كَانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لا يَرُدُّهَما حَتَّى يَمْسَحَ بهِمَا وَجْهَهُ " وعن أبي موسَى الأشعريِّ رضي الله عنه قال : "كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ ، فأَشْرَفُوا عَلَى وَادٍ ، فَجَعلَ النَّاسُ يُكَبِّرونَ وَيُهَلِّلُونَ وَيَرْفَعُونَ أصْوَاتَهُمْ ، فَقَالَ : " إنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أصَمَ وَلاَ غَائِباً ، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيْعاً قَرِيْباً ؛ وَإنَّهُ مَعَكُمْ ". وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في مَدْحِ العبدِ الصَّالحِ ورضيَ دُعَاءَهُ : { إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً }[مريم : ٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ؛ أي لا يحبُّ المتجاوِزينَ في الدُّعاءِ. وفي الخبرِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " إيَّاكُمْ وَالاعْتِدَاءَ فِي الدُّعَاءِ ، فَإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ " واختلفُوا في الاعتداءِ في الدُّعاءِ ؛ قال بعضُهم : هو أن يَدْعُو باللَّعْنِ وَالْخِزْيِ ، فيقولُ : لَعَنَ اللهُ فُلاَناً ؛ أخزَى الله فلاناً. أو يَدْعوا بما لا يحلُّ فيجاوزُ حدَّ العبوديَّةِ. وقال بعضُهم : هو أن يَسْأَلَ لنفسهِ منازلَ الأنبياء ، أو يسألَ اللهَ شيئاً مِن حكمتهِ أنه يفعلهُ في الدُّعاء. وَقِيْلَ : هو أن يقولَ : أسْأَلُكَ بحقِّ جبريلَ وبحقِّ الأنبياءِ أن تُعْطِيَنِي كذا. وَقِيْلَ : هو أن يَدْعُو بالصِّياحِ. وَقِيْلَ : هو أن يعملَ عملَ الفُجَّار ويسألَ مسألة الأبرارِ.

(٠/٠)

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا } ؛ أي لاَ تُفْسِدُوا فيها بالشِّرْكِ والمعصيَةِ بعدَ إصلاحِ اللهِ إيَّاها ببعثِ الرُّسُلِ إليها ، فأمَرُوا فيها بالحلالِ ونَهَوا عن الحرام ، فَتَصْلُحُ الأرضُ بالطَّاعَةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : لا تَعْصُوا في الأرضِ فيُمْسِكَ اللهُ المطرَ عنها ، ويهلكَ الحرثَ بمعاصيكُم. وَقِيْلَ : معناهُ : لا تَجورُوا في الأرضِ فتخرِّبوها ؛ لأنَّ الأرضَ قامت بالعدل ، وقد أصلحَها اللهُ بالنِّعمةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً } ؛ أي وَاعْبُدُهُ خائفينَ من عذابِهِ ؛ طامعينَ في رحمتهِ وثوابه. وقال الربيعُ : { خَوْفاً وَطَمَعاً } أي رَغَباً وَرَهَباً. وقال ابنُ جريج : (خَوْفُ الْعَدْلِ وَطَمَعُ الْفَضْلِ). وقال عطيَّةُ : (خَوْفاً مِنَ النِّيْرَانِ وَطَمَعاً فِي الْجِنَانِ). وقال ذُو النون المصريُّ : (خَوْفاً مِنَ الْفِرَاقِ وَطَمَعاً فِي التَّلاَقِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ } ؛ معناهُ : إنَّ إنْعَامَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنينَ. ويقالُ : إنَّ الْمُحْسِنَ مَن أخلصَ حسناتِهِ من الإساءةِ. وإنَّما قال : (قريبٌ) ولم يقل : قريبةٌ ؛ لأنَّ الرحمةَ والعَفْوَ والغفرانَ في معنىً واحدٍ ، وما لم يكن فيه تأنيث حقيقيٌّ كنتَ بالخيار ، إن شئتَ ذكَّرْتَهُ وإن شئتَ أنَّثْتَهُ.

وقال ابنُ جبيرٍ : (الرَّحْمَةُ هُنَا الثَّوَابُ. وقال الأخفشُ : (هِيَ الْمَطَرُ). فيكون القريبُ نعتاً للمعنى دون اللفظِ كقوله : { وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ }[النساء : ٨] ولم يقل : مِنْهَا ؛ لأنُ أرادَ بالقسمةِ الميراثَ والمالَ ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ }[يوسف : ٧٦] ، والصَّاعُ مُذكَّرٌ إلاَّ أنه أرادَ به السرقة والسِّقايةَ. وقال الكسائيُّ : (أرَادَ إنَّ إتْيَانَ رحْمَةِ اللهِ قَرِيْبٌ ، كقولهِ : { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً }[الأحزاب : ٦٣] ؛ أي لَعَلَّ إتْيَانَهَا قَرِيْبٌ).

(٠/٠)

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } ؛ قرأ عاصم (بُشْراً) بالباءِ المضمومةَ والشِّين المَجْزُومَةِ ؛ يعني أنه يَنْشُرُ بالمطرِ ، يدلُّ عليه قَوْلَهُ : { الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ }[الروم : ٤٦]. وقرأ (بُشُراً) بضمِّ الباءِ والشِّين على جمعِ (بُشُر) ؛ مثل نُذُرٍ ونَذِيْرٍ. وقرأ ابنُ عامرٍ : (نُشُراً) بالنون المضمُومة وإشكال الشِّينِ. وقرا حمزةُ والكسائيُّ : (نَشْراً) بالنونِ المفتوحة ، وحزمِ الشِّين على التخفيفِ. وقرأ مسروقٌ : (نَشَراً) بفتحتين ؛ أراد مَنْشُوراً. وقرا نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو : (نُشُراً) بالنون المضمومة وضَمِّ الشِّين.

وقرأ بعضُهم : (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ) بلفظ الوِحْدَانِ. واختارَ أبو عُبيد لفظَ الجماعةِ ، وكان يقولُ : (كُلُّ مَأ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الرِّيَاحِ ذكَرٌ فَهُوَ لِلرَّحْمَةِ ، وَمَا كانَ مِنْ ذِكْرِ الرِّيَاحِ أنْثَى فَهُوَ لِلْعَذابِ). و احتجَّ بمَا رويَ عن النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنهُ كان يقولُ إذا هبَّتْ ريْحٌ : " اللَّهُمَ اجْعَلْهَا رياحاً ، وَلاَ تَجْعَلْهَا ريْحاً ".

والنّشْرُ : جمع النَّشُور ؛ وَهِيَ الرِّيَاحُ الَّتِي تَهُبُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ فَتُثِيرُ السَّحَابَ كَصَبُورٍ وَصَبْرٍ. ومن قرأ (نُشْراً) بضمَّةٍ واحدةٍ فللتخفيفن كما يقالُ : رُسُلٌ ورُسْلٌ. ومن قرأ (نَشْراً) بنصب النون على معنى نَنْشُرُ السَّحابَ نَشْراً. والنَّشْرُ خِلاَفُ الطَّيِّ كَنَشْرِ الثَّوْب بَعْدَ طَيِّهِ ، قال الفرَّاءُ : (النَّشْرُ مِنَ الرِّيَاحِ : الطَّيِّبَةُ اللَّيِّنَةُ الَّتِي تُنْشئُ السَّحَابَ). ومن قرا (بُشْراً) بالباءِ والضمِّ ؛ فهو جمعُ بَشِيْرٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } أي قُدَّامَ الْمَطَرِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { حَتَّى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ } ؛ أي سُقْنَا السَّحابَ بأمرِ اللهِ إلى أرضٍ ليس فيها نباتٌ ، قال ابنُ عبَّاس : (يُرْسِلُ اللهُ الرِّيَاحَ فَتَحْمِلُ السَّحَابَ ، فَتَمُرُّ بِهِ كَمَا يَمُرُّ الرَّجُلُ النَّاقَةَ وَالشَّاةَ حَتَّى تُدِرَّ ثُمَّ تُمْطِرَ ، فَيَخْرُجُ بالْمَطَرِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ } أو لأَحْيَا بلداً مَيِّتاً لا نباتَ فيه. وَقِيْلَ : لا تُمطر السَّماءُ حتى يُرْسِلَ اللهُ أربعةَ أرياحٍ : فَالصَّبَا تُهَيِّجُهُ ، والشِّمَالُ تَجْمَعُهُ ، والجنوبُ تَذْرُوهُ ، والدَّبُورُ تَصْرِفُهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ } ؛ أي بالسَّحَاب ، وَقِيْلَ : بالبلدِ المّيتِ الذي لا ماءَ فيه ولا كَلأَ ، يَنْزِلُ اللهُ به المطرَ ، { فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } ؛ أي فيخرجُ به ألْوَانَ ؛ { كَذالِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى } ؛ أي مِثْلَ ذلكَ الإخراجِ الذي ذكرناهُ في إحياءِ الأرض الميِّتة ، كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى من قُبُورِهِمْ يومَ القيامةِ ، { لَعَلَّكُمْ } بما ينالُكم ، { تَذَكَّرُونَ } ؛ أي تَستَدِلُّونَ على توحيدِ الله وأنهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُور. وقال ابنُ عبَّاس وأبُو هُرَيْرَةَ : (إذا مَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي النَّفْخَةِ الأُوْلَى ، مُطِرَتِ السَّمَاءُ أَرْبَعِينَ يَوْماً قَبْلَ النَّفْخَةِ الأَخِيْرَةِ مِثْلَ مَنِيِّ الرِّجَالِ ، فَيَنْبُتُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ مِنْ ذلِكَ الْمَطَرِ كَمَا يَنْبُتُونَ فِي بُطُون أُمَّهَاتِهِمْ ، وَكَمَا يَنْبُتُ الزَّرْعُ مِنَ الْمَاءِ ، حَتَّى إذا اسْتُكْمِلَتْ أَجْسَادُهُمْ نُفِخَ فِيْهَا الرُّوحَ ، ثُمَّ يُلْقِي عَلَيْهِمْ نَوْمَةً فَيَنَامُونَ فِي قُبُورِهِمْ ، فَإذا نُفِخَ فِي الصُّور النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ – وَهِيَ نَفْخَةُ الْبُوقِ – جَلَسُوا وَخَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَهُمْ يَجِدُونَ طَعْمَ النَّوْمِ فِي رُؤُسِهِمْ ، كَمَا يَجِدُ النَّائِمُ إذا اسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ ، فَعِنْدَ ذلِكَ يَقُولُونَ : يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا. فَيُنَادِيْهِمْ : هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمَرْسَلُونَ).

(٠/٠)

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ } ؛ يعني : إنَّ المكانَ الزَّاكِي من الأرضِ يخرجُ رَيْعُهُ بلا كَدٍّ ولا عناءٍ ولا مَشَقَّةٍ فينتفعُ بهِ ؛ { وَالَّذِي خَبُثَ } ؛ ترابهُ ؛ وهي الأرضُ السَّبْخَةُ ، { لاَ يَخْرُجُ } ؛ رَيْعُهَا ؛ { إِلاَّ نَكِداً } ؛ أي في كَدٍّ وعناءٍ. قال ابنُ عبَّاس : (هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ،

فَإِ ً الْمُؤْمِنَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ فَيَنْتَفِعُ بِهَا ، وَيَنْفَعُهُ الْقُرْآنُ كَمَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ الْبَلَدَ الطَّيِّبَ ، وَالْكَافِرُ لاَ يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ وَلاَ يَعْمَلُ عَمَلاً مِنَ الطَّاعَةِ إلاَّ شَيْئاً يَسيْراً).

والنَّكِدُ في اللُّغَةِ : هُوَ الْقَلِيلُ الَّذِي لاَ يُنْتَفَعُ بِهِ. وَقِيْلَ : معنى قولهِ تعالى : { لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً } أي عَسِيراً قليلاً بعناءٍ ومشقَّةٍ. وقرأ أبو جعفرٍ : (نَكَداً) بفتحِ الكافِ ؛ أي بالنَّكَدِ. وَقِيْلَ : هي لغةٌ في نَكَدٍ ، ويقرأ (نَكْد) بإسكانِها لغةٌ إيضاً ويقال : رجلٌ (نَكْداً) ؛ إذا كان عَسِراً مُمْتَنِعاً من إعطاءِ الحقِّ على وجه الْبُخْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذالِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ } ؛ أي كَمَا صَرَّفْنَا لكم آيةً في إثرِ آيةٍ ؛ هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ ، { لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ } ؛ نِعَمَ الله تعالى ويعتبرونَ بآياتِه وأمثالِه.

(٠/٠)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ } ؛ وهو نوحُ بن لَمك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وهو إدْرِيْسُ. وكان نوحٌ نَجَّاراً بعثَهُ الله إلى قومهِ وهو ابنُ خمسين سنةً ، { فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ } ؛ أي وَحِّدُوهُ وأطيعوهُ ، ولا تعبدُوا معه غيرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرُهُ } ؛ قرأ أبو جعفرٍ ويحيى بن وثَّابٍ والأعمشُ والكسائيُّ : (غَيْرِهِ) بالخفضِ نَعْتاً للإِله. وقرأ الباقون بالرفع على معنى : ما لكُمْ إلَهٌ غيرهُ. وَقِيْلَ : على نِيَّةِ التقديمِ وإن كان مؤخَّراً في اللظ ؛ تقديرهُ : مالكم غيرُ اللهِ من الهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } ، معناهُ إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ إنْ لم تُؤْمِنوا عَذابَ يَوْمِ القيامةِ. وقد يذكرُ الخوفُ ويراد به اليقينُ.

(٠/٠)

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } ؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ من قومهِ : إنَّا لَنَرَاكَ يا نوحُ فِي ذهابٍ من الحقِّ بيِّنٍ لنا لمخالفتِكَ.

(٠/٠)

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ } ؛ أي ليس بي ذهابٌ عن الحقِّ فيما أدعُوكم إليهِ ، { وَلَاكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } ، أي ولكِنْ أرسلَني ربُّ العالمين الذي يَمْلُكُ كلَّ شيءٍ. وإنَّما لم يقل : ليست بي ضلا لةٌ ؛ لأنَّ معنى الضلالةِ الضَّلالُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي } ؛ أي أؤَدِّي إليكم ما حَمَّلَنِي اللهُ من الرِّسالةِ ، وإنَّما قال : { رِسَالَاتِ } لأن الرسالةَ تتضمَّنُ أشياءَ كثيرةً من الأمرِ والنَّهي ؛ والتَّرغيب والتَّرهيب ؛ والوَعْدِ والوعيدِ ، فَذُكِرَ تارةً بلفظٍ يدلُّ على الفعل ؛ وتارةً بلفظٍ يدلُّ على الوِحْدَانِ.
قرأ أبُو عمرٍو : (وَأَبْلِغُكُمْ) بالتخفيف في جميعِ القُرْآنِ كقولهِ تعالى : { أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي }[الأعراف : ٧٩] ، و{ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ }[الجن : ٢٨]. وقرأ الباقونَ مشدَّداً كما قَالَ اللهُ تَعَالى : { يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ }[المائدة : ٦٧].
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنصَحُ لَكُمْ } أي أنْصَحُ لكم فيما أدعُوكم إليه وأحذِّرُكم منه. والنُّصْحُ : إخْرَاجُ الْغِشِّ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، يقالُ : نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ ؛ وَشَكَرْتُهُ وِ َشَكَرْتُ لَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } أي أعلمُ إنْ لم تَتُوبُوا من الشِّركِ أتاكم العذابُ.

(٠/٠)

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ } الألِفُ في أوَّل هذه الآية ألِفُ استفهامٍ ، دخلَ على واو العطف على جهةِ الإنكار ، فَبَقِيَتِ الواوُ مفتوحةً كما كانت. ومعناها : أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبكُمْ على آدَمِيٍّ منكم مِثْلِكُمْ تعرفونَ نَسَبَهُ فيكم ، { لِيُنذِرَكُمْ } ؛ أي لِيُعْلِمَكُمْ بموضعِ الْمَخافَةِ ، { وَلِتَتَّقُواْ } ؛ الشِّرْكَ والمعاصي ، { وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } ؛ أي ولكي تُطِيْعُوا فتُرحَمُوا.

(٠/٠)

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ } ؛ أي فكَذبُوا نوحاً فأنْجَيْنَاهُ من الطُّوفَانِ والمؤمنينَ الذين كانوا معهُ في السَّفينةِ ، وكانوا نَحْواً من ثمانين إنساناً – كذا قال الكَلبيُّ – أربعينَ رَجُلاً وأربعينَ أمرأةً. وَقِيلَ : سَامُ وَحَامُ وَيَافِثُ وَأَزْوَاجُهُمْ ، وستّةُ أناسٍ غيرِهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ } ؛ أي بدَلائِلنَا وآياتنا كمَا ؛ { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ } ؛ أي قَدْ عَمَوْا عنِ الحقِّ والإيْمانِ. وواحدُ الـ (عَمِينَ) : عَمٍ ؛ وهو الذي قد عَمِيَ عن الحقِّ. وَقِيْلَ : معناه : أنَّهم كانوا قَوْماً جَاهِلِيْنَ لأمرِ الله. وَقِيْلَ (كُفَّاراً). وَقِيْلَ : عَمِينَ عن نُزُولِ الغَرَقِ بهم.

(٠/٠)

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً } ؛ أي وَأرْسَلْنَا إلى عَادٍ ؛ وهم قومٌ من أهل اليَمَنِ ، وكان اسمُ مَلِكِهِم عَاداً ، فنُسبوا إليه ، وهو عَادُ بنُ عَوَصِ بْنِ إرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نَوحٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَخَاهُمْ هُوداً } أي أخُوهُمْ في النَّسَب لا في الدِّيْنِ ، وهو هُوَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحِ بْنِ الْجَارُودِ بْنِ عَوَص بْنِ إرَمَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ. وَقِيْلَ : هو هودُ بن شالخ بن أرفخشد بن سَامَ بن نُوحٍ. وإنَّما أرسلَ اللهُ إليهم منهم ؛ لأنَّهم لَهُ أفْهَمُ وَإليه أسْكَنُ. { قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ } ؛ الآية ظاهرةُ المعنى.

(٠/٠)

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ } ؛ أي قالَ الأشرافُ والرُّؤساءُ الذين كَفَرُوا منهم : إنَّا لَنَرَاكَ فِي جَهَالَةٍ. والسَّفَاهَة في اللغة : خِفَّةُ الْحُلْم وَالرَّأيِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } ؛ يعني إنَّهم كَذبُوهُ في دعوَى الرسالةِ ونزول العذاب بهم ، { قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ } ؛ أي لبسَ بي جهالةٌ ، { وَلَاكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ إليكم فيما يَأْمُرُكم به من عبادتهِ وتوحيده. وفي الآيةِ موضعُ أدَبٍ لِخُلُقٍ وَتَعَلُّمٍ مِنَ اللهِ حُسْنُ جَوَابِ السُّفَهَاءِ ؛ لأنَّ هُوداً عليه السلام اقْتَصَرَ عَلَى دَفْعِ مَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ بنَفْيِ مَا قَالُوهُ فَقَطْ ، وَلَمْ يُقَابلْهُمْ بشَيْءٍ مِنَ الْكَلاَمِ الْقَبيْحِ ، وكذلك فَعَلَهُ نُوحُ عليه السلام ؛ فقال : لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ.

(٠/٠)

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ } ؛ على التوبةِ. وقولهِ { نَاصِحٌ } أي أدعوكم إلى التَّوبةِ ، وقد كنتُ فيكم قَبْلَ اليومِ أمِيْناً ، فكيفَ تَتَّهِمُونَنِي اليومَ.

(٠/٠)

أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ } ؛ قد تقدَّم تفسيرُه. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ } ؛ أي وَاذْكُرُوا هذه النِّعمةَ العظيمةَ بأن أوْرَثَكُمُ الأرضَ بعدَ هلاكِ قوم نُوحٍ.
والْخُلَفَاءُ : جَمْعُ الْخَلِيْفَةِ على غيرِ لفظ الوِحْدَانِ ؛ لأن لَفْظَهُ يقتضي أن يُجمعَ على خَلاَئِفَ كما يقالُ : صَحِيْفَةٌ وَصَحَائِفُ إلاَّ أنه مثل ظَرِيْفٌ وظُرَفَاءُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً } ؛ أي فضيلةً في الطُّولِ ، قال ابنُ عبَّاس : (أطْوَلُهُمْ مِائَةُ ذِرَاعٍ ، وأَقْصَرُهُمْ سِتُّونَ ذِرَاعاً). وقال وَهَبُ : (كَانَ رَأسُ أحَدِهِمْ كَالْقُبَّةِ الْعَظِيْمةِ ، وَكَانَ عَيْنُ أحَدِهِمْ يُفَرِّخُ فِيْهَا السِّبَاعُ وَكَذلِكَ مَنَاخِرُهُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى : {

فَاذْكُرُواْ ءَالآءَ اللَّهِ } ؛ أي نِعَمَ اللهِ عليكم واعملوا بما تقتضيهِ نِعَمُهُ ، { لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } ؛ أي لِتَظْفَرُوا بالنَّجاةِ والبقاء.

(٠/٠)

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا } ؛ أي قالوا : يَا هُودُ ؛ أَتَأْمُرُنَا أن نَعْبُدَ رَبّاً واحداً ، ونَتْرُكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا من الآلِهَةِ ، فقال لَهم : إنْ لم تفعلُوا ما آمرُكم به أتاكمُ العذابُ ، قالوا : { إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ أي تُخوِّفُنَا من العذاب ، { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنآ } ؛ أنَّكَ رسولٌ من عندِ الله.

(٠/٠)

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ } ؛ أي قد وَجَبَ عليكم من رَبكُمْ عذابٌ وسَخَطٌ وَالرِّجْسُ وَالرِّجْزُ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمُ } ؛ أي تُخَاصِمُونَنِي في آلِهَتكُم وأنتم صنعتُموها بأيديكم ، { مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ } ؛ أي في عبادتِها ، { فَانْتَظِرُواْ } ؛ حُصولَ العذاب بكم ، { إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ } ؛ أنْ يُهْلِكَكُمُ اللهُ بعذابٍ مِن عندِهِ.

(٠/٠)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

قولهُ عَزَّ وَجَلَّ : { فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا } ؛ أي خَلَّصْنَاهُ من العذاب والذينَ معه بنِعْمَةٍ منَّا عليهم ؛ وأمَرْناهُم بالخروجِ من بَيْنَ الكُفَّار قبلَ إنزالِ العذاب عليهم ؛ { وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ أي اسْتَأْصَلْنَاهُمْ بالريِّحِ الْعَقِيْمِ ، فما بَقِيَ منهم أحدٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ } أي ما أهْلَكَهُمُ اللهُ إلاَّ وكان في عِلْمِهِ أنهُ لو لم يُهْلِكْهُمْ ما كانوا مؤمنينَ.

فصلٌ : وكانت قصة عاد وإهلاكهم على ما ذكره السُّدِّيُّ وغيره من المفسرين : (أنَّ عَاداً كانَ مساكنُهم اليمنَ ، وكان مساكنُهم الأسَاف ؛ وهي رمالٌ يقال لَها : رَمْلُ عَالِجٍ وَدَهْمَانَ وَنِيْرَانَ ، ما بين عُمَانَ إلى حَضْرَمَوْتَ ، وكانوا قد فَشَوا في الأرضِ. وقَهَرُوا أهلَها بقوَّتِهم التي أعطاهُم اللهُ إيَّاها ، وكانوا يعدبونَ الأوثانَ.

فَبَعَثَ اللهُ إليهم هُوداً نَبيّاً عليه السلام مِن أوسَطِهم في النَّسَب ، وأفضَلِهم في الْحَسَب ، فأمَرَهم أن يُوَحِّدُوا اللهَ ولا يعبدُوا غيرَهُ ، وأن يَكُفُّوا عن ظُلْمِ الناسِ ، فَأَبُوا عليهِ وكَذبُوهُ وقالوا : مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟! وتَجَبَّروا في الأرضِ وبَطَشُوا بَطْشَةَ الجبَّارينَ ، فلما فَعَلُوا ذلك أمْسَكَ اللهُ عنهمُ الْمَطَرَ ثلاَثَ سنين حتى جَهِدَهُمْ ذلك.

وكان الناسُ في ذلكَ الزَّمَانِ إذا أنْزِلَ بهم بَلاَءٌ وَجَهَدٌ مَضَوا إلى البيتِ الحرام بمَكَّةَ مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم وسألُوا الله الْفَرَجَ ، وكلُّ الناس مُسْلِمُهُمْ وكافِرُهم مُعَظّماً لِمَكَّةَ حَرَسَهَا اللهُ ، عَارفاً بحُرْمَتِهَا. وكان أهلُ مكَّةَ يومئذ الْعَمَالِيْقَ ، أبوهُم عِمْلِيْقُ بْنُ لاَوِدِ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ ، وكان رئيسُ العماليقِ يومئذٍ بمكة رَجُلاً يقال لهُ : مُعَاوِيَةُ بْنُ بَكْرٍ ، وكانت أمُّهُ من عَادٍ.

فلمَّا قُحِطَ المطرُ من عَادٍ وجَهِدُوا ؛ قالوا : جَهِّزُوا منكم وَفْداً إلى مَكَّةَ يَسْتَسْقِي ، فَبَعَثُوا قِيلَ بن عنز ، ولُقَيمَ بن عزال في سبعينَ رَجُلاً ، فلما قَدِمُوا مكةَ نزلوا على مُعَاوِيَةَ بنِ بكرٍ وهو في خارج مكَّةَ ، فأنزلَهم وأكرمَهم ، وكانوُا أخوالَهُ وأصهارَهُ ، فأقامُوا عندَهُ شَهْراً يشربونَ الْخَمْرَ وتغنِّيهم الْجَرَادَتَانِ ؛ وهما قَيْنَتان لمعاويةَ.

فلما رأى طُولُ مقامِهم وقد بعثَهُم قومُهم يتَغَوَّثُونَ من البَلاَءِ الذي أصابهم ؛ شُقَّ ذلك عليهِ فقال : إخْوَاني وأصْهَاري وهؤلاءِ مقيمونَ عندِي وهم ضَيْفِي ، واللهِ لا أدري ما أصنعُ بهم ، أسْتَحِي أن آمُرَهم بالخروجِ إلى حاجتهم ، فَيَظُنُّونَ أن ذلك لضيق مكانِهم عنده ، وقد هَلَكَ قومُهم من وارئهم جَهْداً وعَطَشاً ، فَشَكا ذلكَ إلى قِينَتَيْهِ الجرادتين ؟ فقالتَا : قُلْ شِعْراً لِنُغَنِّيْهِمْ بهِ لا يدرونَ مَن قالَهُ ، لعلَّ ذلك يُخْرِجُهم. فقالَ : معاويةُ : ألا يا قِيْلَ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنَمْ لَعَلَّ اللهَ يَسْقِيْنَا غَمَامَافَيَسْقِي أرْضَ عَادٍ إنَّ عَاداً قَدْ أمْسوا لاَ يَبِينُونَ الْكَلاَمَامِنْ الْعَطَشِ الشَّدِيْدِ فَلَيْسَ نَرْجُو بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيْرَ وَلاَ الْغُلاَمَاوَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بخَيْرٍ فَقَدْ أمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ أيَامَوأَنْتُمْ هَا هُنَا فِيْمَا اشْتَهَيْتُمْ نَهَارُكُمْ وَلَيْلَكُمْ التَّمَامَافَقُبحَ وَفْدُكُمْ مِنْ وَفْدِ قَوْمٍ وَلاَ لُقُّوا التِّحِيَّةَ والسَّلاَمَا

(٠/٠)

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَاهٍ غَيْرُهُ } ؛ أي وأرسلنَا إلَى ثَمُودَ أخَاهُمْ صَالِحاً في النَّسَب. وثَمُودُ : اسْمٌ لِلْقَبِيْلَةِ ؛ سُمُّوا بهذا الاسمِ لأنَّهم كانوا على عَيْنٍ قليلةِ الماء ، وموضعُهم بالْحِجْرِ بين الشَّامِ والمدينَةِ ، والثَّمْدُ : الماءُ القليلُ. وثَمُودُ في كتاب الله مصروفٌ وغيرُ مصروفٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ }[هود : ٦٨] فَصَرَفَ الأوَّل دونَ الثاني ، فمَن صَرَفَهُ جعلَهُ اسْماً للحَيِّ ؛ فيكونُ مُذكَّراً سُمِّيَ به مذكَّرٌ ، ومَن لم يَصْرِفْهُ جعله اسْماً للقبيلةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي دلالةٌ فاصِلَةٌ بينَ الحقِّ والباطلِ من ربكم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { هَاذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً } ؛ إشارةٌ إلى نَاقَةٍ بعَيْنِها. قال ابنُ عبَّاس : (أتَاهُمْ صَالِحُ عليه السلام بنَاقَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ الْمَلْسَاءَ بمَسْأَلَتِهِمْ ، فَتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ بدُعَائِهِ ، فَانْصَدَعَتْ عَنْ نَاقَةٍ عَشْرَاءَ ، فَلَمْ يُؤْمِنُواْ). وفي بعضِ الرِّواياتِ : أخرجَ اللهُ من الصخرةِ ناقةً ، خَلْفَهَا سَقْبُهَا الَّذِي وَلَدَتْهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَكُمْ آيَةً } أي علامةٌ لِنُبُوَّتِي ، فتعتبرُوا وتوحِّدُوا ربَّكم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ } ؛ أي دعُوها تَرْتَعُ في أرضِ الْحِجْرِ من العُشْب ، { وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ } ؛ أي بقَتْلٍ أو ضَرْبٍ أو مكروهٍ ، { فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ؛ أي مؤْلِمٍ إنْ فعلتُم ذلك.

(٠/٠)

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ } أي وَاذْكُرُوا إذِ استخلفَكم في الأرضِ من بعدِ هلاك عَادٍ ، { وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً } ؛ أي وَأَنْزَلَكُمْ في الأرضِ الْحِجْرَ تَبْنُونَ في سُهولها قصوراً في العَيصِ ، { وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً } ؛ في طُولِ الشِّتَاءِ. وَقِيْلَ : إنَّهم لِطُولِ

أعمارِهم كانوا يحتاجون أن يَنْحِتُوا مِن الجبال ؛ لأن السُّقُوفَ والأبنيةَ كانت تَبْلَى قبل فَنَاءِ أعمارِهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاذْكُرُواْ آلآءَ اللَّهِ } ؛ أي احفظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم ، { وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ } ؛ أي ولا تَعْمَلُوا في الأرضِ بالمعاصي والدُّعَاءِ إلى غيرِ عبادةِ الله تعالى.

(٠/٠)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ } ؛ أي قال الأشرافُ الرُّؤساءُ منهم الذينَ تَعَظَّمُوا عن الإيْمان به { لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ } لِلَّذينَ اسْتُضْعِفُوا مِنَ المؤمنين : أتعْلَمُونَ أنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ إليكم مِنْ رَبِهِ؟
وفي هذا ذمٌّ للكفارينَ من وجهين ؛ أحدُهما : الاسْتِكْبَارُ ؛ وهو رفعُ النَّفْسِ فوقَ قَدْرِهَا وجُحُودُ الحقِّ.
و الآخرُ : أنَّهم اسْتَضْعَفُوا مَن كان يَجِبُ أنْ يُعَظِّمُوهُ وَيُبَجِّلُوهُ. وفي ؛ { قَالُواْ } ؛ أي قَوْلُ قومِ صالحٍ : { إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ } ؛ مَدْحٌ لَهم حيث ثَبَتُوا على الحقِّ ، وأظهروهُ مع ضَعْفِهِمْ من مقاومةِ الكفَّار.

(٠/٠)

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ } ؛ أي قال رؤساؤُهم الذين تعَظَّمُوا عن الإيْمان بصالحٍ عليه السلام : إنَّا بالَّذِي صَدَّقْتُمْ بهِ من رسالتهِ جَاحِدُونَ.

(٠/٠)

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } ؛ معناه : فَعَقَرُوا النَّاقَةَ التي جعل الله لَهم آيةً ودلالةً على نُبُوَّةِ نَبيِّهِمْ ، وقد كان صالحُ عليه السلام قال لَهم : (هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسُوءٍ). وإنَّما أضافَها إلى اللهِ على التَّخْصِيْصِ والتّفْصِيْلِ ، كما يقالُ : بَيْتُ اللهِ. وَقِيْلَ : أُضيفت إلى اللهِ بأنَّها كانت بالتَّكْوِيْنِ من غير اجتماعِ ذكَرٍ وأُنْثَى ولم تَكُنْ في صُلْبٍ ولا رَحِمٍ ، ولم لِلْخَلْقِ فيها سَعْيٌ. قَوْلُهُ تَعَالَى : (آيَةً) نُصِبَ على الحال. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ } أي تَجَاوَزُوا الْحَدَّ في الكفرِ والفساد. { وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ } ؛ بهِ من العذاب على قَتْلِ النَّاقَةِ ، { إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ }.

(٠/٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ؛ أي أخذتْهم الزَّلْزَلَةُ ثُمَّ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ عليه السلام كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ }[فصلت : ١٧]. والصَّاعِقَةُ : هِيَ الاحْتِرَاقُ ؛ أي احْتَرَقُوا ، { فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } ؛ أي مَيْتِيْنَ قد هَمَدُوا رَمَاداً جُثُوماً. والْجُثُومُ : الْبُرُوكُ عَلَى الرُّكَب. وَقِيْلَ : معنى الصَّيْحةِ والصاعقةِ واحدٌ ، فإن الصاعقةَ اسمٌ لما يُصْعَقُونَ بهِ ؛ أي يَموتُونَ.

(٠/٠)

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ } ؛ معناه : فأعرضَ صالحُ عنهم حين عَقَرُوا الناقَةَ ، وعرفَ أنَّ العذابَ يأتيهم وقال : يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ رَبي وَنَصَحْتُ لَكُمْ في أداءِ الرِّسالةِ إليكُم ، { وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } ؛ أي مَنْ يَنْصَحُ لَكُمْ.
قال ابنُ عبَّاس : (فَخَرَجَ صَالِحُ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ؛ وَهُمْ مِائَةٌ وَعَشْرَةٌ ؛ حَتَّى إذا فَصَلَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَهُوَ يَبْكِي ، الْتَفَتَ خَلْفَهُ فَرَأى الدُّخَانَ سَاطِعاً ، فَعَرَفَ أنَّ الْقَوْمَ قَدْ هَلَكُواْ ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ أَلْفاً وَخَمْسَمِائَةٍ. فَلَمَّا هَلَكُوا رَجَعَ صَالِحُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ، فَسَكَنُوا دِيَارَهُمْ حَتَّى تَوَالَدُوا وَمَاتُوا فِيْهَا).

فإن قِيْلَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ } عطفٌ على قوله : { فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ }[الأعراف : ٧٨] ؛ فكيف تكونُ الصَّيْحَةُ بعد هلاكِهم ؟ قِيْلَ : إنَّ الفاءَ في قوله : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ } للتَّعْقِيْب والإخبار لا لِتَرَادُفِ الحالِ ، وهذا راجعٌ إلى حالِ عَقْرِهِمْ الناقةَ ، لكنَّ الله ساقَ القِصَّةَ في أمرِهم إلى آخرها ، ثم عَطَفَ على ذلكَ ما فعلَهُ صالِحُ للكشفِ عن عُذْرِهِ في مسألةِ إنزال العذاب بهم بعدَ كَثْرَةِ نُصْحِهِ لَهم وإصرارهم على فعلهم. وجوابُ إخوانهِ لا يَمْنعُ أنَّ صالِحاً قالَ هذا القولَ بعد هلاكِ القومِ لِيَعْتَبرَ بذلكَ مَن كانَ معهُ من المؤمنينَ.

فَصْلٌ : وقصَّتُهم ما حكاهُ السُّدِّيُّ وغيرهُ : (أنَّ عاداً لَمَّا هلكت عَمَّرَتْ ثَمُودُ بعدَها ، واستُخْلِفُوا في الأرضِ ، فَنَزلُوا فيها وكَثُرُوا ، وكانوا في سَعَةٍ من عيشِهم ، فَعَتَوا على اللهِ ، وأفسَدُوا في الأرضِ وعَبَدُوا غيرَ اللهِ ، فبعثَ اللهُ إليهم صالِحاً من أوْسَطِهِمْ نَسَبً ، فدعاهُم إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حتى شَمَطَ وَكَبرَ ولا يَتْبَعُهُ منهم إلا قليلٌ مستضعفونَ.

فلما أَلَحَّ عليهم في الدُّعاء والتَّخويفِ سألوه أنْ يُرِيَهُمْ آيةً تكونُ مِصْدَاقاً لقولهِ ، فقال لَهم : أيُّ آيةٍ تريدون ؟ فأشارُوا له إلى صخرةٍ منفردة من ناحية الْحِجْرِ ، وقالوا لهُ : أخْرِجْ لنا من هذه الصَّخْرةِ ناقةً جَوْفَاءَ عَشْرَاءَ ، فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بكَ وصدَّقناكَ.

فأخذ عليهم صالِحُ عليه السلام المواثيقَ ، فَفَعَلُوا ، فصلَّى رَكعتين ودَعَا رَبَّهُ ، فَتَمَخَّضَتِ الصخرةُ تَمَخُّضَ النَّتُوجِ بولدِها ، ثم تَحَرَّكَتْ وانصدعَتْ عن ناقةٍ عَشْرَاءَ جَوْفَاءَ ، كما وَصَفُوا وهم ينظرون ، ثم نَتَجَتْ سقياءَ مِثْلَهَا في الْعِظَمِ ، فلمَّا خرجت الناقةُ قال لَهم صالِحُ : هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ يَوْمٍ معلومٍ.

فمكثَتِ الناقةُ ومعها سَقبُها في أرضِ ثمود ترعَى الشَّجَرَ وتشربُ الماءَ ، فكانت تَرِدُ الماءَ غِبّاً ، فإذا كان يومُها وضعت رأسَها في بئرٍ يقال لها بِئْرُ النَّاقَةِ ، فما ترفعُها حتى قد شَرِبَتْ كلَّ ما فيها ، لا تدعُ قطرةً واحدة ، ثم ترفعُ رأسَها فَتَنْفَشِخُ كما تَنْفَجِحُ لَهم ، فيحلبونَ ما شاءُوا من لَبَنِهَا ، فيشربون ويدَّخِرُون ، ويَمْلأُونَ آنِيَتَهُمْ كلَّها ، ثم تصدرُ من على الفَجِّ الذي وردت منه ؛ لأنَّها لا تعد أن تصدرَ من ماءٍ تردُ لضيقة.

(٠/٠)

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ } ؛ معناه : وأرْسَلْنَا لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَتَأْتُونَ السَّيِّئَةَ ؛ وهي إتيانُ الذُّكُور في الأدْبَار. والفَاحِشَةُ : السَّيِّئَةُ الْعَظِيْمَةُ

الْقُبْحِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ } أي لم يفعَلْها أحدُ قبلَكم.
قال ابنُ عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : (أَوَّلُ مَا عَمِلُوا عَمَلَهُمُ الْخَبِيْثَ أنْ خَصِبَتْ بلاَدُهُمْ فَانْتَجَعَهَا أَهْلُ الْبُلْدَانِ ، فَتَمثَّلَ لَهُمْ إبْلِيْسُ فِي صُورَةِ شَابٍّ ، ثُمَّ دَعَا إلَى دُبُرِهِ فَنُكِحَ ، فَعَبثُوا بذلِكَ الْعَمَلِ زَمَاناً ، فلَمَّا كَثُرَ فِيْهِمْ عَجَّتِ الأَرْضُ إلَى رَبِهَا ، فَسَمِعَتِ السَّمَاءُ فَعَجَّتْ إلَى رَبِهَا ، فَسَمِعَ الْعَرْشُ فَعَجَّ إلَى رَبِهِ ، فَأَمَرَ اللهُ السَّمَاءَ أنْ تَحصِبَهُمْ ، وَالأَرْضَ أنْ تَخْسِفَ بِهِمْ).

(٠/٠)

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ } ؛ أي إنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ في أدبارهم شَهْوَةً ، وتتركون إتْيَانَ النِّسَاءِ التي أبَاحَ اللهُ لكم ، { بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ } ؛ أي مُتَجَاوِزُونَ عن الحلالِ إلى الحرام.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ } أي مَا كَانَ جَوَابُهم إذ قَالُوا لَهم ذلك ، إلا أنْ قَالُوا ؛ أي قال بعضُهم لبعضٍ : أخْرِجُوا لُوطاً ومَن آمَنَ معهُ مِنْ بلدِكم ، { إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } أي يَتَنَزَّهُونَ عن فِعْلِنَا وتُقَذِّرُونَنَا. والعربُ تُسَمِّي المدينةَ قريةً.

(٠/٠)

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ } ؛ أي خَلَّصْنَاهُ وابْنَتَيْهِ زعوراء وريئياء. وأهلُ الرَّجُلِ : هم

الْمُخْتَصُونَ به اختصاصَ القرابةِ ، وقَوْلُهُ : { إِلاَّ امْرَأَتَهُ } أي إلاَّ زَوْجتَهُ كانت على دينِهم ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ } ؛ أي مِن الباقينَ في الْغَبْرَاءِ ؛ غَبَرَتْ فِيْمَنْ غَبَرَ. ومعناهُ : بقيت في العذاب ولم تذهَبْ معهُ ، فهلكَتْ مع القومِ فيمَن هلكُوا.

(٠/٠)

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (أُمْطِرَتِ الْحِجَارَةُ عَلَى مُسَافِرِهِمْ وَعَلَى الَّذِيْنَ لَمْ يَكُونُوا مَعَهُمْ بالْمَدِينَةِ حَتَّى هَلَكُواْ ، فَأَمَّا الْمَدِيْنَةُ فَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَالِيَهَا سَافِلَهَا). ويقالُ : أُمْطِرُوا أوَّلاً بالحجارةِ ، ثم خُسِفَتْ بهم الأرضُ.
وأما الأَلِفُ في قولهِ : { وَأَمْطَرْنَا } ؛ قال بعضُهم : يقالُ لكلِّ شيءٍ من العذاب : أمْطَرَتْ بالألفِ ؛ وللرَّحمةِ : مَطَرَتْ. وقالَ بعضُهم : أمْطَرَتْ وَمَطَرَتْ بمعنى واحدٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ } أي فَانْظُرْ مَن معَكَ في آخرِ أمرِ الكفارين المكذِّبين كيفَ فَعَلْنَا بهم.

(٠/٠)

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـاهٍ غَيْرُهُ } ؛ معناهُ : ولقد أرسلنا إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً. قال الضَّحاك : (كَانَ شُعَيْبٌ أفْضَلَهُمْ نَسَباً ؛ وَأصْدَقَهُمْ حَدِيْثاً ؛ وَأحْسَنَهُمْ وَجْهاً) يقال : إنهُ بَكَى من خِشْيَةِ اللهِ حتى ذهبَ بصرهُ وصار أعمَى. وأما مَدْيَنَ ؛ فإنه مَدْيَنُ بنُ إبراهيمَ خليلُ اللهِ ، تزوَّجَ رِئْيَاءَ بنتِ لُوطٍ ؛ فولدَتْ لهُ وكَثُرَ نسلهُ ، فصارَت مَدْيَنَ مدينتُهم أو قبيلتُهم.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي برهانٌ ودلالة من ربكم على نُبُوَّتِي ، { فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ } ، أي أدُّوا حقوقَ الناسِ بالمكيال والميزانِ على التَّمامِ ، { وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ } ؛

أي ولاَ تَنْقُصُوا شيئاً من حُقُوقِهِمْ ، { وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا } أي لا تَعْلُوا فيه بالمعاصِي بعدَ إصلاحِ الله إيَّاهُا بالْمَحَاسِنِ.

وَقِيْلَ : معناهُ : لا تَظْلِمُوا الناسَ في الأرضِ بعدَ أنْ مَنَّ اللهُ فيها بالعَدْلِ ، { ذالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ } ؛ أي إيفاءُ الحقوقِ وتركُ الفسادِ في الأرضِ خيرٌ لكم ، { إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ؛ أي مُصَدِّقِيْنَ باللهِ ورسُولِهِ. وقد كانَ لشعيبٍ عليه السلام آيةٌ تَدُلُّ على نُبُوَّتِهِ ، كما قالَ تعالى : { قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ } إلا أنَّها لم تُذْكَرْ في القُرْآنِ كما أنَّ أكثرَ معجزاتِ نَبيِّنَا صلى الله عليه وسلم " لَيْسَتْ " مذكورةً في القُرْآنِ.

(٠/٠)

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ } ؛ أي لاَ تَقْعُدُوا على طريقٍ تُخَوِّفُونَ وتَصْرِفُونَ عن دينِ اللهِ وطاعته مَنْ آمَنَ باللهِ ، وذلك أنَّهم كانوا يُخَوِّفُونَ بالقَتْلِ كلَّ من قصدَ شُعَيْباً بالإيْمان به. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً } ؛ أي تطلبونَ بها غَيْراً وزَيْغاً وعُدُولاً عنِ الحقِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ } ؛ أي احفظُوا نِعَمَ اللهِ عليكم إذْ كُنتُمْ قَلِيلاً في العَدَدِ { فَكَثَّرَكُمْ } فَكَثَّرَ عددكم ، ويقال : معنى { فَكَثَّرَكُمْ } : جعلكم أغنياءَ ذوِي قدرةٍ بعد أن كنتم ضعفاءَ فقراءَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } ؛ أي تَفَكَّرُوا كيفَ كان آخرُ أمرِ مَن كان قبلَكم من الكفَّار في إهلاكِ اللهِ تعالى لَهم ، وإنزالِ العذاب بهم ، فَتَحْذرُوا من سلوكِ مسالِكهم.

(٠/٠)

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ } ؛ معناه : وَإِنْ كَانَ

جماعة مِنْكُمْ صدَّقُوا بالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، وجماعة لَمْ يصدِّقُوا ، { فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا } ؛ أي حتَّى يقضيَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرين ، { وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } ؛ وهو أعْدَلُ القَاضِيْنَ ؛ سيجزِي كلَّ واحدٍ من الفريقين ما يَسْتَحِقُّهُ على عملهِ في الدنيا والآخرة. فقضَى اللهُ بهلاكِ قوم شعُيبٍ.

(٠/٠)

قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ياشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } ؛ أي قَالَ الَّذِينَ تَعظَّمُوا عن الإيْمانِ به : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أوْ لترجعنَّ إلى دِيننا ، ولا ندعُكم في أرضِنا على مُخالفتِنا. { قَالَ } ؛ شُعَيْبُ : { أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } ؛ معناه : أتُعِيْدُنَنَا في ملَّتِكم وتجبرُونَنا على ذلك وإنْ كرِهْنا.
فإن قِيْلَ : كيفَ قالُوا لشعيبٍ : { أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } وشعيبُ عليه السلام لم يكن في مِلَّتِهِم قَطْ ؛ لأنَّ الأنبيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ لا يجوزُ عليهم الكفرُ في حالٍ من الأحوال ؟ قِيْلَ : يجوزُ أن يكون المرادُ بهذا الخطاب قومهُ الذين كانوا على ملَّتهم ؛ فأدخَلوهُ معهم في الخطاب. ويحتملُ أنَّهم توهَّمُوا أنَّ شُعيباً كان على ملَّتهم ؛ لأنَّهم لم يَرَوا منهُ المخالفةَ لَهم إلاَّ في وقتِ ما دعاهُم إلى نُبُوَّتِهِ.

(٠/٠)

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا } ؛ أي قَدِ اختلَقْنَا عَلَى اللهِ الكَذِبَ فيما دعوناكم إليه إنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إذْ خلَّصَنا اللهُ مِنْهَا بالدلالة على بطلانِها وتبيين الحقِّ لنا وقبولنا لهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَا } ؛ قال بعضُهم : معناهُ : ما نعودُ فيها إلاَّ أن يكون في عِلْمِ اللهِ ومشيئته أن نعودَ فيها.

وقال بعضُهم : معناهُ : إلاَّ أن يشاءَ اللهُ أن نُكْرَهَ عليها بالقتلِ ، فَنُظْهِرُ كلمةَ الكفرِ مع طمأنينة القلب بالإيْمان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } ؛ أي أحاطَ رَبُّنَا بكلِّ شيءٍ عِلْمُهُ ، فهو يعلمُ ما هو أصلحُ لنا فيتعبَّدُنا به ، وهو يعلمُ بأنَّا هل نَدخلُ في مِلَّتِكُمْ أو لا ندخلُ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا } ؛ أي به وَثِقْنَا في الانتصارِ عليكُم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ } ؛ أي اقضِ بينَنا وبينهم بما يدلُّ على أنَّا على الحقِّ وهم على الباطلِ ، { وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ } ؛ والفَاتِحُ هنا : الْحَاكِمُ بلُغة أهلِ عُمَان ؛ يسمَّى فاتِحاً ؛ لأنه يفتحُ المشكلاتِ ويَفْصِلُ الأمورَ. ويجوز أن يكون معنى الفَتْحِ : أظْهِرْ أمْرَنا بإهلاكِ العدُوِّ حتى ينفتِحَ ما بينَنا وبينهم ؛ أي يظهرُ ويكشفُ.

(٠/٠)

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ } ؛ معناه : قَالَ الأشراف الَّذِينَ كَذبُوا شعيباً : لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا فيما دعاكُم إليه إنَّكُمْ إذًا بمَنْزِلَةِ مَن ذهَبَ رأسُ مالِهِ لإفنائِكم العُمْرَ في تَرْكِ الشَّهواتِ ، فتكونون مُغْبُونِيْنَ جاهلينَ.

(٠/٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ؛ أي الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدةُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ : (رَجَفَتْ بِهِمُ الأَرْضُ وَأَصَابَهُمْ حَرٌّ شَدِيْدٌ ، وَرُفِعَتْ لَهُمْ سَحَابَةٌ ، فَخَرَجُواْ إِلَيْهَا يَطْلُبُونَ الرَّوْحَ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانُوا تَحْتَهَا سَالَتْ عَلَيْهِمْ بالْعَذاب وَمَعَهُ صَيْحَةُ جِبْرِيْلَ عليه السلام. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ } ؛ أي بقُرْب دارِهم تحتَ الظُّلَّةِ كما قالَ تعالى : { فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }[الشعراء : ١٨٩] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { جَاثِمِينَ } أي مَيِّتِيْنَ على وُجُوهِهِم وركَبهم. وروي : أنَّهم احترقُوا تحتَ السَّحابةِ ، فصاروا مَيِّتِيْنَ بمنْزلةِ الرَّمَادِ الْجَاثِمِ أجْسَامٍ مُلْقَاةٍ عَلَى الأَرْضِ.
قال ابنُ عبَّاس : (فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ جَهَنَّمَ ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ حَرّاً شَدِيْداً ، فَأَخَذ بأَنْفَاسِهِمْ

فَدَخلُوا جَوْفَ الْبُيُوتِ ، فَلَمْ يَنْفَعْهُمْ مَاءٌ وَلاَ ظِلٌّ ، فَأَنْضَجَهُمُ الْحَرُّ ، فَبَعَثَ اللهُ سَحَابَةً فِيْهَا رِيْحٌ طَيِّبَةٌ. فَوَجَدُوا بَرْدَ الرِّيْحِ وَطِيْبَهَا وَظِلِّ السَّحَابَةِ ، فَتَنَادُواْ : عَلَيْكُمْ بهَا ؛ فَخَرَجُوا نَحْوَهَا ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَحْتَهَا رجَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ وَصِبْيَانُهُمْ ؛ أَلْهَبَهَا اللهُ نَاراً عَلَيْهِمْ ، وَرَجَفَتْ بهمُ الأَرْضُ ؛ فَأُحْرِقُوا كَمَا يَحْتَرِقُ الْجَرَادُ الْمَقْتُولُ وَصَارُوا رَمَاداً ، وَهُوَ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ).

(٠/٠)

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا } ؛ يقولُ اللهُ تعالى : الَّذِينَ كَذبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَنْزِلُوا في دارهم. ويقالُ معنى { كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا } كأنْ لَم يقيموا فيها مقامَ المستغنِي. ويقالُ : معناه : كأن لم يَعِيْشُوا ولم يكونُوا. قال الأصمَعِيُّ : (الْمَغْنَى : الْمَنْزِلُ ؛ وَالمَنَازِلُ الَّتِي كَانُوا فِيْهَا ، يُقَالُ : غَنَيْنَا بمَكَانِ كَذَا ؛ أيْ نَزَلْنَا فِيْهِ).
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ } ؛ فيه بيانُ أنَّ الْخُسْرَانَ حَلَّ بهم دونَ المؤمنين ، وإنَّما أعادَ ذكرَ { الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً } للتَّغليظِ عليهِم.

(٠/٠)

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ } ؛ معناهُ : فلمَّا رأى العذابَ مُقْبلاً عليهم أعْرَضَ عَنْهُمْ بعدَ الإيَاسِ منهُم ، وخَرَجَ من بين أظْهُرِهِمْ. وقولهُ : { فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ } أي كيف يَشْتَدُّ جَزَعِي على قَوْمٍ كافرين حَلَّ بهم العذابُ باستحقاقِهم لهُ بعد أن نصحتُهم فلم يقبَلُوا. والأسَى : الْحُزْنُ ؛ وَالأَسَى : الصَّبْرُ.

(٠/٠)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } ؛ أي وَمَا أرْسَلْنَا فِي مدينةٍ مِنْ رسولٍ فكذبوا إلاَّ عَاقَبْنا أهْلَهَا بالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ. فالبَأْسَاءُ : مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الشِّدَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ ، والضَّرَّاءُ : مَا نَزَلَ فِيْهِمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي أمْوَالِهِمْ. وَقِيْلَ على عَكْسِ هذا ، وَقِيْلَ : الْبَأْسَاءُ : الْبُؤْسُ وَالشِّدَّةُ وَضِيْقُ الْعَيْشِ ، والضَّرَّاءُ : الْفَقْرُ وَالْجُوعُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } أي لكي يَتَضَرَّعُوا ويَتُوبُوا.

(٠/٠)

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْاْ } ؛ أي ثم حَوَّلْنَا مكانَ الشِّدَّةِ والكَرْب العاقبةَ والخِصْبَ والسَّعَةَ حتى كَثُرُوا وكثُرت أموالُهم ومعاشُهم. وإنَّما سُمِّيت الشَّدَّةُ سيئةً ؛ لأنَّها تسوءُ الإنسانَ ؛ كما الإحسانُ حسنةً ؛ لأنه يحسنُ أثَرُهُ على الإنسانِ ، وإلاَّ فالسيِّئَةُ هي الفِعْلَةُ القبيحةُ ، واللهُ تعالى لا يفعلُ القبيحَ.

وقال الحسنُ : (عَفَوا) أي سَمِنُوا ؛ وَأرَادَ بِهِ السِّمَنَ فِي الْمَالِ لاَ فِي تَعْظِيْمِ الْجِسْمِ). وقال قتادةُ : (حَتَّى عَفَوا) حَتَّى أشِرُواْ وَبَطِرُوا وَلَمْ يَشْكُرُوا رَبَّهُمْ). وأصلهُ من الكَثْرَةِ ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " احْفُوا الشَّوَارِبَ وأَعْفُوا اللِّحْيَةَ " قال الشاعرُ : عَفَوا مِنْ بَعْدِ إقْلاَلٍ وَكَانُوا زَمَاناً لَيْسَ عِنْدَهُمْ بَعِيْرُوقال ابنُ عبَّاس : (حَتَّى عَفَوا) أي جَمُواْ. وقال ابنُ زيدٍ : (حَتَّى كَبرُوا كَمَا يَكْبُرُ النَّبَاتُ وَالرِّيْشُ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ } ؛ أي قالوا : هكذا عادةُ الزَّمانِ ؛ أي يسِيءُ تارةً ويحسنُ أخرى ، وهكذا كانت عادتهُ مع آبائِنا. فَثَبَتُوا على دينِهم ولم يقيلوا عنهُ ، فاثبتوا أنتم على دِينكم ولا تُقِيْلُوا عنهُ يقولُ الله تعالى : { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً } ؛ أي أخذْنَاهم بالعذاب فَجَأَةً ، { وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } أي من حيثُ لا يشعرون بالعذاب. والمعنَى : أخذناهُم بالعذاب وهم في أمْنٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بنُزولِهِ.

(٠/٠)

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ } ؛ معناهُ : لَوْ أنَّ أهْلَ الْقُرَى الذين أهلكناهُم بتكذيبهم الرسُلَ قالُوا : آمنَّا باللهِ وبالرُّسُلِ وَاتَّقَوْا الشِّرْكَ والمعاصي لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ نَامِيَةً مِنَ السَّمَاءِ وهي المطرُ ؛ وَمنْ الأَرْضِ وهي النباتُ والثِّمارُ ، { وَلَاكِن كَذَّبُواْ } ؛ الرسلَ ؛ { فَأَخَذْنَاهُمْ } ؛ بالعذاب ؛ { بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } ؛ من المعاصِي.
وفي الآيةِ دلالةٌ أنَّ الكفايةَ والسِّعَةَ في الرِّزْقِ من سعادةِ الْمَرْءِ ؛ أي إذا كان شَاكِراً. والمرادُ بقولهِ : { لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ }[الزخرف : ٣٣] الكثرةُ التي تكون وبالاً على مَن لا يشكرُ اللهَ تعالى.

(٠/٠)

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ } معناه : أفَأَمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ يا مُحَمَّدُ أنْ يَنْزِلَ بهم عذابُنا ليلاً وَهُمْ نَائِمُونَ في فُرشِهِمْ ومنازِلهم ، لا يشعرونَ بالعذاب لغفلتِهم.

(٠/٠)

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ } معناه : أوَأمِنَ أهْلُ الْقُرَى الْمُكَذِّبَةِ لكَ أنْ يَأْتِيَهُمْ عذابُنا نَهاراً وَهُمْ مشغولونَ بلَهْوِهِمْ ولَعِبهمْ. والضُّحَى : صَدْرُ النَّهَار عِنْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ.

(٠/٠)

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ } ؛ معناه : أبَعْدَ هذا كلِّه أمِنُوا عذابَ اللهِ لَهم من حيثُ لا يعلمونَ. وإنَّما سُمِّي العذابُ مَكْراً على جهةِ الاتِّساعِ والمَجَازِ ؛ لأن الْمَكْرَ يَنْزِلُ بالممكورِ مِنْ الْمَاكِرِ من حيثُ لا يشعرُ ، وأما الْمَكْرُ الذي هو الاحتيالُ للإظهارِ بخلاف الإضمار ؛ فذلك لا يجوزُ على اللهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ }.

فإن قِيْلَ : أليسَ الأنبياءُ قد أمِنُوا عذابَ اللهِ وليسوا مِن القوم الخاسرينَ ؟ قِيْلَ : معنى الآيةِ : لا يَأْمَنُ عذابَ اللهِ من المذْنبين. والأنبياءُ صَلَواتُ اللهِ عليهِم لا يَأْمَنُونَ عذابَ الله على المعصيةِ ؛ ولِهذا لا يَعْصُونَ بأنفسِهم.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ } ؛ قرأ قتادةُ : (أوَلَمْ نَهْدِ) بالنُّونِ على التعظيمِ ، ومعنَى الآية : أوَلَمْ يُبَيِّنِ اللهُ لِلَّذِينَ يخلفون في الأرضِ مِنْ بَعْدِ أهْلِهَا الذين أهلَكَهم اللهُ بتكذيبهم الرُّسُلَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ } أي أوَلَمْ نُبَيِّنْ لَهم مَشِيْئَتَنَا أصبنَاهُم بعقاب ذنوبهم ، كما أخذنَا مَن كان قبلَهم بذنوبهم.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ } ؛ أي نَخْتِمُ عليها عقوبةً لَهم ، وليس هو عَطْفاً على (أصَبْنَاهُمْ) لأنه لو عُطِفَ عليهِ لقال : وَلَطَبَعْنَا ؛ لأنَّ قولَهُ : (أصَبْنَاهُمْ) على لفظِ الماضي ، وكان معنى (وَنَطْبَعُ) : وَنَحْنُ نَطْبَعُ. ومعنى الْخَتْم على قلوبهم : بأنَّهم لا يُؤْمِنُونَ على جِهَةِ الذمِّ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } ؛ أي لا يَقْبَلُونَ الوعظَ.

(٠/٠)

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا } ؛ أي تِلْكَ الْقُرَى التي أهلكْنَا أهلَها بجُحودِهم لآياتِ الله نَقُصُّ عَلَيْكَ يا مُحَمَّد في القُرْآنِ مِنْ أخبارِها كيفَ أُهْلِكَتْ ؛ لِمَا في ذلك من العِبْرَةِ لمن تَدَبَّرَ حالَهم. { وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ } ؛ أي بالْحُجَجِ والبراهين القاطعةِ التي لو اعْتَبَرُوا بها لاهْتَدُوا.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ } ؛ قال مجاهدُ (مَعْنَاهُ : فَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ إلاَّ وَقَدْ كَانَ مَعْلُومُنَا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ أبَداً). وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا لِعُتُوِّهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ فِي الْبَاطِلِ) ، { بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَالِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ } ؛ أي على قلوب الكافرين بكَ.
ومعنى الآيةِ : { تِلْكَ الْقُرَى } أي هَذِهِ القُرَى التي ذَكَرْتُ لَكَ يا مُحَمَّدُ أمرَها وأمرَ أهلِها ، يعني قُرَى قومِ نُوحٍ وعَادٍ وثَمُودَ ، وقومِ لُوطٍ وشُعَيبٍ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ } قال أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ : (مَعْنَاهُ : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عِنْدَ مَجِيْءِ الرُّسُلِ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ أنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ).

(٠/٠)

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ } ؛ أي مَا وَجَدْنَا لأكثرِ المهلَكين من وَفَاءٍ فيما أُمِرُوا به. تقولُ العربُ : فلانٌ لا عَهْدَ لهُ ؛ أي لا وَفَاءَ لهُ بالعهدِ. وهذا العهدُ المذكورُ في الآية يجوز ما أوْدَعَ اللهُ العقولَ من شُكْرِ النِّعمةِ ؛ والقيامُ بحقِّ الْمُنْعِمِ ؛ ووجوب طاعة الْمُحْسِنِ. ويجوزُ أن يكون ما أُخِذ عليهم على ألْسِنَةِ الرُّسُلِ من هذه الأمورِ.
وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } ؛ أي إنَّا وجَدْنَا أكثرَهم ناقضِينَ للعهدِ ؛ تاركينَ لِما أُمِرُوا به مِن الحلالِ والحرام. وأمَّا دخولُ (أنْ) واللام في مثلِ هذا ، فعلى وجهِ التَّأكيدِ كما يقالُ : إنْ ظَنَنْتُ زَيْداً لَقَائِماً ، وتريدُ بذلك تأكيدَ الظَّنِّ.

(٠/٠)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَآ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلاِيْهِ فَظَلَمُواْ بِهَا } ؛ معناهُ : ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بعَدِ أولِئَكَ الرُّسُلِ الذين سَبَقَ ذكرُهم مُوسَى بدلائلنا وحُجَجِنَا من العَصَا واليدِ والطَّمْسِ وغير ذلك إلَى فِرْعَوْنَ وأشرافِ قومه. ويعني بالرُّسُلِ الذين بُعِثَ موسى مِن بعدِهم : نُوحاً ؛ وهُوداً ؛ وصَالِحاً ؛ ولُوطاً ؛ وشُعَيباً.

واسم (فِرْعَوْنَ) أعجميٌّ لا ينصرفُ ؛ اجتمعَ فيه العِجْمَةُ والتَّعْرِيْفُ ، وكانوا يُسَمُّونَ كلَّ مَن مَلَكَ مِصْرَ بهذا الاسمِ ؛ واسْمُه : الوليدُ بنُ مصعبٍ ، وكان من الْقِبْطِ ، وعَمَّرَ أكثرَ من أربعمائةِ سنة. قَوْلُهُ تَعَالى : { فَظَلَمُواْ بِهَا } أي جَحَدُوا بالآياتِ. وسَماهُ ظُلْماً لأنَّهم جعلوا بَدَلَ وُجُوب الإيْمان بها الكُفْرَ ، وذلك من أبْيَنِ الظُّلْمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } ؛ أي فانظر كيف صارَ آخرُ أمرِ المفسِدِينَ في العقاب. قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ طُولُ عَصَا مُوسَى عَشْرَةَ أذرُعٍ عَلَى طُولِهِ ، فَكَانَتْ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ ، وَكَانَ يَضْرِبُ بِهَا الأَرْضَ فَيَخْرُجُ بِهَا النَّبَاتُ ، وَيُلْقِيْهَا فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ، ويَضْرِبُ بِهَا الْحَجَرَ فَيَتَفَجَّرُ ، وَضَرَبَ بها بَابَ فِرْعَوْنَ فَفَزِعَ مِنْهَا ؛ فَشَابَ رَأْسُهُ ؛ فَاسْتَحْيَا فَخَضَّبَ بالسَّوَادِ ، وَأَوَّلُ مَنْ خَضَّبَ بالسَّوَادِ فِرْعَوْنُ).

(٠/٠)

وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى يافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } وذلك أنَّ موسَى دخل على فرعونَ ومعهُ أخوهُ هارونُ ، بعثَهُما اللهُ إليه بالرِّسالةِ ، فقال موسَى : يَا فِرْعَوْنُ! إنِّي رَسُولٌ مِنْ رَب الْعَالَمِينَ. فقالَ لهُ فرعون : كَذبْتَ! فقال موسَى : { حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ } ؛ أي جَدِيْرٌ بأنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ. وقرأ نافع : (عَلَيَّ) بالتشديد ؛ أي وَاجِبٌ عَلَيَّ أنْ لاَ أَقُولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } ؛ أي برهانٍ وحُجَّةٍ من ربكم ، { فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

} ؛ أي فَأَطْلِقْ بَنِي إسرائيلَ ، ولا تَسْتَعْبِدْهُمْ لأحْمِلَهُمْ إلى الأرضِ المقدَّسَةِ. وكان فرعونُ وقومه الْقِبْطُ يُكَلِّفُونَ بَنِي إسرائيلَ الأعمالَ الشَّاقَّةَ ، مثل حَمْلِ الطِّينِ والْمَاءِ وبناءِ الْمَنَازِلِ وأشباهِ ذلكَ.

(٠/٠)

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)

وقَوْلُهُ تعَالَى : { قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ } ، معناه : قال فرعونُ : إنْ كنتَ جئتَ بعلامةٍ لنبوَّتك ، { فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } ؛ في أنَّكَ رسولُ اللهِ ؛ { فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ } ؛ أي ثُعْبَانٌ بَيِّنٌ لا لَبْسَ فيهِ ولا تشبيهَ على أحَدٍ أنه ثعبانٌ.
فَالثُّعْبَانُ : الْحَيَّةُ الصَّفْرَاءُ الذكَرُ الأَشْعَرُ أعْظَمُ الْحَيَّاتِ ؛ لَهَا عُرْفٌ كَعُرْفِ الْفَرَسِ ، روي أنَّها : مَلأَتْ دَارَ فرعونَ ، ثم فَتَحَتْ فَاهَا وأخذت قُبَّةَ فرعونَ بين فَكَّيْهَا ، وتضرَّعَ فرعونُ إلى موسى ، وهَرَبَ الناسُ واستغاثُوا بموسَى ، فأخذها موسى فإذا هي عَصَا بيدهِ كما كانت.
قال ابنُ عبَّاس والسُّدِّيُ : (لَمَّا فَغَرَتْ فَاهَا كَانَ بَيْنَ لِحْيَيْهَا ثَمَانُونَ ذِرَاعاً ، وضَعَتْ لِحْيَهَا الأَسْفَلَ فِي الأَرْضِ ، وَلِحْيَهَا الأَعْلَى عَلَى سُورِ الْقَصْرِ ، ثُمَّ تَوَجَّهَتْ نَحْوَ فِرْعَوْنَ لِتَأْخُذَهُ ، فَوَثَبَ مِنْ سَرِيْرِهِ وَهَرَبَ ، وَهَرَبَ النَّاسُ وَانْهَزَمُوا ، وَكَانُوا خَمْسَةً وَعِشْرِيْنَ أَلْفاً.
فَصَاحَ فِرْعَوْنُ : يَا مُوسَى! خُذْهَا وَأَنَا أُوْمِنُ بِرَبكَ ، وَأُرْسِلُ مَعَكَ بَنِي إسْرَائِيْلَ. فَأَخَذهَا ؛ فَعَادَتْ عَصاً كَمَا كَانَتْ. فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ : هَلْ مَعَكَ آيَةٌ أُخْرَى ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ { وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ } ؛ أي فأدْخَلَ يدَهُ في جيبِهِ ؛ ثم نَزَعَهَا فَإِذا هِيَ بَيْضَاءُ لَهَا شعاعٌ يَغْلِبُ نورَ الشَّمْسِ.

(٠/٠)

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَاذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ } ؛ أي قال الأشرافُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : إنَّ هَذا لَسَاحِرٌ حَاذِقٌ بالسِّحْرِ { يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ } ؛ أي قال الأشرافُ : يريدُ موسَى أن

يَسْتَمِيْلَ قلوبَ بني إسرائيلَ إلى نفسهِ ، ويَتَقَوَّى بهم فيقتُلُكم ويخرِجُكم من بلادِكم ، { فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } أي تُشِيْرُونَ في أمرهِ. كأنَّهم خاطبُوا فرعونَ ، ويجوزُ أن يكون قولهُ : { يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ } من مَقَالَةِ فرعونَ لقومهِ ، ويعني بقولهِ : { مِّنْ أَرْضِكُمْ } أرضَ مِصْرَ. وكانَ بين اليَوْمِ الذي دَخَلَ يوسُفَ فيه مِصْرَ وبينَ اليوم الذي دخلَها موسَى فيه رَسُولاً أربعُمائَةِ عَامٍ.

(٠/٠)

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ } ؛ أي قالُوا لفرعونَ : احْبسْهُ وأخاهُ إلى آخرِ أمرِهما ، ولا تعجَلْ بقتلِهما ؛ فتكونَ عَجَلَتُكَ حُجَّةً عليكَ ، { وَأَرْسِلْ فِي الْمَدآئِنِ حَاشِرِينَ } ؛ أي ابْعَثْ الشُّرْطَ في الْمَدَائِنِ التي حولَكَ يحشُرونَ السَّحَرَةَ إليكَ.
والسِّحْرُ في اللُّغةِ : لُطْفُ الْحِيْلَةِ فِي إظْهَارِ الأُعْجُوبَةِ ، وأصلُ ذلك مِنْ خَفَاءِ الأَمْرِ ، ومن ذلك سُمِّي آخر الليلِ سَحَراً لِخَفَاءِ الشَّخْصِ بفَيْءِ ظُلْمَتِهِ ، والسَّحَرُ : الرئةُ ؛ سُميت بذلك لِخَفَاءِ أمْرِهَا بانْتِفَاخِهَا تَارَةً وَضُمُورِهَا أُخْرَى.

(٠/٠)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانُوا سَبْعِينَ سَاحِراً غَيْرَ رَئِيْسِهِمْ ، وَكَانَ اللَّذانِ يُعَلِّمَانِهِمْ مَجُوسِيَّيْنِ مِنْ أَهْلِ نِيْنَوَى). وقال مُحمد بنُ إسحق : (كَانُوا خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ سَاحِرٍ ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَبْلٌ وَعَصَا). وقال كعبُ : (كَانُوا عِشْرِيْنَ أَلْفاً). وقال ابنُ المنكدر : (كَانُوا ثَمَانِيْنَ أَلْفاً). وقال مقاتلُ : (كَانَ رَئِيْسُ السَّحَرَةِ شَمْعُونَ).
{ وَجَآءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ } ؛ فلما اجتمَعُوا ، { قَالُواْ } ؛ لفرعونَ : { إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ } ؛ أي جُعْلاً ومَالاً ؛ { قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ } ؛ عندي في الْمَنْزِلَةِ. قال الكلبيُّ : (أيْ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيَّ وَآخِرُ مَنْ يَخْرُجُ).

(٠/٠)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ يامُوسَى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ } أي قالَتِ السَّحَرَةِ : يَا مُوسَى! إِمَّا أنْ تُلْقِيَ ما معكَ من العصَا ، وَإِمَّا أنْ نلقيَ نحنُ ما مَعَنَا من العِصِيِّ والحبالِ قبلَكَ. { قَالَ أَلْقَوْاْ } ؛ ما معكم من الحبال والعصِيِّ ، { فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ } ؛ ذلكَ ؛ { سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ } ؛ أي أخذُوا بها أعْيُنُ النَّاسِ ، واسْتَدْعَوا رَهْبَتَهُمْ حتى رَهِبَهُمُ الناسُ ، { وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ } ؛ في أعْيُنِ النَّاسِ.

وكانوا قد جعلوا فيها الزِّئْبَقَ بعدَ أن صوَّرُوها بصورةِ الْحَيَّاتِ ، فَلَمَّا أوقَفُوها في الشَّمْسِ اضطربت باضطراب ما فيه من الزِّئْبَقِ ؛ لأنه لا يَسْتَقِرُّ ؛ ومتَى يزدادُ مُكْثُهُ في الشمسِ زادَتْ حركتهُ ، وخُيِّلَ إلى موسَى أنَّ حبالَهم وعصيِّهُم حَيَّاتٌ كما كانت عصَا مُوسى عليه السلام.

فإن قِيْلَ : كيف يجوزُ مِن موسَى عليه السلام أن يأمرَهم بالإلْقَاءِ ؛ وكان إلقاؤُهم إرادةً منهم مُغَالَبَةَ موسى ؛ وذلك كُفْرٌ ؛ ولا يجوزُ على الأنبياءِ أن يأمرُوا بالكفرِ ؟ قِيْلَ : معناهُ : ألقُوا إنْ كنتم مُحِقِّيْنَ على زعمِكم. ويجوزُ أن يكون أمَرَهُم بالإلقاءِ لتأكيدِ مُعْجِزَتِهِ.

(٠/٠)

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ } ؛ من يَدِكَ ؛ فألقَاهَا ؛ { فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ } ؛ أي تَلْتَقِمُ وتَبْتَلِعُ ما كانوا يكذِّبونَ أنَّها حَيَّاتٌ. والإِفْكُ : الكَذِبُ. وقُرِئَ : (تَلْقَفْ) بجزمِ اللاَّمِ خفيفة. وقرأ سعيدُ بن جبيرٍ : (تَلْقَمُ).

قال ابن عبَّاس : (لَمَّا كَثُرَتْ حَيَّاتُهُمْ جَعَلَتْ عَصَا مُوسَى تَزْدَادُ عِظَماً حَتَّى سَدَّتِ الأُفُقَ ، ثُمَّ فَتَحَتْ فَاهَا فَابْتَلَعَتْ جَمِيعَ مَا أَلْقُوا مِنْ حِبَالِهِمْ وَعِصِيِّهِمْ ، ثُمَّ هَوَتْ بِذَنَبِهَا فَعَلَّقَتْهُ بِرَأسِ قُبَّةِ فِرْعَوْنَ وَهُوَ فِيْهَا ،

وَفَتَحَتْ فَاهَا لِتَبْتَلِعَهُ ، فَصَرَخَ إِلَى مُوسَى ، فَأَخَذَهَا فَإِذا هِيَ عَصَا كَمَا كَانَتْ.
وَنَظَرَ السَّحَرَةُ فإذا حبالُهم وعصيُّهم قد ذهَبَتْ ، فذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ أي ظَهَرَ الحقُّ وَبَطَل ما كانوا يعملون من السِّحْرِ ، وقال النَّضِرُ بن شُمَيْلٍ : (فَوَقَعَ الْحَقُّ) أي صدَعَهُمْ وأفْزَعَهُمْ ، { فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ } ؛ أي رجعُوا ذلِيْلَيْنَ.

(٠/٠)

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ } ؛ قال الأخفشُ : (مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ سُجُودِهِمْ ؛ كَأَنَّهُمْ أُلْقُوا ، وَقَدْ كَانُوا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ سُعَدَاءَ شُهَدَاءَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } ؛ فقال لَهم فرعونُ : إيَّايَ تَعْنُونَ ؟ قالُوا : { رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ } ؛ فَبُهِتَ فِرْعَوْنُ ونَدِمَ على ما نالَهم ، فظهرَ للنَّاسِ إنَّهم آمَنُوا باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(٠/٠)

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ } ؛ أي قال لَهم فرعون : أصَدَّقْتُمْ برَب مُوسَى وهارون قَبْلَ أنْ آذنَ لَكُمْ في الأيْمانِ ، { إِنَّ هَاذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا } ؛ أي إنَّ هذا الشيءٌ وَاطَأْتُمُوهُ عليه حين يدَّعى النُّبُوَّةَ ، ثم تظهرونَ مخالفتَه في ابتداءِ الأمرِ ، حتى إذا غَلَبَكُمْ أظهرتُم موافقتَهُ بعدَ ذلكَ. أرادَ فرعونُ بهذا القول أن يُمَوِّهَ على الناسِ ؛ ليصرفَ وجوهَهُم إلى نفسهِ ، ثم قال لِلسَّحَرَةِ : { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } ؛ ماذا يَنْزِلُ بكم من النَّكَالِ.

(٠/٠)

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ } ؛ أي لأُقَطِّعَنَّ أيْدِيَكُمْ اليمنى وأَرْجُلَكُمْ اليسرى مِنْ خِلافٍ ، { ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ } ؛ على شاطىء نَهر مِصْرَ على جُذُوعِ النَّخْلِ حتى تَموتُوا من الجوعِ والعطَشِ والألَمِ.

(٠/٠)

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ } ؛ أي فقالَتْ السَّحَرَةُ : إنَّا لا نُبالِي مِنء فِعْلِكَ وعقوبتِكَ ، فإنَّ مَرْجِعَنَا إلى اللهِ يومَ القيامةِ ، فإن الحياةَ وإن طالَتْ ؛ فإنَّها تُخْتَمُ بالمماتِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا } ؛ أي قالَ السَّحَرَةِ : ما تعيبُ علينَا ولا تنكرُ علينا إلا لأنَّا صَدَّقْنَا بعلاماتِ توحيدِ رَبنَا ؛ لَمَّا ظَهَرَ لنا أنَّ ذلكَ حقٌّ مِن اللهِ.
ثُم ألْهِمُوا الدُّعاءَ فقالُوا : { رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ } أي أصْبِبْ عَلَيْنَا صَبْراً وأنزِلْهُ علينا ؛ وَوَفِّقَنَا على الثَّباتِ على الإيْمانِ إلى وقتِ الوَفَاةِ. قال ابنُ عبَّاس : (فَأَخَذ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ فَقَطَّعَهُمْ ، ثُمَّ صَلَبَهُمْ عَلَى شَاطِئِ نَيْلِ مِصْرَ ، وَخَلَّى سَبِيْلَ مُوسَى وَهَارُونَ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لَهُمَا).

(٠/٠)

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ } ؛ من القِبْطِ : { أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي أتَتْرُكُهُمْ ليغيِّرُوا عليك دينَك في أرضِ مِصْرَ ويدعُو الناس إلى مُخَالَفَتِكَ ؛ فينتقضَ بذلك أمرُكَ

ومِلكُكَ ؛ { وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ } ؛ أي يَدَعَكَ ولا يعبدَكَ ؛ ويدعَ أصنامَكَ التي أمَرْتَ بعبادتِها.
قال الحسنُ : (كَانَ فِرْعَوْنُ يَسْتَعْبُدُ النَّاسَ وَيَعْبُدُ الأَصْنَامَ بِنَفْسِه). وقالَ السُّدِّيُّ : (كَانَ يَعْبُدُ هُوَ مَا اسْتَحْسَنَ مِنَ الْبَقَرِ ، وَمِنْهُ أخَذ السَّامِرِيُّ عِبَادَةَ الْبَقَرِ).
وَقِيْلَ : كان فرعونُ قد صَنعَ أصناماً صِغَاراً ، وأمرَ قومَه بعبادتِها ، وقالَ : أنا رَبُّ هذهِ الأصْنَامِ الأعْلَى ، وهم أربَابُكم.
وقرأ الحسن : (وَمَا تَنقَمُ) بفتحِ القَافِ لُغتانِ ، قال الضَّحاكُ : (مَعْنَاهُ : وَمَا تَطْعَى عَلَيْنَا). وقال عطاءُ : (مَا لَنَا عِنْدَكَ مِنْ ذنْبٍ تُعَذِّبُنَا عَلَيْهِ إلاَّ أنْ آمَنَّا بآيَاتِ رَبنَا). وقرأ الحسنُ : (وَيَذرُكَ) بالرَّفعِ عطفاً على (أتَذرُ). وقرأ ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والضحَّاك : (وَآلِهَتُكَ) أي عبادَتُك ، فلا يعبدُك.
وَقِيْلَ : أرادَ بالآلِهَةِ الشَّمْسُ ، وكان فرعونُ وقومُه يعبدونَها. وقال ابنُ عبَّاس : (كَانَ لِفِرْعَوْنَ بَقَرَةٌ يَعْبُدُهَا ، وَكَانُوا إذا رَأوْا بَقَرَةً حَسْنَاءَ أمَرَهُمْ أنْ يَعْبُدُوهَا ، فَكَذلِكَ أخْرَجَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ عِجْلاً). ورُوِيَ : أنه قِيْلَ للحسَنِ : هَلْ كَانَ فِرْعَوْنُ يَعْبُدُ شَيْئاً ؟ قَالَ : (نَعَمْ ؛ كَانَ يَعْبُد تَيْساً).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ } ؛ أي قال فرعونُ : سنعودُ إلى قَتْلِ ابنائِهم واستخدام نسائِهم عقوبةً لهُ كما كُنَّا نفعلُ وقتَ ولادِ مُوسَى. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } ؛ أي مُسْتَعْلُونَ عليهم بالقُوَّةِ.
فَشَكَتْ بَنُو إسرائيلَ إلى موسَى ف ، { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ } أي استيعنُوا باللهِ على دفعِ بلاءِ فرعونَ عنكم ، واصبرُوا على دِينكم ، { إِنَّ الأَرْضَ } ؛ التي أنتُمْ فيها ؛ { للَّهِ يُورِثُهَا } ؛ أي يُسْكِنُهَا ، { مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } ؛ فيورثُكم هذه الأرضَ بعد إهلاكِ فرعون وقومِه ، { وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } ؛ أي آخرُ الأمرِ للذين يَتَّقُونَ اللهَ. وَقِيْلَ : أرادَ بالعاقبةِ الجنةَ في الآخرة. وَقِيْلَ : النصرَ والظَّفْرَ. وَقِيْلَ : السعادة والشهادةَ.

(٠/٠)

قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ فِرْعَوْنَ عَادَ إلَى قَتْلِ أبْنَائِهِمْ ، وَزَادَ فِي إتْعَابِهِمْ فِي الْعَمَلِ ، إذْ كَانَ يَسْتَعْمِلُهُمْ قَبْلَ مَجِيْءِ مُوسَى بضَرْبِ اللَّبِنِ وَالْبِنَاءِ ، فَلَمَّا أتَاهُمْ مُوسَى غَضِبَ وَكَلَّفَهُمْ أيْضاً أشَدَّ مِنْ ذلِكَ).
قال وهبُ : (جَعَلَهُمْ أصْنَافاً فِي خِدْمَتِهِ : قَوْمٌ يَحْمِلُونَ السَّوَارِي مِنَ الْجِبَالِ ؛ وَقَدْ قُرِحَتْ أعْنَاقُهُمْ

وعَوَانِقُهُمْ وَدَبَرَتْ ظُهُورُهُم مِنْ ثِقَلِ ذلِكَ ، وَقَوْمٌ قَدْ جُرِحُوا مِنْ ثِقْلِ الْحِجَارَةِ وَالطِّيْنِ لِلْبنَاءِ ، وَقَوْمٌ يَبْنُونَ الطِّيْنَ وَيَطْبخُونَ الآجُرَّ ، وَقَوْمٌ نَجَّارُونَ ، وَقَوْمٌ حَدَّادُونَ. وَأمَّا الضُّعَفَاءُ الَّذِيْنَ لاَ يُطِيْقُونَ الْعَمَلَ ؛ فَجَعَلَ عَلَيْهِمْ الْخَرَاجَ يُؤَدُّونَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، فَمَنْ خَرَجَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ غُلَّتْ يَمِيْنُهُ إلَى عُنُقِهِ. وَأمَّا النِّسَاءُ فَيَغْزِلْنَ الْكِتَّانَ وَيَنْسِجْنَهُ).

فلما شَكَوا إلى موسى (قَالُوا : أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا) ، { قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ } ؛ يعني فرعونَ وقومه ، { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ } ؛ أي ويجعلَ لكم سَكَناً في أرضِ مصرَ مِن بعدهم. و(عَسَى) كلمةُ إطماعٍ وما أطمعَ اللهُ فيه فهو واجبٌ ؛ لأن الكريمَ إذا أطمعَ وإذا وَعَدَ وفَّى ، فيصيرُ كأنهُ أوْجَبَهُ على نفسهِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ } { فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } ؛ أي فَيَرَى عملَكم كيف تشكرون صُنْعَهُ ، كأنهُ قال : وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ؛ لكي تعملوا بطاعةِ الله.

(٠/٠)

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ } ؛ أي أخذْنَا قومَ فرعون وأهلِ دِينه بالجوعِ عاماً بعد عامٍ إلى تسعةِ أعوام. وآلُ الرَّجُلِ : خَاصَّتُهُ الَّذِيْنَ يَؤُولُ أمْرُهُ إلَيْهِمْ ؛ وَأمْرُهُمْ إلَيْهِ. والسُّنُونُ في كلام العرب : الْجَدْبُ ؛ يقال : مَسَّتْهُمُ السُّنُونُ ؛ أي الْجَدْبُ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ } ، أي زيادةٍ في القَحْطِ ؛ لأن الثمارَ قوتُ الناس وغذاؤهم ، { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } ؛ أي لكي يَتَّعِظُوا فَيُؤْمِنُوا ، فلم يتَّعظوا. وَقِيْلَ : أراد بقولهِ : { وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ } الغَلاَءَ.

(٠/٠)

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَاذِهِ } ؛ أي إذا جاءَهم الْخَصْبُ والخيرُ قالوا : نحنُ أهلٌ لِهذه الحسنةِ وأحقُّ بها ، فمِنْ عادةِ بلادِنا أنَّها تأتي بالسَّعة والْخَصْب. ولَم يَرَوا لك مَنّاً وتفضُّلاً من

اللهِ ؛ { وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ } ؛ جُدُوبَةٌ وقحطٌ وبلاء وشدَّةٌ ؛ { يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ } ؛ أي يَتَشَاءَمُوا بموسى وأصحابِهِ ؛ فقالوا : أصابنا هذا البلاءُ من شُؤْمِ هؤلاء. والطَّيْرَةُ في اللغة : الشَّأمَةُ كما روي " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُحِبُّ الْفَأْلَ وَيَكْرَهُ الطَّيْرَةَ "

والأصلُ في هذا : أن العربَ كانوا يتفاءلون با لطَّير ؛ فإن جاءَهم طائرٌ من جهة اليمينِ وهو السَّانحُ ؛ تَبَرَّكُوا به ، وإن جاءهم من جهة الشَّمال وهو البَارِحُ يتشاءَموا به ، ثُم كَثُرَ قولُهم في الطيرِ حتى استعلموهُ في كلِّ ما تشاءموا به. ومعنى الآيةِ : { يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ } أي تشَاءَمُوا بهم وقالوا : ما أصابنا بلاءٌ حتى رأيناكُم.

وقرأ طلحة (تطَيَّرُوا) بالتاءِ وتخفيف الطَّاء على الفعل الماضي ، قال سعيدُ بن جبير : (كَانَ مُلْكُ فِرْعَوْنَ أرْبَعَمِائَةِ سَنَةٍ ، فَعَاشَ ثَلاَثَمِائَةَ سَنَةٍ لاَ يَرَى مَكْرُوهاً ، وَلَوْ رَأى فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ جُوعَ يَوْمٍ ، أوْ حُمَّى يَوْمٍ ، أوْ وَجَعَ سَاعَةٍ لَمَا ادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ } ؛ معناه : الذي أصابَهم من الخصب والجدب والخير والشرِّ كلُّ ذلك من عند اللهِ ، { وَلَـاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أنهُ أصابَهم من عند الله. وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ : ألاَ إنَّمَا مُصَابُهُمْ عِنْدَ اللهِ). وقال ابنُ جُريجٍ : (الأَمْرُ كُلُّهُ مِنْ قِبَلِ اللهِ).

وَقِيْلَ : معناهُ : ألاَ إنَّما الشؤمُ الذي يلحَقُكم هو الذي وُعدوا به في الآخرةِ لا ما نالَهم من الدُّنيا ، فإن القحطَ الذي هم فيه قليلٌ في جنبِ عقوبةِ الآخرة. وقرأ الحسنُ : (ألاَ إنَّمَا طَيْرُهُمْ عِنْدَ اللهِ) بغيرِ الألف ، والمعنى واحدٌ.

(٠/٠)

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا } ؛ قال الخليلُ : (أصْلُ (مَهْمَا) : مَأْمَا ، أُبْدِلَتِ الأَلِفُ الأُوْلَى هَآء لِتَخْفِيْفِ اللَّفْظِ). وقال بعضُهم : معنى (مَهْ) : أُكْفُفْ. ثُم قال : (مَا تَأْتِنَا بِهِ) بمعنى الشرطِ ؛ أي ما تأتنا به من علامةٍ يا موسى { لِّتَسْحَرَنَا بِهَا } أي لِتُوهِمَنَا أنَّها الحقُّ ، { فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ } أي بمصدقّين بالرسالةِ.

وكانُ مُوسَى عليه السلام رجُلاً حديداً ، فدعَا عليهم ؛ فأرسلَ عليهم الطوفانَ كما قال عَزَّ وَجَلَّ : { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ } ؛ اختلفوا في الطُّوفَا ، ما هو ؟ قال الضَّحاك : (الغَرَقُ). وقال عطاءُ ومجاهد : (الْمَوْتُ الْغَالِبُ الشَّائِعُ). وقال وهبُ : (الطُّوفَانُ : هُوَ الطَّاعُونُ بلُغَةِ

أهْلِ الْيَمَنِ). وقال أبو قُلابة : (هُوَ الْجُدَرِيُّ ؛ وَهُمْ أوَّلُ مَنْ عُذِّبوا بهِ ، وَبَقِيَ فِي النَّاسِ إلَى الآنَ). وقال الأخفشُ : (هُوَ السَّيْلُ الشَّدِيْدُ). وقال مقاتلُ : (هُوَ الْمَاءُ طَغَى فَوْقَ حُرُوثِهِمْ).

وقال بعضُهم : هو كثرةُ المطرِ والريح. الأظهرُ ما قالَهُ ابنُ عبَّاس : (أنَّهُ الْمَطَرُ الدَّائِمُ ، أرْسَلَ اللهُ الْمَطَرَ عَلَيْهِمْ لَيْلاً وَنَهَاراً مِنَ السَّبْتِ إلَى السَّبْتِ ، حَتَّى خَرَبَتْ أبْنِيَتُهُمْ ، وَكَادَ أنْ يَصِيْرَ الْمَطَرُ بَحْراً ، فَخَافُوا الْغَرَقَ).

قال ابنُ عبَّاس وسعيدُ بن جبير وقَتادةُ : (لَمَّا آمنتِ السَّحَرَةُ واغْتُلِبَ فرعونُ ، وأبَى هو وقومهُ إلا الإقامةَ على الكفرِ والتَّمادي في الشرِّ ، أخذهم اللهُ بالسِّنين ، ونقصٍ من الثمراتِ ، فلما عالَجهم موسى بالآياتِ الأربع : العَصَا ؛ واليدِ ؛ والسِّنين ؛ ونقصٍ من الثَّمراتِ ، دعَا فقالَ : يَا رَب! إنَّ عَبْدَكَ فرعونَ علاَ في الأرضِ وبغَى وعَتَى ، وإن قومَهُ قد نقضوا عهدكَ وأخلفوا وعدكَ ، ربي فَخُذْهُمْ بعقوبةٍ تجعلُها لَهم نقمةً ولقومي عِظَةً ولِمن بعدهم من الأمم عبرةً.

فبعثَ الله عليهم الطوفانَ ؛ وهو الماءُ أرسله عليهم من السَّماء حتى كادوا يهلَكُون ، وبيوتُ بني إسرائيلَ وبيوتُ القِبْطِ مشبكةٌ مختلطة بعضُهأ ببعضٍ ، فامتلأت بيوتُ القِبْطِ ماءً حتى قاموا في الماءِ إلى تراقيهم مَن جَلَسَ منهم غَرِقَ ، ولَم يدخلْ بيوتَ بني إسرائيل من الماءِ قطرة واحدة ، فأقامَ ذلك عليهم سبعةَ أيَّام.

فقالوا : يا مُوسَى! أُدْعُ لنا ربَّكَ يكشف عنا المطرَ ، فنؤمنَ بك ونُرْسِلَ معك بني إسرائيل. فدعا رَبَّهُ فكشفَ عنهم ذلك ، وأرسلَ الريح فجفَّفت الأرض ، وخرجَ من النباتِ شيءٌ لم يَرَوْا مثله ، فقالوا : هذا الذي كُنَّا نَتَمَنَّاهُ ، ومَا كان هذا الماءُ إلا نعمةً علينا وخصباً. فلا واللهِ لا نؤمنُ بكَ يا موسى ، ولا نرسلُ معكَ بني إسرائيل.

فَنَقَضُوا العهدَ ، وعَصَوا ربَّهم واقاموا على كفرهم شهراً ، فبعثَ اللهُ عليهم الجرادَ ، وغَشِيَ مصرَ منه أمرٌ عظيم حالَ بينهم وبين الماءِ وغَطَّى الشمسَ ؛ ووقعَ على الأرضِ بعضُه على بعضٍ ذراعاً ، فأَكَلَ جميعَ ما ينبتُ في الأرض ؛ وأكلَ الأشجارَ ؛ حتى أكلَ الأبوابَ وسُقُوفَ البيوتِ والخشب والثياب والأمتعةَ ؛ حتى مساميرَ الحديدِ ، ولَمْ يدخل بيوتَ بني إسرائيل منه شيءٌ ، فعجَّلُوا إلى موسى و ؛ { وَقَالُواْ } : يا أيُّها الساحر! ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بَما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وأرادوا بالساحرِ العالِم يُعَظِّمُونَهُ.

(٠/٠)

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ } ؛ معناه : وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ العذابُ الذي تقدَّم ذِكْرُهُ من الطُّوفان وغيره. وقال عكرمةُ : (الرِّجْزُ : الدَّمُ ؛ لأَنَّهُ نَغَّصَ عَيْشَهُمْ). وقال ابنُ جُبير : (هُوَ الطَّاعُونُ).

وَذلِكَ أنَّ مُوسَى أرَى قومَهُ وبني إسرائيل من بعد ما جاءَ قومَ فرعون بالآيات الخمسِ : الطوفانُ وغيره ، فلم يؤمِنُوا ولَم يرسلوا معهُ بني إسرائيل ، فأرسلَ عليهم الطاعونَ ، فَهَلَكَ منهم سبعونَ ألفاً ، فقال فرعونُ عند ذلك : (يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) أي بما تقدمَ به إليك أنه يجيبُ دعاءَك إذا دعوته كما أجابَ دعاءك في إنزالِ هذه الآيات ، { لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ } ؛ أي هذا الطاعونَ. وقرأ سعيد بين جبير ومجاهدُ : (الرُّجْزَ) وهما لغتان كالعَصُو والعُصْوِ. قَوْلُهُ تَعَالىَ : { لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ } ؛ أي لنصدِّقَنَّكَ ، { وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ } ؛ أي لَنُطْلِقَنَّهُمْ من التسخيرِ والأعمال الشاقَّة.

(٠/٠)

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمآ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ } ؛ أي العذابَ ، { إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ } ؛ وهو الوقتُ الذي عَلِمَ اللهُ من حالِهم أن صلاحَ غيرِهم مقالهم إلى ذلك الوقت ؛ يعني وقتَ الغرق ، وقولهُ تعالى : { إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ } يعني ينكثونَ العهدَ.

(٠/٠)

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ وذلكَ أن الله تعالَى أمَرَ موسى أن يَخْرُجَ ببني إسرائيلَ ، فاستعارَ نسوةُ بني إسرائيلَ من نساءِ آل فرعون حُلِيَّهُمْ ، وقُلْنَ : إن لنا خروجاً إلى عيدٍ. فخرجَ موسَى ببني إسرائيل في أوَّلِ الليل ، وهم ستمائة ألفٍ من رجلٍ وامرأة وصبيٍّ ، فبلغَ الخبرُ فرعونَ ، فرَكِبَ ومعه ألفَا ألفٍ ومائتا ألفٍ ، فأدرَكَهم فرعنُ حين طلعتِ الشمسُ ، وانتهى موسى إلى البحرِ ، فضربَ البحرَ ؛ فانفلقَ اثنا عشر طريقاً ، وكانت بنو إسرائيلَ اثنا عشر سِبْطاً ، فعَبَرَ كلُّ

سِبْطٍ طريقاً.
فأقبلَ فرعونُ ومَن معهُ ، فدخلوا بعدَهم من حيثُ دخلوا ، فلما صارُوا جميعاً في البحرِ ، أمرَ الله البحرَ فالتطمَ عليهم فغرِقُوا ، فقالَ بنو إسرائيلَ لِموسى أنْ يُرِيَهُمْ فرعونَ ، فدعا رَبَّهُ فلفظَهُم البحرُ ولَفَظَ فرعونَ ، فنظروا إليه وإلَى مَنْ معهُ ، فلا يقبلُ الماءُ غريقاً بعد ذلك أبداً ، ورجعَ موسى ببنِي إسرائيلَ ، فسكنوا الأرضَ أرضَ مصر.
ومعنى قوله : { فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } أي في البحرِ بلسان العبرانيَّة. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } أي بتكذيبهم الآياتِ التِّسْعِ التي أتاهم بها موسى : اليدُ ؛ والعصا ؛ والسُّنونُ ؛ ونقصُ الثمرات ؛ والطوفان ؛ والجرادُ ؛ والقمل ؛ والضفادع ؛ والدمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ } ؛ أي عاقبناهم بتعرُّضِهم لأسباب الغفلة.

(٠/٠)

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ } التي كانُوا فيها ، { وَمَغَارِبَهَا } ؛ معناه : أوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يستضعفونَهم القِبْطُ ؛ وهم بنو إسرائيل مَشَارِقَ الأَرْضِ التي كانوا فيها وَمَغَارِبَهَا. وقِيْلَ : أراد بهذه الأرضِ الأرضَ المقدسة : الأردنَّ وفلسطينَ ، { الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } ؛ باركَ الله فيها بكثرةِ المياه والأشجار والثِّمار ، قال ابنُ عبَّاس : (إنَّ الْمِيَاهَ كُلَّهَا تَخْرُجُ كُلَّهَا تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ الصَّخْرَةِ الَّتِي ببَيْتِ الْمَقْدِسِ).
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ } ؛ أي وتَمَّتْ عِدَّةُ ربكَ ؛ يعني قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأَرْضِ }[القصص : ٥] وقوله : { عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ }[الأعراف : ١٢٩]. قال ابنُ عبَّاس : (فَأَهْلَكَ اللهُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ ، وأورَثَهُمْ أرْضَ مِصْرَ وَالشَّامَ). وقولهُ : { بِمَا صَبَرُواْ } ؛ أي بصبرِهم على دِينهم أن يرجعوا إلى دِين فرعون.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ } ؛ من المكائدِ ، وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ } ؛ أي وما كانوا يَبْنُونَ مِن البيوت والقصور والكروم والشَّجْر ، ويستخدمون بني إسرائيلَ في بنائِها ورَفْعِهَا. قرأ ابنُ عامرٍ وأبو بكر : (يَعْرِشُونَ) بضمِّ الراء ، وهما لُغتان فصيحتانِ.

(٠/٠)

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ } ؛ أي أمرناهم بمجاوزَتِهِ ويسَّرناهُ عليهم حين خلفوا البحرَ وراءهم على سلامةٍ ، وذلك من أعظمِ نِعَمِ اللهِ تعالَى ، { فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ } ؛ أي يعبدون ويُوَاظِبُونَ على عبادةِ أصنام لَهم ؛ وهو أهلُ الرّقةِ ؛ أُنَاسٌ كفروا بعدَ إبراهيم ، مَرَّتْ بهم بنو إسرائيل وهم قعودٌ حولَ أصنامِهم ، { قَالُواْ يامُوسَى اجْعَلْ لَّنَآ إِلَـاهاً } ؛ نعبدهُ ، { كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } ؛ يعبدونَها.

وفي هذا بيانُ غايةِ جَهْلِهِمْ وعِنادِهم ، فإن اللهَ خَلَّصَهُمْ من عدوِّهم ونَجَّاهم من الغرقِ ، وقالوا هذا القولَ حين رأوا هؤلاء القومَ يعبدون الأصنامَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ } ؛ لَهم موسى : { إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ } ؛ صفاتَ اللهِ وما يجوزُ عليه وما لا يجوز ؛ أي لا يعرفون أن الذي يُتَّخَذُ إلَهاً هو خالقُ الأجسام. ثُمَّ بَيَّنَ أن هؤلاء سيهلكون ويُهلَكُ ما يعبدونه فقال : قَالَ اللهُ تَعَالَى : { إِنَّ هَـاؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ } ؛ أي مُهْلَكٌ ما هم فيه ؛ { وَبَاطِلٌ } ؛ وضَلاَلٌ ؛ { مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ، والتَّبَارُ : هو الهلاكُ.

(٠/٠)

قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـاهاً } ؛ أي قالَ لَهم : أسِوَى اللهِ أطلبُ لكم رَبّاً تعبدونَهُ ، { وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ، عالَمي زمَانِكم من القِبْطِ وغيرِهم بعدَ ما كُنتم مستعبدِين إذِلاَّء.

(٠/٠)

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } أي يُوَلُّونَكُمْ سُوءَ العذاب { يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ } ؛ أي يَذبَحونَهم ، { وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ } ؛ أي يَستَبْقُونَهُمْ للاستخدامِ ، { وَفِي ذالِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } ؛ قرأ حمزةُ والكسائي : (يَعْكِفُونَ) بكسرِ الكاف والباقون بضَمِّها وهما لُغتان. وقرأ أهلُ الشَّام (وَإِذْ أنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ). وقرا الباقونَ على التكثيرِ (أنْجَيْنَاكُمْ). وقوله تعالى : { يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ } قرأ نافعُ بالتخفيفِ ، وقرأ الباقونَ بالتشديدِ على التَّكثيرِ.

(٠/٠)

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ } ؛ قال مجاهدُ : (كَانَ اللهُ وَعَدَ مُوسَى أنْ يُعْطِيَهُ التَّوْرَاةَ لِثَلاَثِينَ لَيْلَةً ؛ يَعْنِي ذا الْقَعْدَةِ وَعَشْراً مِن ذِي الْحِجَّةِ ، كَأَنَّهُ قَالَ شَهْراً وَعَشْرَةً أيَّامٍ).
وقال بعضُهم : أمَرَ اللهُ موسى إلى موضعٍ بَيَّنَهُ له أن يعبدَهُ في ذلك الموضعِ ثَلاثينَ يوماً ، يصُومُ النهارَ ويقومُ الليلَ ؛ ليَنزل عليه التوراةُ ، فلمَّا صامَ ثلاثين أنْكَرَ خُلُوفَ فَمِهِ ، فاسْتَاكَ بعُودِ خَرْنُوبٍ ، فقالتِ الملائكةُ : كنا نستنشقُ منك رائحةَ الْمِسْكِ فأَفسَدْتَهُ بالسِّواك ، فأَمَرَهُ اللهُ أنْ يصومَ عشراً بعد ذلكَ الْخُلُوفِ ، فذلك قولهُ { وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ }. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً } ؛ أي تَمَّ الوقتُ الذي أمَرَ اللهُ بالعبادة فيهِ أربعينَ ليلةً.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي } ؛ أي قالَ مُوسَى لهارون قَبْلَ انطلاقهِ إلى الجبلِ الذي أُمر بالعبادةِ فيه : قُمْ مَقَامِي فِي قَوْمِي ، { وَأَصْلِحْ } ؛ فيما بينهم ، { وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ } منهم ، ولا ترضَ بعملِهم ، وذلك أنَّ موسى كان يشاهدُ كثرةَ خلافِهم حالاً بعد حالٍ ، فأوصاهُ في أمرهم. ومن قرأ (هَارُونُ) بالرفعِ فمعناهُ : قال هارونُ.

(٠/٠)

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } ؛ أي لَمَّا انتهَى موسى إلى المكانِ الذي وقَّتْنَا له ، وأمرناهُ بالسَّير إليه وهو مَدْيَنُ ، وقولهُ تعالى : { وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ } أي كَلَّمَهُ من غيرِ تَرْجُمان ولا سفيرٍ ، كما كَلَّمَ الأنبياءَ على ألْسِنَةِ الملائكةِ.

فلما نَاجَاهُ رَبُّهُ استحلَى كلامَهُ ، واشتاقَ إلى رُؤية رَبِهِ وطَمِعَ فيها ، فـ { قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ } ؛ أي اعطِني أنظُرْ إليك ، { قَالَ لَن تَرَانِي } ؛ ولستَ تطيقُ النظرَ إلَيَّ في الدُّنيا ، فمَن نظرَ إلَيَّ ماتَ ، فقال : إني سمعتُ كلامَكَ واشتقتُ إلى رُؤيتِكَ ، ولأَنْ أنْظُرْ إليك ثم أموتُ أحَبُّ إلَيَّ مِن أن أعيشَ ولا أراكَ ، فقال اللهُ تعَالى : { وَلَاكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } ؛ أي إلى أعظمِ جَبَلٍ لِمَدْيَنَ وهو جبلُ زُبَيْر ، { فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي }.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ } ؛ أي ظهرَ له من نورهِ ما شاءَ ، ويقالُ ألقَى عليه نُوراً من الأنوار ، { جَعَلَهُ دَكّاً } ؛ أي كَسَّرَهُ جِبالاً صِغَاراً ، تقطَّعَ الجبلُ من هيبةِ الله عَزَّ وجَلَّ ، فصارَ ثَماني فِرَقٍ ، أربعُ قِطَعٍ منه وقعنَ بمكَّة : ثورٌ وثُبَيْرٌ وحِرَاءُ وَغَارُ ثَوْرٍ ، وأربعُ قِطَعٍ وقَعن بالمدينةِ : أُحُدُ وَرَوْقُ وَرَضْوَى وَالْمِهْرَاسُ.

وقولهُ تعالى : { وَخَرَّ موسَى صَعِقاً } ؛ أي سَقَطَ مَغْشِيّاً عليه ، { فَلَمَّآ أَفَاقَ } مِن غَشْيَتِهِ ، { قَالَ سُبْحَانَكَ } ؛ أي تَنْزِيهاً لكَ مِن قَولِي ومِن كلِّ سُوءٍ ، { تُبْتُ إِلَيْكَ } ؛ مِن مسألَتِي للرُّؤية ، { وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } من أهلِ هذا الزَّمان إنك لا تُرى في الدُّنيا.

وقال الحسنُ : (قَالَ اللهُ لِمُوسَى : أعْرِضُ رُؤيَتِي عَلَى الْجَبَلِ ، فَإِنْ لَمْ يَحْمِلْهَا مَعَ عِظَمِهِ وَبَقَائِهِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ، فَأَنْتَ أيْضاً لاَ تَحْمِلُهَا). قال : (مَعْنَى قَوْلِهِ { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ } أيْ أوْحَى رَبُّهُ). قَالَ : (وَمَا رَأى مُوسَى رَبَّهُ قَطْ ، وَلَكِنْ أوْحَى اللهُ إلَى الْجَبَلِ هَلْ تُطِيقُ رُؤيَتِي ، فَسَاخَ الْجَبَلُ وَمُوسَى يَنْظُرُ). وَقِيْلَ : إنَّ اللهَ تعالى أبرزَ من العرشِ مقداراً الظُّفُرِ فَتَدَكْدَكَ الجبلُ ؛ لأن أجسامَ الدُّنيا لا تحتملُ آياتَ القيامة والأجسامَ العُلويَّة ، إذ من حُكم الدُّنيا أن تفنَى بآياتِ القيامةِ ، فلا تحتَلُها الدُّنيا.

وقرأ بعضُهم (دَكَّاءَ) بالهمزِ والمدِّ ؛ أي طَارَ أعلى الجبلِ وبقِيَ أسفلهُ دَكّاً ، والدَّكَّاُ واحدُ الدَّكَوَاتِ ؛ وهي رَوابي الأرضِ التي تكونُ ناشزةً لا تبلغُ أن تكون جَبلاً ، ونَاقَةٌ دَكَّاء إذا لم يكن لها سَنَامٌ. ويحتملُ أن يكون معنى الدَّكِّ دَقُّ الجبلِ على الأرضِ ، يقال دَكْدَكْتُ الشيءَ اذا دَقَقْتُهُ. وقرأ عاصمُ (دَكّاً) هَهُنا بالقصرِ والتنوينِ ، والتي في الكهفِ بالمدِّ من غير تنوينٍ ، ومدُّهُما حمزةُ والكسائيُّ والباقين مقصورَين مُنَوَّنَين.

وَقِيْلَ : لَمَّا سألَ موسى رَبَّهُ أرسلَ اللهُ الضبابَ والصواعقَ والظُّلمة والرعدَ والبرقَ ، فأحاطت بالجبلِ الذي عليه موسَى وأمرَ اللهُ ملائكته يعرِضُوا على موسَى ، فقالَ لَهم : اهبطُوا إلى عبدِي موسى الذي أرادَ أنْ يَرانِي ، فهَبَطُوا عليه في يدِ كلِّ مَلَكٍ منهم مثلُ النَّخلةِ الطويلةِ ناراً شديدةَ الضوءِ أشدُّ ضوءاً من الشمسِ ، ولبَاسُهم كلَهَب النار ، كلُّهم يقولون بشدَّة أصواتِهم : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْعِزَّةِ أبَداً لاَ يَمُوتُ ، وفي رأْسِ كلِّ منهم أربعةُ أوْجُهٍ.

(٠/٠)

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ يامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي } ؛ أي قال اللهُ : يا موسَى إنِّي اتخذتُكَ صفوةً برسالَتِي التي أرسلنَا إليك وبكلامِي معكَ من غير وحيٍ ، { فَخُذْ مَآ آتَيْتُكَ } ؛ أي اعْمَلْ بما علَّمتُكَ من التوراةِ ، { وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ } ؛ لِمَا أعطيتُك وأكرمتُكَ.

(٠/٠)

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ } أي تسعةِ ألوَاحٍ من الزُّبرجَدِ الأخضرِ ، وَقِيْلَ : من الياقوتِ الأحمر أعطاها اللهُ موسَى وفيها التوراةُ كنَقْشِ الخاتَم ، طولُ كلِّ لوحٍ عشرةُ أذرُعٍ.
وقولهُ تعالى : { مِن كُلِّ شَيْءٍ } يعني من أُمُورِ الدِّين ، وقولهُ تعالى : { مَّوْعِظَةً } ؛ يعني ما يدعُو إلى الطاعةِ ، وزَجْرٍ عن المعصيةِ بالوعدِ والوعيدِ وأخبار الأُمَم الماضين. وقولهُ تعالى : { وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ } ؛ معناهُ : لكلِّ أمرٍ من أُمور الدِّين من الحلالِ والحرامِ والأمر والنَّهي.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ } ؛ أي اعْمَلْ بها بجِدٍّ في طاعةِ اللهِ ومواظبةٍ عليها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا } ؛ أي أمُرْ قومَك يعملوا بأحسنِ ما بُيِّنَ لهم فيها ؛ أي أُمِرُوا بالخيرِ ونُهوا عن الشرِّ ، وعرَفُوا ما لهم في ذلك ، فمُرْهُمْ يأخذُوا بالأحسنِ. ويقالُ : مُرْهُمْ يأخذُوا بالفرائضِ والنوافلِ دون المباحِ الذي لا حَمْدَ فيه ولا ثوابَ. وَقِيْلَ : معناهُ : (يأْخُذُوا) بالناسخِ والمنسوخ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ } ؛ أي سوفَ أُريكُمْ جهنَّم في الآخرةِ هي دارُ الخارجين عن طاعةِ الله ، ويقالُ : أرادَ به ما مَرُّوا عليه في سَفَرِهم من منازِلِ عادٍ وثَمود والقُرونِ الذين أهْلِكُوا بالتكذيب.

وقال قتادةُ : (مَعْنَاهُ سَأُدْخِلُكُمُ النَّارَ وَأُرِيكُمْ مَنَازِلَ الْكَافِرِينَ). وَقِيْلَ : معناهُ سأُريكُم دارَ فرعون وقومِهِ وهي مصرُ.

(٠/٠)

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } ؛ أي سأجعلُ جزاءَ المتكبرين الذين لا يُؤمنون بالمعجزةِ الإضْلاَلَ عن الْهُدَى ، وعن معرفةِ ما أودعَ اللهُ في الكتاب يقرؤونَهُ ولا يفهمون ما أرادَ اللهُ به.

وَقِيْلَ : معناهُ : سأَصرِفُهم عن الاعتراضِ على آيَاتِي بالإبطالِ ، وَقِيْلَ : معناه : سأَصرِفُ عن نَيلِ ما في آياتِي من العزِّ والكرامةِ ، ويعني بالذين يتكبَّرون في الأرضِ بغيرِ الحقِّ هم الذي يَرَونَ أنَّهم أفضلُ الخلقِ ، وأنَّ لهم ما ليسَ لغيرِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا } ؛ معناه : وإن يَرَوا كلَّ آيةٍ تدلُّ على وحدانيَّة اللهِ ونُبوَّة الأنبياءِ لا يصدِّقوا بها ، { وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ } ؛ أي سبيلَ الإسلامِ ، { لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً } دِيناً لأنفسهم ، يعني هؤلاء المتكبرين. وقرأ حمزةُ ومجاهد والأعمش والكسائيُ بالفتحِ الاستقامة في الدِّين ، والرُّشد بضمِّ الراءِ الاصلاحُ. وقرأ أبو عبدِالرحمن : (وَإِنْ يَرَواْ سَبيلَ الرَّشَادِ) بالألفِ. وقرأ مالكُ بن دينار : (وَإِنْ يُرَواْ) بضمِّ الياء.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ يحتملُ أن يكون ذلكَ موضعَ الرفعِ على معنى أمْرَهم ذلك ، ويحتملُ أن يكون نَصباً على معنى فعل اللهُ ذلك بهم بتكذيبهم بآياتنا ، قال مقاتلُ : (أرَادَ بقَوْلِهِ بآيَاتِنَا التِّسع) كأنه ذهبَ إلى أنه هذا كلُّه خطابُ موسَى. قال الكلبيُّ : (مَعْنَى { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَالْقُرْآنِ) وذهبَ إلى أنَّ قولَهُ : { سَأَصْرِفُ } خطابٌ لنبيِّنا صلى الله عليه وسلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ } ؛ أي عنها لاَهِينَ سَاهِينَ ، لا يتفكَّرون فيها ولا يتَّعظُونَ بها.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ } ؛ أي بالبعثِ بعد الموت ، { حَبِطَتْ } ؛ بَطُلَتْ ، { أَعْمَالُهُمْ } ؛ التي عَمِلُوها على جهةِ البرِّ ، { هَلْ يُجْزَوْنَ } ؛ في الآخرةِ ، { إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ في الدُّنيا.

(٠/٠)

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ مُوسَى كَانَ وَعَدَ قَوْمَهُ بالانْطِلاَقِ إِلَى الْجَبَلِ ثَلاَثِينَ يوماً ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ رُجُوعُهُ قالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ – وَكَانَ رَجُلاً مُطَاعاً – : إِنَّكُمْ اتَّخَذْتُمُ الْحُلِيَّ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فَعَاقَبَكُمُ اللهُ بِتِلْكَ الْجِنَايَةِ ، وَمَنَعَ مُوسَى عَنْكُمْ ، فَاجْمَعُواْ حَتَّى أُحْرِقَهَا ؛ لَعَلَّ اللهَ أنْ يَرُدَّ عَلَيْنَا مُوسَى.
فَجَمَعُواْ الْحُلِيَّ ، وَكَانَ السَّامِرِيُّ صَائِغاً ، فَجَعَلَ الْحُلِيَّ فِي النَّار وَاتَّخَذ مِنْهُ عِجْلاً وَنَفَخَ فِيْهِ التُّرَابَ الَّذِي كَأنَ أخَذهُ مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ ، وَكَانَ ذلِكَ الْفَرَسُ فَرَسَ الْحَيَاةِ ، مَا وَضعَ حَافِرَهُ فِي مَوْضِعٍ إلاَّ اخْضَرَّ ، فَلَمَّا نَفَخَ فِيْهِ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ التُّرَاب صَارَ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، فَعَبَدُوهُ وَزَفُّوا حَوْلَهُ).
وَقِيْلَ : إن السامريَّ حين صاغَ العجلَ جعل فيه خُروقاً تجري فيها الريحُ ، فكان يسمعُ من تلك الخروقِ شِبْهُ الْخُوَار ، فأوْهَمَ بني إسرائيلَ أنه حيٌّ يَخُورُ.
قال الزجَّاجُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ : { جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ } أيْ جُثَّةٌ لاَ تَعْقِلُ ، لَيْسَ لَهُ رُوحٌ وَلاَ عَقْلٌ وَلاَ كَلاَمٌ إِنَّمَا لَهُ خُوَارٌ فَقَطْ). وأما إضافةُ الْخُوَار إلى العجلِ في الآيةِ فهو كما يقالُ : صوتُ الحجرِ ، صوتُ الطِّشْتِ وأمَّا الْحُلِيُّ فهو جمعُ الْحِلْيَةِ وهو ما يُتزيَّنُ به من ذهبٍ وفضَّة. وقال عليٌّ رضي الله عنه : (لَهُ جُؤَارٌ) بالجيمِ والهمزِ وهو الصوتُ.
وقولهُ تعالى : (حَلْيِهِمْ) قرأ يعقوبُ بفتحِ الحاء وجزمِ اللام ، وقرأ حمزةُ والكسائي (حِلِيِّهِمْ) بكسرِ الحاء

واللامِ وتشديد الياء أتبعا الحاءَ كسرةَ اللامِ ، وقرأ الباقون بضمِّ الحاء وكسرِ اللام وتشديد الياءِ وهما لُغتَان.

قَوْلُهُ تَعَالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً } ؛ معناهُ : ألَم ينظرُوا إلى العجلِ لا يُكلِّمُهم بما يُجرِي عليهم نَفعاً ويدفعُ عنهم ضُرّاً ، ولا يُرشِدُهم طريقاً إلى خيرٍ ليأتوهُ ولا الى شرٍّ لينتَهُوا عنه ، ولو كان إلَهاً لهدَاهُم ؛ لأنَّ الإلهَ لا يُهمِلُ عبادَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ } ؛ يجوزُ أن يكون معناهُ : لا يُرشِدُهم الطريقَ الذي يتَّخذونَهُ ، ويجوزُ أن يكون ابتداءً على معنى : عَبَدُوهُ وكانوا بعبادتِهم إياهُ ظالمين.

(٠/٠)

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ } ؛ أي نَدِمُوا على عبادتِهم العجلَ ، ورأوا أنَّهم قد ضَلُّوا عن الحقِّ ، { قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا } ؛ عملنا ؛ { لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } ؛ بالعقوبةِ. قال الزجاج : (يُقَالُ لِلنَّادِمِ علَىَ مَا فَعَلَ الْمُتَحَسِّرِ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنْهُ : قَدْ سُقِطَ فُلاَنٌ فِي يَدِهِ. وَأَسْقِطَ بمَعْنَى سَقَطَ النَّدَمُ فِي أَيْدِيهِمْ).

(٠/٠)

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً } ؛ أي رجعَ مُوسَى من الجبل إلى قومهِ شديدَ الغضب حَزِيناً ، { قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي } ؛ فَعَلْتُمْ خَلْفِي في غَيبَتِي بعبادةِ العجل ، { أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ } ؛ معناهُ : أسْتَبْطَأْتُمْ وعدَ ربكم الذي وعدَ في أربعين ليلةٍ ، { وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ } ؛ مِن يده التي كانت فيها التوراةُ وألقاها من يدهِ ، { وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (أخَذ

رَأسَهُ بيَدِهِ الْيُمْنَى وَلِحْيَتَهُ بيَدِهِ الْيُسْرَى).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي } ؛ أي قَهَرُونِي واستذلُّونِي وهَمُّوا بقتلِي ، وكان هارون أخاهُ لأبيهِ وأُمِّهِ ولكنَّهُ قال (يَا ابْنَ أُمَّ) لِتَرَقُّقِهِ عليه ، وعلى هذه طريقةُ العرب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآءَ } ؛ لا تُفَرِّحْهُمْ عليَّ ولا تظُنَّ أنِّي رضيتُ بفعلِ القوم الظالمين ، { وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } ؛ فلا تجعَلني مع عَبَدَةِ العجلِ في الغضب عليَّ ، وكان هارونُ أكبرَ من موسى بثلاثِ سنين ، وأحبَّ إلى بني إسرائيلَ من موسى.

قرأ ابنُ عبَّاس والكوفيُّون إلاَّ حفصاً (يَا ابْنَ أُمِّ) بكسرِ الميم هُنا ، وفي طه فحَذفُوا ياءَ الإضافةِ ؛ لأنَّ مَبْنَى النداءِ على الحذفِ ، وبقِيَتِ الكسرةُ على الميمِ دَليلاً على ياءِ الإضافةِ كقولهِ (يَا عِبَادِ ، وَيَا قَوْمِ) ، وقرأ ابنُ السُّمَيقِعِ (يَا ابْنَ أُمِّي) باثباتِ الياء ، وقرأ الباقون بفتحِ الميمِ على معنى يا ابنَ أُمَّاهُ.

وقولهُ تعالى : { اسْتَضْعَفُونِي } بعبادةِ العجلِ ، وقولُه تعالى : { فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآءَ } ، قرأ مجاهدُ ومالكُ بن دينارٍ : (فَلاَ تَشْمَتْ) بفتح التاءِ والميم ، ورفعِ (الأَعْدَاءُ) ، والشَّماتَةُ هي سرورُ العدوِّ.

فإنْ قِيْلَ : لِمَ جازَ لموسى أن يُجرَّ برأسِ هارون ولحيتهِ ، والانبياءُ لا يجوز لأحدٍ أن يستخفَّ بهم ، وكان هارونُ نبيّاً ؟ قِيْلَ : إنَّ هذا كان منهُ على جهةِ العِتَاب لا على جهةِ الْهَوَانِ. وَقِيْلَ : لأنه أجراهُ مجرَى نفسهِ من حيث أنَّهما كاناَ في النبوَّةِ والأُخوَّةِ كالنفسِ الواحدة ، وقد يقبضُ الإنسانُ عند الغَيْظِ على لحيةِ نفسه ، ويعُضُّ إبْهامَيْهِ وشَفَتيه ، كما رُوي (أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه كَانَ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ فَتَلَ شَارِبَهُ).

إلاَّ أنَّ هارونَ خافَ أن يتوهَّم جُهَّالُ بني إسرئيل أنَّ موسى غضبانٌ عليه كغَضَبِهِ على مَن عَبَدَ العجلَ ، فقالَ : { ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي... } الآية. وَقِيْلَ : إنَّ موسى فَعَلَ هذا بهارون في حالةِ الغضب التي لا يملكُ الإنسانُ فيها نفسَهُ ، وكان ذلك صغيرةً منه ، كما ألقَى الألواحَ لشدَّة الغضب ، وكان الواجبُ عليه أن يُعَظِّمَها.

(٠/٠)

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي } ؛ ما كان منهُ من التقصير في ردِّ القوم عن عبادةِ العجل ، { وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ } ؛ أي في جَنَّتِكَ ، { وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } ؛ أي أرحَمُ بنا مِنَّا ، وأرحمُ بنا من أبنائِنا وأُمَّهاتنا.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ } ؛ معناهُ : إنَّ الذين اتَّخذوا العجلَ إلَهاً سيصيبُهم عذابٌ من ربهم في الآخرةِ. والغضبُ من اللهِ : إرادةُ الانتقامِ على ما سَلَفَ. وقولهُ تعالى : { وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا } ؛ أرادَ به ما أُمِرُوا به من استسلامِهم للفعلِ بقُعودِهم ، { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } أي كما جَزَينا هؤلاءِ فكذلك نَجزِي الكاذبين على اللهِ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ } قِيْلَ : أرادَ بالسَّيئات الشِّركَ وسائرَ المعاصي إذا تابَ صاحبُها عنها ، { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ ظاهرُ المعنى.

(٠/٠)

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَماَّ سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ } ؛ أي سَكَنَ عن موسى الغضبُ وزالت قوَّة غضبِهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : سَكَتَ موسَى عنِ الغضب ، هذا من الْمَقْلُوب ، كما يقالُ : أدخلتُ قُلُنْسُوَةً في رأسِي ، يريدُ أدخلتُ رأسِي في قُلُنْسُوَةٍ. وقولُه تعالى : { أَخَذَ الأَلْوَاحَ } بعدَ ما كان ألقَاهَا وبعدَ ما تكسَّرت ، وذهَبَ منها ستَّة أسباعِها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَفِي نُسْخَتِهَا } ؛ قال عطاءُ : (وَفِيمَا بَقِيَ مِنْهَا وَلَمْ يَذْهَبْ) ، ويقالُ : معناه : فيما

نَسَخَهُ موسَى مما تكسَّرَ. وقولهُ تعالى : { هُدًى وَرَحْمَةٌ } ؛ أي بيانٌ من الضَّلالة ونجاةٌ ، { لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ } ؛ يخشَون اللهَ ويعملون بها.

(٠/٠)

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا } ؛ ومعناهُ : واختارَ موسى مِن قومهِ سبعين رجُلاً للوقتِ الذي وقَّتنا لهُ يصحَبُهم مع نفسهِ عند الخروجِ إلى الميقاتِ ، فيشهَدُوا عند قومِهم على سماعِ كلامِ الله ، فإنَّهم كانوا لا يُصدِّقون موسَى في أنَّ اللهَ كَلَّمَهُ ، وكانوا اثنَى عشرَ سِبْطًا ، فاختارَ مُوسَى من كلِّ سبط ستَّةً ، وخلفَ منهم رجُلين ، وقال : إنَّما أُمِرتُ بسبعين فليَرجِعْ اثنانِ منكم ، ولَهما أجرُ مَنْ حَضَرَ ، فرجَعَ يُوشَعُ بن يُونَا وكالبُ بن يوقَنَّا ، وذهبَ موسى مع السبعين الى الجبلِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ } ؛ أي الزَّلزَلَةُ الشديدةُ عند الجبلِ ، { قَالَ } ؛ موسَى : { رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ } ؛ أنْ حملتَهم إلى الميقاتِ ، وأهلَكتَني معهم بقتلِ القبطيِّ ، وظنَّ أن الرجفةَ إنَّما أخذتْهم بسبب عبادة بني إسرائيل العجلَ ، فقال : { أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ } ثم قال : { إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ } ؛ يعني ما عبادةُ العجلِ إلاَّ بَلِيَّتُكَ إذ صار الروحُ في العجلِ ، { تُضِلُّ بِهَا } ؛ بالفتنةِ ، { مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ }.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } ؛ أي أنتَ ناصِرُنا وحافظُنا ومتولِّي أُمورنا فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا وارحمنا ولا تعذِّبنا ، { وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ }.
وَقِيْلَ : إنَّ موسى عليه السلام لَمَّا هلكَ السَّبعون ، جعلَ يبكِي ويقولُ : يا رب ماذا أقولُ لبَنِي إسرائِيلَ إذا رجعتُ إليهم ، وقد أهلكتَ خيارهم ؟ فَبَعَثَهم اللهُ كما قال : { ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ }[البقرة : ٥٦] وقد تقدَّم تفسيرُ ذلك في البقرةِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَاذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً } ؛ يعني العلمَ والعبادةَ ، وقولهُ تعالى : { وَفِي الآخِرَةِ } ؛ أي واكُتبْ لنا في الآخرةِ حَسَنَةً وهي الجنَّةُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ } ؛ أي أنَبْنَا ورجَعنا بالتوبةِ ، يقالُ : هَادَ يَهُودُ ؛ إذا رجعَ ، ولَم يُؤخذ اسمُ اليهودِ مِن هذا وإنما أُخِذ من تَهَوَّدَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ } ؛ مِن عبادي مِمَّن هو أهلٌ لذلك ، { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } ؛ يعني وسِعَتِ البرَّ والفاجرَ. قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَطَاوَلَ لَهَا إبْليسُ وَقَالَ : أنا شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ ، فَأَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ بقَوْلِهِ : { فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ }) أي سَأُوجِبُها للَّذين يتَّقونَ الشِّركَ والمعاصي ، { وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ }.

فَقَالتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ نَتَّقِي وَنُؤْتِي الزَّكَاةَ وَنُؤْمِنُ بآيَاتِ رَبنَا ، فأَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْهَا بقَوْلِهِ : { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ } ؛ يعني مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم سَمَّاهُ أُمِّيّاً لأنه لم يُحسنِ الكتابةَ ، قال الله تعالى : { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ }[العنكبوت : ٤٨] ، وقال صلى الله عليه سلم : " إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسِبُ " قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ } ؛ يعني نَعْتَهُ وصفَتهُ وخاتَمه الذي بين كَتِفَيهِ ونعتَ أُمَّته وشريعتهِ.

(٠/٠)

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُلْ ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ كُلُّ رَسُولٍ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ ، وَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم إلَى قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ) ومعنى الآية : قُلْ يا مُحَمَّدُ إنِّي رسولُ الله إليكم كافَّة أدعُوكم إلى طاعةِ اللهِ وتوحيدهِ واتِّبَاعِي فيما أدَّيتهُ إليكُم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ تعريفُ اللهِ الذي أرسلَهُ إليهم ، وقولهُ تعالى : { لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ } ؛ أي لاَ شريكَ له في الإلَهيَّة ، ولا خالقَ ولا رازقَ غيرهُ ، { يُحْيِي وَيُمِيتُ } ؛ أي يُحيي الخلقَ من النُّطْفة ، ويُمِيتُهم عندَ انقضاءِ آجَالِهم ، لا يقدرُ على ذلكَ أحدٌ سِوَاهُ, وَقِيْلَ : معناهُ : يُحيى الأمواتَ للبعثِ ، ويُمِيتُ الأحياءَ في الدُّنيا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ } ؛ أي صَدِّقُوا باللهِ ورسولهِ النبيِّ الأُمِّيِّ الذي لاَ يَكتُبُ ، فَيُؤْمَنُ من جهتهِ أنْ " لا " لا يقرأ الكتُبَ وينقُلَ إليهم أخبارَ الماضِينَ ، ولكن يَتَّبعُ ما يُوحَى إليه ، وقولُه تعالى : { الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ } ؛ أي باللهِ وكُتُبِهِ. ومَن قرأ (وَكَلِمَتِهِ) فهو عِيسَى ، وقوله تعالى : { وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ؛ ظاهرُ المعنى.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ } ؛ أي جماعة ؛ { يَهْدُونَ بِالْحَقِّ } ؛ يدعون إلى الحق ، { وَبِهِ يَعْدِلُونَ } ؛ وبهِ يَحكُمون وهم مُؤمِنُو أهلِ الكتاب عبدُاللهِ بن سلام وأصحابهُ.

ورُوي عن ابنِ عبَّاس : (أنَّهم قومٌ من بني إسرائيلَ قِبَلَ المشرقِ ، وخَلْفَ الصِّين عند المطلعِ أُخِذُوا من بيتِ المقدسِ ، فرُمِيَ بهم هناكَ متمَسِّكين بالتوراةِ مُشتَاقِينَ إلى الإسلامِ ، يعملون بفرائضِ الله ، بيُوتُهم مستويةٌ ، والأمانةُ فيهم فاشيةٌ ، قبُورهم عند أبوابهم ، لا تَبَاغُضَ بينهم ولا تَحَاسُدَ ولا حِلْفَ ولا خيانةَ ولا كذبَ ولا غشَّ ، يعمَلون بالحقِّ فيما بينهم بلا أميرٍ ولا قاضٍ ، مرَّ بهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسرِيَ به ، فعرضَ عليهم الإسلامَ فقَبلُوهُ).

وذكر مقاتلُ : (أنَّ بين الصِّين وبينَهم وادِياً جارياً من رملٍ ، فيمنعُ الناسَ من إتْيانِهم واخبارِهم ، إلاَّ أنَّا لا نسمعُ أخبارَهم إلاَّ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم أخْبَرَهُ بهِ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، واخبرهُ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم ابنَ عبَّاس. وقال السديُّ : (هم قومٌ بينَكم وبينهم نَهْرٌ من شَهْدٍ).

قال ابن جُرِيج : (إنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا قَتَلوا أنبياءَهم وكَفَرُوا ، تبَرَّأ هؤلاءِ القومُ منهم وسألوا أنْ يُفرِّقَ اللهُ بينهم وبينهم ، ففتحَ الله لهم نَفَقاً في الأرضِ ، فصَارُوا فيه سَنَةً ونصفاً حتى خرجُوا من وراءِ الصين ، فهم هناكَ مُسلمون يُصَلُّونَ إلى قِبْلَتنا).

وقال الكلبيُّ والربيع : (هم قومٌ خلفَ الصِّين على نَهر يجرِي على الرَّملِ سُمِّي نَهر أرْدَاف ، يُمطَرون باللَّيلِ ، يصبحُون بالنهارِ ويزرَعون ، لا يَصِلُ إليهم منَّا أحدٌ ولا منهم إلينا ، وهم على الحقِّ ، ذهبَ جبريلُ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم إليهِم ليلةَ أُسرِيَ به فكلَّمَهم.

فقال جبريلُ : هل تعرفون هذا الذي تُكلِّمونَهُ ؟ قالوا : لاَ ، قال : هذا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم رسولُ اللهِ النبيُّ الأُمِّي ، فآمَنُوا به وقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ موسَى أوصَانا فقالَ : مَن أدركَ منكُم مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فَلْيُقْرِؤْهُ منِّي السلامَ ، فردَّ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم على موسَى وعليهم السلامَ ، ثم أقرَأهم عَشْرَ سُوَرٍ من القرآنِ أُنْزلت بمكَّة ، ولم يكنُ يومئذٍ نزلت فريضةٌ غيرَ الصَّلاة والزكاةِ ، وأمَرَهم أنْ يُقيموا مكانَهم وأمرَهم أنْ يُجَمِّعُوا ويتركوا السَّبتَ).

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } ؛ أي فُرِّقُوا بني إسرائيلَ اثنتَي عشرة فرقةً ، والسِّبْطُ في ولدِ اسحق كالقبيلةِ في ولدِ إسماعيلَ ، وإنَّما ذكرَ (اثْنَتَي عَشْرَةَ) على لفظِ التَّأنيثِ وإنْ كان السبطُ مذكَّراً ؛ لأن الأسباطَ هي الفِرَقُ والجماعاتُ.

فانْ قِيْلَ : كيف قالَ (أسْبَاطاً) بالجمعِ ولا يجمعُ ما بعدَ العشرةِ على لفظِ الجمع ، وإنَّما يقالُ : اثنَى عشرَ دِرهماً ولا يقالُ اثنى عشرَ درَاهم ؟ قِيْلَ : ذكرَ الزجَّاجُ : (أنَّ قَوْلَهُ (أسْبَاطاً) بدَلٌ لاَ يُمَيَّزُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : قَطَّعْنَاهُمْ أسْبَاطاً اثْنَتَي عَشْرَةَ). وقرأ أبان بن تَغْلُبْ ابنِ زيد عن عاصم (وَقَطَعْنَاهُمْ) بالتخفيف.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ } ؛ أي أوحَينا إليه في التِّيهِ حين طلبَ قومهُ منه الماءَ ، { أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ حَجَراً يَحْمِلُونَهُ مَعَهُمْ عَلَى حِمَارٍ) وَلِهَذا عُرِّفَ بالألفِ واللامِ.

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً } ؛ الانْبجَاسُ : خروجُ الماءِ قَليلاً ، والانفجارُ خروجهُ واسعاً ، وإنما قالَ (فَانْبَجَسَتْ) ؛ لأن الماءَ كان يخرجُ من الحجرِ في الابتداء قليلاً ثم يتَّسِعُ فاجتمعَ فيه صفةُ الانبجاسِ والانفجار ، وإنما تفجَّرَ منه اثنتَا عشرةَ عَيناً ؛ لأنَّهم كانوا اثنتَي عشرةَ سِبْطاً ، وكان لا يخالطُ كلُّ سبطٍ السبطَ الآخر ، { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ } ، كلُّ سبطٍ موضعَ شربِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ } أي ظَلَّلنَا عليهم بالنَّهار في التِّيه ليَقِيَهم حرَّ الشَّمسِ ، { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } ؛ فالْمَنُّ الترنجبين ، والسَّلْوَى طائرٌ يشبهُ السَّماني ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } أي من خِلاَلِ ما رزقنَاكم من الْمَنِّ والسَّلوَى { وَمَا ظَلَمُونَا } ؛ أي وما ضَرُّونا بمخالفتِهم أمْرَنا وإعراضِهم عن شُكر النعمة ، { وَلَاكِن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } ؛ ولكن ضَرُّوا أنفسَهم.

(٠/٠)

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَاذِهِ الْقَرْيَةَ } ؛ أي قيلَ لهم وقتَ خرُوجِهم من التِّيهِ اسْكُنوا القريةَ

أريحا ببيتِ المقدس ، { وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ } ؛ من نَعيمِها ، { وَقُولُواْ } ؛ مَسْأَلَتُنا ؛ { حِطَّةٌ } ؛ أي احْطُطْ عنَّا ذُنوبَنا ، { وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً } ؛ بابَ أريحا خاشِعين للهِ خاضِعين ، { نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ } ؛ ما سَلَفَ من ذُنوبكم باستغفارِكم وخضُوعِكم.

وقرأ أهلُ المدينة (تُغْفَرْ) بالتاء مضمومةً ، وقرأ ابنُ عامر بتاء مضمومةٍ أخرى (خَطِيَّتُكُمْ). وقولهُ تعالى : { سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } ؛ أي الذين لا ذنبَ لهم في الدُّنيا نزيدُهم فَضلاً في الآخرةِ ثَواباً.

(٠/٠)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } ؛ أي غَيَّرَ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم القولَ الذي أُمِرُوا به ، فقالوا إطة سِمْقَانا ؛ أي حنطةٌ حمراء ، ويقال قالوا : حِطَّة ، { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَآءِ } ؛ أي عذاباً أنْزَلَتْ بهم ناراً وأحرقَتهم ، { بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ } ؛ بتبديلِهم ما أُمِرُوا به.

(٠/٠)

وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ } ؛ معناهُ : سَلْ يا مُحَمَّدُ يهودَ المدينةِ عن القريةِ التي كانت بقُرب البحرِ وهي مدينة إيله على ساحلِ البحر بين المدينةِ والشَّام ، وهذا سؤالُ توبيخٍ وتقريرٍ وتعريف لهم ، لا سؤالَ تعريفٍ من قِبَلِهم ، وفي السؤالِ لهم بيانُ أنَّ يهود المدينةِ جَرَوا على عادةِ أسلافِهم في التمرُّدِ في المعصيةِ ، فكأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يسألهم ما فعلَ اللهُ بأهلِ تلك القريةِ ، أليس قد جعلَهُم اللهُ قردةً بمخالَفَتِهم أمرَ اللهِ ، فما يُؤمِنُكُمْ في تكذيب مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من عذابِ الله.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ } ؛ أي حيث يتجاوزُونَ الحدَّ بأخذِهم السَّمَكَ في يومِ السَّبتِ ، وقد أُمِرُوا أنْ لاَ يصطَادُوا فيه ويتفرَّغُوا للعبادةِ والطاعة. وقولهُ تعالى : { إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ

شُرَّعاً } ؛ قال ابنُ عباس : (أيْ ظَاهِرَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ). و قال الضحَّاكُ : (مُتَتَابِعَةً مِثْلَ الْكِبَاشِ الْبيضِ السِّمَانِ يَوْمَئِذٍ أنْ تُصَادَ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ } أي لا يكون يومُ السَّبت ، كانت الحيتانُ تغوصُ في الماءِ ولا تأتِيهم شُرَّعاً.

وقرأ أبو نُهيك : (إذْ يُعِدُّونَ فِي السَّبْتِ) بضمِّ الياء وكسرِ العين وتشديدِ الدال ؛ يُهَيِّؤُنَ الآلَةَ لأخذِهَا. وقرأ ابنُ السُّمَيقِعِ (فِي الأسْبَاتِ) على جمعِ السَّبتِ. وقرأ بعضُهم (إذ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ أسْبَاتِهِمْ شُرَّعاً) فجعلت طائفةٌ من أهلِ هذه المدينة يُلقُونَ الشَّبكةَ في الماءِ في يومِ السَّبت ، ويقولون حتى يقعُ فيها السَّمكُ ، ثم لا يُخرِجُونَ الشَّبكةَ من الماءِ إلاَّ يومَ الأحدِ ، وقالوا إنَّما نصطادُ في يومِ الأحدِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } ؛ أي كذلك نُشَدِّدُ عليهم في التَّكليفِ بعصيانِهم وفِسْقِهم.

ووقفَ بعضُ القُرَّاء على قولِهِ : (كَذلِكَ) على معنى لا تأتِيهم في غيرِ يوم السَّبتِ كما تأتِيهم في يومِ السَّبت ، ثُم ابتدأ فقالَ { نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ }. فإنْ قِيْلَ : كيفَ عرَّفَ اللهُ الحيتانَ الفَضْلَ من يومِ السَّبت وغيره من الأيَّام ؟ قِيْلَ : لا يمتنعُ أنَّ اللهَ عرَّفَها ذلك أو قوَّى دَوَاعِيَها ؛ أي إلى الشُّروعِ في يوم السَّبتِ معجزةً لنبيِّ ذلك الوقتِ وابتلاءً لأُولئك القومِ.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً } ؛ في الآيةِ بيانُ أنه كان في هذه القريةِ فِرْقَةً يَعِظُونَ الْمُذنِبينَ ، والمعنى : إذ قالت عُصبَةً من أهلِ تلك القريةِ للواعظين لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهلِكُهم في الدُّنيا أو مُعذِّبُهم عَذاباً شَديداً في الآخرةِ ؟ ولَمْ يقولوا هذا كَرَاهَةً للوعظِ ولا رضًى بالمعصيةِ منهم ، ولكن قالوا ذلك لِيَأْسِهم عن قَبولِ الوعظِ.

وقولهُ تعالى : { قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ } ؛ أي قالتِ الفرقةُ والواعظةُ : موعظَتُنا إيَّاهم معذرةً إلى اللهِ أن نبتلى بذلك عُذراً عندَ الله. ومن قرأ (مَعْذِرَةً) بالنصب فعلَى معنى يعتذِرُون معذرةً. وقولهُ تعالى : { وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } ؛ أي ورجاءَ أن يتقوه ، فكأن الواعظين لم ييأسوا مِنْ قَبُولِهم الوعظ. وقيل : معناه : لعلهم يتقون صيدَ الحيتانِ.

(٠/٠)

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَماَّ نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ } ؛ أي فلمَّا تركُوا ما وُعِظُوا به ، { أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُوءِ } ؛ أي خلَّصنا الذين يَنْهَوْنَ عن حبسِ السَّمك في الحظيرةِ يومَ السَّبتِ ، { وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ } ؛ أي شديدٍ ، يقالُ بَئِسَ وبَيْسَ وَبَأْسَ إذا اشْتَدَّ ، وبَؤُسَ يَبْؤُسُ بُؤْساً إذا افْتَقَرَ. وقوله تعالى : { بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ } ؛ أي بفِسقِهم.

ولَم يُذكَر في الآيةِ حالُ الفرقةِ الثالثة ، وقد رُوي عن ابنِ عبَّاس أنه قال : (كَانَ الْقَوْمُ ثَلاَثَ فِرَقٍ ، فَكَانَتِ الْفِرْقَةُ الْوُسْطَى تَعْمَلُ بالسُّوءِ ، وَالْفِرْقَةُ الْيُمْنَى تَنْهَى وَتُحَذِّرُهُمْ بَأْسَ اللهِ ، وَكَانَتِ الأُخْرَى تَكُفُّ أَلْسِنَتَهَا وَتُمْسِكُ أَيْدِيَهَا. فَلَمَّا عَمِلَتِ الْوُسْطَى بذلِكَ زَمَاناً ، وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَمْ يُنْزَلْ بِهِمْ عُقُوبَةٌ ، اسْتَبْشَرُواْ وَقَالُواْ مَا نَرَى السَّبْتَ إلاَّ قَدْ حَلَّ لَنَا وَذَهَبَتْ حُرْمَتُهُ ، وَكَانُوا نَحْواً مِنْ سَبْعِينَ أَلْفاً ، وَكَانَتِ الْفِرْقَةُ النَّاهِيَةُ نَحْوَ اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً ، يَقُولُونَ لَهُمْ : لاَ تَعْدُوا ، وَلاَ تَأْمَنُوا مِنْ عَذاب اللهِ ، فَلَمْ يَتَّعِظُواْ فأَصْبَحُواْ وَقَدْ مَسَخَهُمُ اللهُ قَرَدَةً خَاسِئِينَ ، فَمَكَثُواْ كَذلِكَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ عِبْرَةً لِلنَّاظِرِينَ ، ثُمَّ مَاتُواْ).

قال ابنُ عبَّاس : ((وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ) وَلَيْتَ شِعْرِي مَا صَنَعَ اللهُ بالَّذِينَ لَمْ يَنْهَوا) ، وقال عكرمةُ : (بَلْ أَهْلَكَهُمُ اللهُ أَيْضاً وَمَا نَجَّا إلاَّ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ، وَهَلَكَ الْبَاقُونَ بظُلْمِهِمْ بالاسْتِحْلاَلِ وَتَرْكِ الأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ). فقال ابنُ عبَّاس : (نَزَلَ وَاللهِ بالْمُدَاهِنِ مَا نَزَلَ بالْمُسْتَحِلِّ).

وقال الحسنُ : (نَجَتْ فِرْقَتَانِ ، وَهَلَكَتْ فِرْقَةٌ) وأنكرَ القولَ الذي ذُكر له عن ابنِ عبَّاس ، وقالَ : (مَا هَلَكَتْ إلاَّ فِرْقَةٌ ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْلَغَ فِي الأَمْرِ بالْمَعْروفِ وَالْوَعْظِ مِنْ ذِكْرِ الْوَعِيدِ ، وَقَدْ ذَكَرَتِ الْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ الْوَعِيدَ فَقَالَتْ : لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَديداً) وقول الحسنِ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.

(٠/٠)

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَماَّ عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ } ؛ أي أبَوا أن يرجِعُوا عن المعصيةِ ، والعَاتِي هو شديدُ الدُّخولِ في الفسادِ الْمُتَمَرِّدُ الذي لا يقبلُ الموعظةَ. وقولهُ تعالى : { قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ } ؛

أي مَطْرُودِينَ مُبعَدِينَ عن كلِّ خيرٍ ، مِن قولهم : خَسَّأْتُ الْكَلْبَ إذا قلتُ له : اخْسَأْ على الطردِ له. قال ابنُ عبَّاس : (يَا لَهَا مِنْ أكْلَةٍ مَا أوْخَمَهَا أنْ مُسِخُواْ قِرَدَةً فِي الدُّنْيَا وَفِي الآخِرةِ النَّارُ).

وعن الضحَّاك قال : (أَلْقَى اللهُ فِي فِكْرِ النَّاهِينَ حَتَّى بَاعُوا الدُّورَ وَالْمَسَاكِنَ ، وَخَرَجُواْ مِنَ الْقَرْيَةِ ، فَضَرَبُواْ الْخِيَامَ خَارِجاً مِنْهَا ، فَأَقْبَلَ الْعَذابُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ، فَبَدَأ الْمَسْخُ مِنَ الرَّأسِ حَتَّى صَارَتْ لَهُمْ أذْنَابٌ كَأَذْنَاب الْقِرَدَةِ ، فَكَانَ النَّاهُونَ لاَ يَرَوْنَ أحَداً يَخْرُجُ مِنَ الْقَرْيَةِ ، قَالُواْ : لَعَلَّ الْقَوْمَ قَدْ خُسِفُواْ أوْ رُمُواْ بِحِجَارَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ، فَحَمَلُواْ رَجُلاً مِنْهُمْ عَلَى سُلَّمٍ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ ، فَإذا هُمْ قِرَدَةٌ لَهُمْ أذْنَابٌ ، فَصَاحَ فَقَالَ : إنَّ الْقَوْمَ قَدْ صَارُوا قِرَدَةً ، فَكَسَرُواْ الْبَابَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ مَنَازلَهُمْ فَإذا هُمْ يَبْكُونَ وَيَضْرِبُونَ بالأَذْنَاب ، يُعْرَفُ الرَّجُلُ مِنَ الْمِرْأَةِ ، فَقَالُوا لَهُمْ : أَلَمْ نَنْهَكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ؟ فَأَشَارُواْ برُؤُوسِهِمْ : بَلَى ؛ وَدُمُوعُهُمْ تَسِيلُ عَلَى خُدُودِهِمْ).

قال أنسُ بن مالكٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّهُ سُئِلَ : هَلْ فِي أُمَّتِكَ خَسْفٌ ؟ قَالَ : " نَعَمْ " قِيلَ : وَمَتَى ذلِكَ يَا رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ : " إذا لَبِسُواْ الْحَرِيرَ ، وَاسْتَبَاحُواْ الزِّنَا ، وَشَرِبُواْ الْخُمُورَ ، وَطَفَّفُواْ الْمِكْيَالَ والْمِيزَانَ ، وَاتَّخَذُوا الْقَيْنَاتِ وَالْمَعَازِفَ ، وَضَرَبُواْ بالدُّفُوفِ ، وَاسْتَحَلُّوا الصَّيْدَ فِي الْحَرَمِ ".

وقال عكرمةُ : (جِئْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَبْكِي وَالْمُصْحَفُ فِي حِجْرِهِ ، فَقُلْتُ : مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ : هَؤُلاَءِ الْوَرَقَات ، فَإذا هِيَ سُورَةُ الأَعْرَافِ ، فَقَالَ : أَتَعْرِفُ إيلَةَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قالَ : كَانَ بهَا حَيٌّ مِنَ الْيَهُودِ فِي زَمانِ دَاوُدَ ، حُرِّمَ عَلَيْهِمْ صَيْدُ الْحِيتَانِ ، وَاخْتَارُواْ السَّبْتَ فَابْتُلُواْ فِيْهِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ فِيْهِ الصَّيْدُ ، وَأُمِرُواْ بتَعْظِيمِهِ إنْ أطَاعُواْ أُجِرُواْ ، وَإنْ عَصَوا عُذِّبُواْ.

وَكَانَتِ الْحِيتَانُ تَأتِيهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعاً بيْضاً سِمَاناً كَأَنَّهَا الْكِبَاشُ تَنْطَحُ ، وَيَوْمَ لاَ يَسْبتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ، فَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ، وَقَالَ : إنَّما نُهِيتُمْ عَنْ أخْذِهَا يَوْمَ السَّبْتِ ، فَاتَّخَذُوا الْحِيَاضَ وَكَانُواْ يَسُوقُونَ إلَيْهَا الْحِيتَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَتَبْقَى فِيْهَا وَلاَ أخَذُوا وَأكَلُواْ وَعَبَّوا وَكَثُرَ مَالُهُمْ ، فَلَعَنَهُمْ دَاوُدُ عليه السلام فَأَصْبَحُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ). وقال قتادة : (صَارَ الشَّبَابُ قِرَدَةً ، وَالشُّيُوخُ خَنَازِيرَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِعَذَابٍ بَئِيسٍ }[الأعراف : ١٦٥] أي شَدِيدٍ وَجِيعٍ ، قرأ أهلُ المدينةِ بكسرِ الباء وجزمِ الياء من غيرِ همزٍ ، وقرأ ابنُ عامر كذلكَ إلا أنَّه بهمزة ، وقرأ عاصمُ في روايةِ أبي بكر بالفتحِ وجزم الياء وفتح الهمزة على وزنِ فَيْعَلٍ مثل صَيْقَلٍ ؛ وقرأ أهلُ البصرةِ (بَئِيسٍ) بفتحِ الباء وكسرِ الهمزة على وزن فعيلٍ ، وقرأ الحسن (بيسٍ) بكسرِ الباء وفتح السِّين على (بيسَ الْعَذاب) ، وقرأ مجاهدُ (بَايسٍ) على وزن فاعِلٍ ، وقرأ أبو إياس بفتحِ الباء والياء من غير همزٍ ، وقرأ الباقون (بَئِيسٍ) على وزن فَعِيلٍ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } ؛ معناهُ : وإذْ عَلِمَ ربُّك ، وقد يأتي تَفْعَّلَ بمعنى أفْعَلْ يقالُ : أوْعَدَنِي وتَوَعَّدَنِي ومعناهما واحدٌ ، وَقِيْلَ : معنى (تَأَذنَ) أقسمَ ربُّكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ } أي ليبعثنَّ على مَن يبقَى منهم مِن الذين لا يُؤمنون مِن بعدِهم الجزيةَ والقتلَ فبَعَثَ اللهُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم وأُمَّته فوضَعُوا عليهم الجزيةَ إلى يومِ القيامة ، وفي هذه الآيةِ دلالةٌ على أنَّ اليهودَ لا تُرفع لهم رايةُ عزٍّ إلى يومِ القيامة.
وقولهُ تعالى : { إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ } ؛ يجوزُ أن يكون المرادُ به عقوبةَ الآخرةِ وكلُّ آتٍ قريبٌ ، ويجوزُ أنْ يكون المرادُ به أنه سريعُ العقاب لِمَن شاءَ أن يُعاقِبَهُ في الدُّنيا. وقولُه تعالى : { وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ؛ أي لِمَن تابَ عن الكُفرِ والمعاصي.

(٠/٠)

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً } ؛ معناهُ : وفرَّقنَا اليهودَ في البلادِ تَفريقاً شَديداً استثنَى أمرَهم فليس لهم مكانٌ يجتَمعون فيه ، ولا يُمكِنُهم الْمُقَامُ في موضعٍ إلاَّ على ذُلٍّ بالقتلِ والجزية.
قَوْلُهُ تَعَالَىَ : { مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ } ؛ أرادَ بالصَّالِحين مُؤمني أهلِ الكتاب ، وَقِيْلَ : أرادَ بهم وراءَ نَهرِ أرْدَاف ، بمعنى الذين وراءَ رملِ عالِج من قومِ مُوسَى الذين ذكَرْنا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسْرِيَ بِهِ مرَّ بهم ، وقد ذكرنا في ما تقدَّم. وقوله تعالى : { وَمِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ } أرادَ به الكفارَ منهم كأنَّهُ قال : ومنهمُ الصَّالِحون ومنهم سِوَى الصالحين. وَقِيْلَ : معناهُ : ومنهم دون ذلك هم رملِ عالِج يعني الذين هم في هذه البلادِ من اليهود.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ } ؛ أي اختبرنَاهم بالْخِصَب والجدب ، { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ، من الكُفرِ إلى الإيمان.

(٠/٠)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ } ؛ أي خَلَفَ مِن بعد هؤلاءِ الذين قطَّعناهم في الأرضِ ذرِّيةُ سُوءٍ ، وهم الذين أدركَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، قال ابنُ الأعرابي : (الْخَلَفُ بفَتْحِ اللاَّمِ الصَّالِحُ ، وبإسكانِ اللام الطَّالِحُ) ، قال لَبيدٌ : ذهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيْتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبومنهُ قيلَ لرَدِّ الكلامِ خِلْفٌ ، ومنه المثلُ السائر (سَكَتَ أَلْفاً وَنَطَقَ خَلْفاً) ، قال النَّضِرُ بنُ شُمَيلٍ : (الْخَلَفُ بِفَتْحِ اللاَّمِ وَإِسْكَانِهَا فِي الْقَرْنِ السُّوءِ ، وَأَمَّا الْقَرْنُ الصَّالِحُ فَتَحْرِيكُهَا لاَ غَيْرَ ، قَالَ الشَّاعِرُ : إنَّا وَجْدَنَا خَلْفَنَا بئسَ الْخَلْفِ عَبْداً إذا مَا نَاءَ بالْحِمْلِ خَضَفْوقال محمَّد بن جرير : (أَكْثَرُ مَا جَاءَ فِي الْمَدْحِ بفتحِ اللاَّمِ ، وَفِي الذمِ بِتَسْكِينِهَا ، وقد تُحرَّكُ في الذمِّ ويُسَكَّنُ في المدحِ. قال حسَّانٌ في المدحِ : لَنَا الْقَدَمُ الأُوْلَى إلَيْكَ وَخَلْفُنَا لأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابعُقال : (وَأَحْسَبُهُ فِي الذمِّ مَأْخوذٌ مِنْ خَلْفِ اللَّبَنِ إذا حَمِضَ مِنْ طُولِ تَرْكِهِ فِي السِّقَاءِ حَتَّى يَفْسَدَ ، وِمِنْهُ قَوْلُهُم : خَلْفُ فَمِ الصَّائِمِ ؛ إذا تَغَيَّرَتْ ريحُهُ وَفَسَدَتْ ، فَكَأَنَّ الرَّجُلَ الْفَاسَدَ مُشَبَّهٌ بِهِ). والحاصلُ أنَّ كُلاً منهما يُستعملان في الشرِّ الخيرِ ، إلاَّ أنَّ أكثرَ الاستعمالِ في الخيرِ بالفتحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَرِثُواْ الْكِتَابَ } أي التَّوراة ، والميراثُ ما صارَ للباقي من جهةِ البَادِي كأنه قال فخَلَفَ من بعدِ الهالِكين منهم خَلْفٌ وَرِثُوا الكتابَ. وقولهُ تعَالى : { يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَاذَا الأَدْنَى } ؛ يعني به أخْذُ الرَّشوةِ في الْحُكمِ ؛ لتغيِّر الحقَّ إلى الباطلِ. وقال بعضُهم : كانوا يحكِمُون بالحقِّ لكن بالرَّشوة ، وإنما سُمي متاعُ الدنيا عَرَضاً لقلَّة بقائهِ كأنه يعرضُ فيزول. قَالَ اللهُ تَعَالَى : { هَاذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا }[الأحقاف : ٢٤] أرادَ بذلك السَّحابَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا } ؛ أي يقولون مع أخذِهم الرَّشوة أنه سيُغفَرُ لنا ذلك ، وما عمِلناهُ باللَّيل كُفِّرَ عنا بالنهار ، وما علمناهُ بالنهار كُفِّرَ عنا بالليلِ ، { وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } ؛ معناهُ : وإنْ عرضَ لهم ذنبٌ آخر عَمِلُوهُ ، وفي هذا بيانُ أنَّهم كانوا يُصِرُّونَ على الذنب وأكلِ الحرام ، وكانوا يستَغفِرُونَ مع الإصرار ، فكيف يُغفَرُ لهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ } ؛ معناهُ : أَلَمْ يُؤخذ عليهم الميثاقُ في التَّوراةِ ألاَ يقولوا على اللهِ إلا الصِّدقَ ، وكان في التوراةِ أنَّ مَن ارتكبَ ذنباً عظيماً لَمْ يُغفر له بالتوبةِ ، { وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ } ؛ فكانوا يدرسون ما في التَّوراةِ ، ويذكرون ما أُخذ عليهم من المواثيقِ ، يقولون مع إصرارِهم على الذُّنوب : سيُغفَرُ لنا.

وقال الحسنُ : (مَعْنَى الآيَةِ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَأْخُذُونَ الدُّنْيَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ حُرِّمَ عَلَيهِمْ وَيُمْنَعُونَ كُلَّ حَقٍّ ، وَيُنْفِقُونَ فِي كُلِّ سَرَفٍ ، وَيَتَمَنَّونَ مَعَ هَذِهِ الأَشْيَاءِ عَلَى اللهِ الأَمَانِيَّ ، وَيَقُولُونَ : سَيُغْفَرُ لَنَا ، وإِنْ يأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ كَمَا أَخَذُواْ ، أَلَمْ يَعْرِفُواْ فِي الْكِتَاب خِلاَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ). وقرأ السلميُّ : (وَادَّارَسُوا فِيْهِ مِثْلَ ادَّارَكُواْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ } ؛ أي يتَّقونَ المعاصي والشِّرك وأكلِ الحرامِ ، { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } ؛ ما يَدرُسون في كتابهم ، وَقِيْلَ : أفلاَ يعقِلُونَ أن الإصرارَ على الذنب ليس من علامةِ المغفور لَهم.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ } ؛ معناهُ : والذين يعمَلون بما في كتاب الله ، قال مجاهدُ : (هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ يُمْسِكُونَ بالْكِتَاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ، لاَ يُحَرِّفُونَهُ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ ، أَحَلُّواْ حَلاَلَهُ وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ ، وَلاَ تَتَّخِذُونَهُ مَأْكَلَةً ، نَزَلَتْ فِي عَبْدِاللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَأَصْحَابِهِ).

وقال عطاءُ (يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم). قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ) أي عَمِلُوا الصالحاتِ ، إلاَّ أَنَّهُ خَصَّ الصَّلاةَ بالذِّكرِ لِعظَمِ شأنِها ، وقولُه تعالى : { إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ } ؛ أي نُعطِيهِ أجرَهم في القولِ والعمل.

(٠/٠)

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ } ؛ معناهُ : واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذْ قَلَعْنَا الجبلَ من أصلهِ فجعلناهُ كالظُّلَّةِ فوقَ رأسِ بني إسرائيل ، وكلُّ شيء اقتلعتَهُ فقد نَتَقْتَهُ ، ومنه نَتَقَتِ المرأةُ إذا أكثرَتِ الولَدَ ؛ أي اقتلَعَتْ ما رَحِمِهَا من ولدِها ، وامرأةٌ مِنْتَاقٌ إذا كانت تكثرُ الولدَ.

وقال مجاهدُ : (نَتَقْنَا الْجَبَلَ ؛ أيْ قَطَعْنَا الْجَبَلَ). وقال الفرَّاءُ : (عَلَّقْنَا). وقال بعضُهم : أصلُ النُّتُوقِ

وَالنَّتْقِ أنْ تقطعَ الشيءَ من موضعِهِ فترمِي به ، وقال أبانُ بن ثعلبةَ : (سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَب يَقُولُ لِغُلاَمِهِ خُذِ الْجُوَالِقَ وَانْتُقْهُ ؛ أيْ نَكِّسْهُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ }. قال عطاءٌ (كَأَنَّهُ سَقِيفَةٌ ، وَالظُّلَّةُ كُلُّ مَا أظَلَّكَ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ } ؛ أي ظَنُّوا أنه ساقطٌ عليهم لارتفاعِهِ فوقَهم ، وكان السببُ في رفعِهِ فوقَهم أنه لَمَّا شقَّ عليهم ما كان في التوارةِ من المواثيقِ ، وخَافُوا أن لا يُمكِنَهم الوفاءُ به امتَنَعُوا عن التزامِهِ ، فرفعَ اللهُ الجبلَ فوقَهم.

وقولهُ تعالى : { خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ } ؛ أي وقُلنا لَهم خذُوا ما آتينَاكُم بقوَّة ، أي اعمَلُوا به بجِدٍّ ومواظبةٍ في طاعةٍ ، { وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أيْ ما في الكتاب الذي أعطينَاكُم من عِظَةٍ وجزاءٍ لكي تتَّقُوا المعاصيَ ، وكان دَكّاً حين أبَوا أنْ يَقْبَلُوا أحكامَ التَّوراة ويعمَلُوا بما فيها ، وكانت شريعةً ثَقيلةً فرفعَ اللهُ عليهم جَبَلاً على مقدارِ عسكَرِهم ، وَكانوا فَرْسَخاً في فَرْسَخٍ ، وَقِيْلَ لَهم : إنّ قَبلْتُمْ ما فيها وإلاَّ لَنُوقِعَنَّهُ عَلَيْكُمْ.

قال الحسنُ : (فَلَمَّا نَظَرُوا إلَى الْجَبَلِ ، خَرَّ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ سَاجِداً عَلَى حاجِبِهِ الأَيْسَرِ ، وَنَظَرَ بعَيْنِهِ الْيُمْنَى إلَى الْجَبَلِ خَوْفاً أنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ ، فَلِذلِكَ لَيْسَ فِي الأَرْضِ يَهُودِيٌّ إلاَّ وَهُوَ يَسْجُدُ عَلَى حَاجِبِهِ الأَيْسَرِ ، وَيَقُولُونَ : هَذِهِ السَّجْدَةُ الَّتِي رُفِعَتْ بهَا عَنَّا الْعُقُوبَةُ).

(٠/٠)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى } ؛ قال المفسِّرون : لَمَّا خلقَ اللهُ آدمَ مَسَحَ ظهرَهُ ، وأخرجَ منه ذُرِّيَّتَهُ كلَّهم كهيئَةِ الذرِّ ، واختلفوا في موضعِ الميثاق ، فقال ابنُ عبَّاس : (هُوَ بَطْنُ نُعْمَانَ وَادٍ جَنْبَ عَرَفَةَ) ، وَقِيْلَ : هي أرضُ الهندِ ، وقال الكلبيُّ : (هُوَ مَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ).

وقال السديُّ : (أخْرَجَ اللهُ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَمْ يُهْبِطْهُ إلَى الأَرْضِ ، فَأَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ ذُرِّيَّتَهُ وَكُلُّ مَنْ هُوَ خَارِجٌ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فأَخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُمْنَى ذُرِّيَّةً صَغَاراً بيْضاً مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ برَحْمَتِي ، وَأخْرَجَ مِنْ صَفْحَةِ ظَهْرِهِ الْيُسْرَى ذُرِّيَّةً سُوداً ، وَقَالَ لَهُمْ : أُدْخُلُواْ النَّارَ وَلاَ أُبَالِي).

فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَآ أَصْحَابُ الْيَمِينِ }[الواقعة : ٢٧] ، { فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَآ

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَآ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ }[الواقعة : ٨-٩] ، وركَّب فيهم جميعَ العقُولِ حتى سَمِعُوا كلامَ اللهِ وفَهِمُوا خطابَهُ ، فقال لَهم : اعلَمُوا أنه لا إلَهَ غَيْري ، ولا ربَّ لكم سِوَايَ ، فلا تُشرِكُوا بي شيئاً ، وأنِّي مُرسِلٌ إليكم رسُلاً يذكِّرونكم عَهدِي وميثاقي ومنَزِّلٌ عليكم كِتَاباً فَتَكَلَّموا ألستُ بربكم ؟ فقالوا : بلَى ، شهِدْنا أنَّك ربُّنا وإلَهُنا لا ربَّ غيرُكَ. فأقَرُّوا كلُّهم طائعين ، وأخذ بذلك ميثاقَهُم وكتبَ آجالَهم وأرزاقَهم ومُصابَهم.

فنظرَ إليهم آدمُ عليه السلام فرأى فيهم الغنِيَّ والفقيرَ ، وحسَنَ الصُّورة وغير ذلك ، فقال : يا رب لو شِئْتَ سوَّيتَ بينهم ، قال : ونظرَ إلى الأنبياءِ بينهم يومئذ مثل السُّرُجِ ، فلما أخذ عليهم الميثاقَ ردَّهم إلى صُلب آدمَ ، فالناسُ محبوسون في أصلابِ آبائهم حتى يخرجَ كلُّ من أخرجَهُ في ذلك الوقتِ ، وكلُّ مَن ثبتَ على الإسلامِ فهو على الفطرةِ الأُولى ، وكلُّ مَن جَحَدَ وكفَرَ ، فإنَّما تغيَّرَ عنها ، ومنه قولهُ صلى الله عليه وسلم : " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُوِّدَانِهِ وَيُنْصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ ، حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانُهُ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً " فَلا تقومُ الساعة حتى يولدَ كلُّ مَن أخذ ميثاقهُ ، لا يزيد فيهم ولا ينقصُ منهم.

وتقديرُ الآية : وإذْ أخذ ربُّك من ظهورِ بني آدم ذرِّياتِهم ، ولَمْ يذكُرْ ظهرَ آدم ، وإنَّما أُخرِجُوا يومَ الميثاق من ظهرِهِ ؛ لأنه أخرجَ ذرِّيةَ آدمَ بعضُهم من ظهرِ بعض على نحو ما يتولَّدُ الأبناءُ من الآباءِ ، فاستغنَى عن ذكرِ ظَهْرِ آدمَ بقولِهِ : { مِن بَنِي ءَادَمَ } ؛ لأنه قد عُلِمَ أنَّهم كلُّهم بنوهُ ، وأُخرجُوا من ظهرِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { شَهِدْنَآ } ؛ يجوزُ أن يكون هذا مِن قول الذينَ أُخِذ عليهم الميثاقُ. ثُم ابتدأ فقال تعالى : { شَهِدْنَآ } { أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَاذَا غَافِلِينَ } ؛ ويجوز أنْ يكون تَمامُ الكلامِ عند قوله : { بَلَى } ثم يقولُ الله تعالى : شَهِدنَا عليكم ، وأخَذْنَا الميثاقَ كَيْلاَ يقولُوا يومَ القيامةِ : { إِنَّا كُنَّا عَنْ هَاذَا غَافِلِينَ } أي عن هذا الميثاقِ والإقرارِ.

(٠/٠)

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ } ؛ أي ولِكَيلاَ تقولوا إنمَا أشركَ آباؤُنا من قبلُ ، وكنَّا ذرِّية من بعدِهم فاتَّبعنَاهُم ؛ لأنَّا قد جعلنا في عقولِكم ما يمكِّنُكم أنْ تعرِفُوا به صحَّةَ ما كان عليه آباؤُكم وفسادَهُ. وقولهُ تعالى : { أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } ، أي آباؤُنا المشركون ، يقالُ لَهم : لا نُهلِكُكم بما فَعَلَ آباؤُكم ، وإنَّما نُهلِكُكم بما فعلتُم أنتُمْ.

فإن قِيْلَ كيف يكون الميثاقُ حُجَّةً عليهم – أي على الكفَّار منهم – وهم لا يَذكُرونَ ذلك حين أخرَجَهم من صُلب آدمَ ؟ قِيْلَ : لَمَّا أرسَلَ اللهُ الرُّسلَ ، فأخبرُوهم بذلك الميثاقِ ، وصارَ قولُ الرُّسل حُجَّةً عليهم.

قوله : (ذُرِّيَّاتُهُمْ) قرأ أهلُ مكَّة وأهلُ الكوفةَ (ذُرِّيَّتَهُمْ) بغيرِ ألف ، وقرأ الباقون بالألف على الجمعِ ، وقولُه تعالى : { أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ }[الأعراف : ١٧٢] { أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ } قرأ أبو عمرٍو بالياء ، وقرأ الباقون بالتَّاء فيهما.

(٠/٠)

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَكَذالِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ } ؛ أي هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ كما بيَّنَّاها في أمرِ الميثاق ، و { نُفَصِّلُ الآيَاتِ } ذِكْرُ آيةٍ بعدَ آيةٍ من الموعظة والمعصيَةِ والوعد والوعيدِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } ؛ أي لِكَي يَرْجِعُوا عن الكفرِ إلى الإيمان ، والمعنى : ليعلَمُوها مفصَّلةً ولعلَّهم يرجعون.

(٠/٠)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)

وقولهُ تعالى : { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا } ؛ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعودٍ : (نَزَلَتْ فِي بَلْعَمَ بْنِ بَاعُورَا) ، قال مجاهدُ : (وَيُقَالُ لَهُمْ : بَلْعَمُ بْنُ بَاعِر) ، وقال مقاتلُ : (وَيُقَالُ لَهُ أيْضاً : بَلْعَامُ ، وكان عابداً من عُبَّاد بني إسرائيلَ ، وكان في المدينةِ التي قصدَها موسى عليه السلام ، وكان أهلُ تلك المدينةِ كُفَّاراً ، وكان عندَهُ اسمُ الله الأعظم ، فسألَهُ ملِكُهم أن يدعوَ على مُوسَى بالاسمِ الأعظمِ ليدفعَهُ عن تلك المدينةِ ، فقال لَهم : دِينهُ ودِيني واحدٌ ، وهذا شيءٌ لا يكون ، فكيف ادعُو عليهِ وهو نبيُّ الله ، ومعه الملائكةُ والمؤمنون ، وأنا أعلمُ مِن الله ما أعلمُ ، وإني إنْ فعلتُ ذلك ذهبَتْ دُنياي وآخرَتي ، فلم يزالُوا به يفتنونَهُ بالمالِ والهدايا حتى فَتَنُوهُ فَافْتَتَنَ.

فرَكِبَ أتَاناً له متوجِّهاً إلى جبلٍ ليدعُوَ عليه ، فما سارَ على الأتَانِ إلاَّ قليلاً فرَبَضَتْ فَنزل عنها ، فضربَها حتى كادَ يُهلِكُها ، فقامَتْ فرَكِبَها فرَبَضَتْ ، فضرَبَها فأنطقَها اللهُ تعالى ، فقالت : يا بَلْعَمُ ويحَكَ أين

تذهبُ ؟ ألاَ ترَى إلى هؤلاءِ الملائكة أمَامِي تردُّني عن وجهي ؟ فكيف تريدُ أنْ تذهبَ لتدعوَ على نبيِّ الله عليه السلام وعلى المؤمنين ؟ فخلَّى سبيلَها ، وانطلقَ حتى أتى إلى الجبل وحين وصل إلى الجبلِ ، وجعل يدعُو فكان لا يدعُو بسُوءٍ إلاَّ صرفَ اللهُ لسانَهُ إلى موسَى ، فقال له قومهُ : يا بلعمُ! إنَّما أنتَ تدعو علينا وتدعُو لهم ؟ فقالَ : هذا واللهِ الذي أملِكهُ ، وأنطقَ اللهُ به لسانِي.

ثم امتدَّ لسانهُ حتى بلغَ صدرَهُ ، فقالَ لَهم : قد ذهبَ منِّي الآنَ الدُّنيا والآخرةَ فلم يَبْقَ إلا المكرُ والحيلة ، فسَأَمكُرُ لكم وأحتالُ ، حَلُّوا النساءَ وزيِّنُوهُنَّ وأعطوهن الطّيبَ ، وأرسلُوهنِ إلى العسكر ومُرُوهُنَّ لا تمنعُ امرأةٌ نفسَها من رجلٍ أرادَها ، فإنَّهم إنْ زَنى منهم رجلٌ واحد كُفِيتُمُوهُمْ ، ففعَلُوا.

فلما دخلَ النساءُ العسكرَ مرَّتِ امرأةٌ برجُلٍ من عُظماءِ بني إسرائيل ، فقامَ إليها فأخذها بيدهِ حين أعجبتْهُ بحُسنِها ، ثم أقبلَ بها إلى موسَى وقالَ له : إني لأَظُنُّكَ أنْ تقولَ هذه حرامٌ ؟ قالَ : نَعَمْ هِيَ حَرَامٌ عَلَيْكَ لاَ تَقْرَبْهَا ، قال : فواللهِ لا نطيعُكَ في هذا! ثم دخلَ بها قُبَّتَهُ فوقعَ عليها ، فأرسلَ اللهُ على بني إسرائيل الطاعونَ في الوقتِ.

وكان فِنْحَاصُ بن العيزرا صاحبَ أمرِ مُوسَى ، وكان رجُلاً له بسطَةٌ في الْخَلْقِ وقوَةٌ في البطشِ ، وكان غائباً حين صنعَ ذلك الرجلُ بالمرأةِ ما صنعَ ، فجاء والطاعونُ يَحُوسُ في بني إسرائيلَ ، فأُخبرَ الخبرَ ، فأخذ حَرْبَتَهُ وكانت مِن حديدٍ كلُّها ، ثم دخلَ عليه القبَّة ، فوجدَهما متضاجِعَين فدَقَّهُما بحربتهِ حتى انتظَمَهما بها جميعاً ، فخرجَ بهما يحملُهما بالحربةِ رافعاً بهما إلى السَّماء ، والحربةُ قد أخذها بذراعهِ واعتمدَ بمِرفَقِهِ وأسندَ الحربةَ إلى لِحيته وجعلَ يقولُ : اللَّهُمَّ هكذا نفعلُ بمَن يعصِيكَ ، فرُفِعَ الطاعونُ من حينئذٍ عنهم فحُسِبَ مَن هَلَكَ من بني إسرائيلَ في ذلك الطاعون ، فوجدُوهم سَبعِينَ ألفاً في ساعَةٍ من نَهارٍ وهو ما بين أنْ زَنَى ذلك الرجلُ بها إلى أن قُتِلَ.

(٠/٠)

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا } ؛ أي بالآياتِ بأنْ نُمِيتَهُ على الْهُدَى ونَعْصِمَهُ عن الكُفرِ ونَحُولَ بينَهُ وبين المعصيةِ. وَقِيْلَ : معناهُ : لفَضَّلْنَاهُ وشرفناه ورفعناهُ منْزلةً بالآياتِ. قال مجاهدُ وعطاء : (مَعْنَاهُ : وَلَوْ شِئْنَا رَفَعْنَا عَنْهُ الْكُفْرَ بالآيَاتِ وَعَصَمْنَاهُ ، { وَلَاكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ } ؛ أي ركَنَ إلى الأرضِ) ، وقال مجاهدُ : (سَكَنَ إلى الأَرْضِ) ، وقال مقاتلُ : (رَضِيَ بالدُّنْيَا) ، وَقِيْلَ : مَالَ إلى مسافلِ الأمُور ، وتَرَكَ معالِيَها.

وأصلُ الإخلادِ البقاءُ والإقامَةُ واللُّزومُ على الدوامِ ، كأنه قال : لَزِمَ الْمَيْلَ إلى الأرض ، ليُعجلَ الراحةَ واللَّذاتِ ، يقال : فلانٌ مُخَلَّدٌ ؛ أي بَطِيءُ الشَّيب. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } ؛ أي انْقَادَ لهواهُ ، فلم يرفعْهُ بالآياتِ ، قال عطاءُ : (أَرَادَ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ شَيْطَانَهُ) ، وقال بعضُهم : (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) أي امرأتَهُ ؛ لأنَّها كانت حَمَلَتْهُ على الخيانةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث } ؛ اللَّهْثُ : شِدَّةُ النَّفَسِ عند الإعياءِ ، وهو في الكلب طَبْعٌ ، فإنَّ كلَّ شيءٍ يَلْهَثُ من إعْيَاءٍ وعطشٍ ما خَلاَ الكلبَ ، فإنَّهُ يَلْهَثُ في الأحوال كلِّها ، فإنَّكَ إنْ طَرَدْتَهُ وزجرتَهُ يلهثُ ، وإن تَرَكْتَهُ يلهثُ ، فكذلك الكافرُ إنْ وَعَظْتَهُ وزَجرتَهُ لَمْ يتَّعِظْ ، وإنْ تركتَهُ لَمْ يَعْقِلْ ، وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ أَنَّ الْكَافِرَ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ الْحِكْمَةَ لَمْ يَحْمِلْهَا ، وَإِنْ تُرِكَ عَنْهَا لَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهَا ، كَالْكَلْب إِنْ كَانَ رَابضاً لَهَثَ ، وَإِنْ طُرِدَ لَهَثَ).

وَقِيْلَ : هو المنافقُ لا يُنيبُ إلى الحقِّ دُعِيَ أم لَمْ يُدْعَ ، وُعِظ أو لَمْ يُوعَظْ ، كالكلب يلهثُ تُرِكَ أو طُرِدَ ، وكذلك الكافرُ إنْ وعظتَهُ فهو ضالٌّ ، وإنْ تركتَهُ فهو ضالٌّ كالكلب ، ونظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ }[الأعراف : ١٩٣].

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ أي ذلك صفةُ المكَذِّبين بآياتنا ، { فَاقْصُصِ الْقَصَصَ } ؛ أي أقْصُصْ عليهم أخبارَ المنافقين ؛ ليعتبرُوا بهم فلا يَسلِكُوا مسالِكَهم. وقوله تعالى : { لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ؛ أي رجاءَ أن لا يتفكَّروا.

(٠/٠)

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } ؛ أي بئْسَ الوصفُ وصفُ القومِ كذبُوا بآياتِنا ، وهذا السُّوء إنما يرجعُ إلى فعلِهم لا إلى نفسِ الْمَثَلِ ، كأنهُ قال : ساءَ فعلُهم الذي جلبَ إليهم الوصفَ القبيحَ ، فأمَّا المثَلُ من اللهِ فحكمةٌ وصواب ، و { مَثَلاً } منصوبٌ على التمييزِ ، أي ساءَ المَثَلُ مَثَلاً : قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ } ؛ أي إنما يَصرِفُونَ أنفُسَهم لمعصيتِهم ، واللهُ تعالى لا تضرُّه معصيةُ العاصِين ، ولا تنفعهُ طاعةُ المطيعين.

(٠/٠)

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي } ؛ أي مَن يُوَفِّقْهُ اللهُ لدينهِ فهو المهتدي مِن الضَّلالةِ ، { وَمَن يُضْلِلْ } ؛ خَذَلَهُ عَنْ دِينه ، { فَأُوْلَـائِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ؛ الْمَغْبُونُونَ بعقوبةِ الآخرةِ.

(٠/٠)

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ } ؛ وقال ابنُ عباس : (مَعْنَاهُ : وَلَقَدْ خَلَقْنَا لِجَهَنَّمَ أَهْلاً) ، { لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا } ؛ الْخَيْرَ ، { وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا } ؛ الْهُدَى ، { وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ } ؛ الْحَقَّ ، { أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ } ؛ في المأْكَلِ والْمَشْرَب ، والذِّهنِ لا في الصُّوَرِ ، { بَلْ هُمْ أَضَلُّ } ؛ لأنَّ الأنعامَ مطيعةٌ لله تعالى ، والكافرَ غيرُ مطيعٍ. وقولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } ؛ أي عن ما ينفعَهُم وعن ما يحِلُّ لهم في الآخرةِ.
وَقِيْلَ : إنَّ اللامَ في قوله : { لِجَهَنَّمَ } لامُ العاقبةِ ، يعني أنَّ عاقبَتهم إلى المصيرِ إلى جهَّنم ، وهذا كما قال تعالى : { فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً }[القصص : ٨] أي كان عاقبَتُهم أن صارَ لهم عدوّاً وإلاّ فهُم التقطوهُ ليكون لهم قُرَّةَ عَيْنٍ ، كما قال تعالى : { وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ }[القصص : ٩] ، ويقال : لِدُّوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ قال الشاعرُ : أَمْوَالُنَا لِذوي الْمِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَاب الدَّهْر نَبْنِيهَاوقال آخرُ : أَلاَ كُلُّ مَوْلُودٍ فَلِلْمَوْتِ يُولَدُ وَلَسْتُ أَرَى حَيّاً لِحَيٍّ يُخَلَّدُوقال آخرُ : ولِلْمَوْتِ تَغْذُوا الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا كَمَا لِخَرَابِ الدَّهْر تُبْنَى الْمَسَاكِنُوعن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآيةِ قال : " إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا ذرأَ لِجَهَنَّمَ مَا ذرأَ ، كَانَ وَلَدُ الزِّنَا مِمَّنْ ذرأَ لِجَهَنَّمَ "

(٠/٠)

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَللَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ } ؛ سببُ نزول هذه الآية : أن ((رجُلاً)) دعا اللهَ في صلاته ، ودعا الرحمن ، فَقَالَ أبُو جَهْلٍ لَعَنَهُ اللهُ : أليس يزعمُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وأصحابهُ أنَّهم يعبدون رَبّاً واحداً ، فما بالُ هذا يعبدُ ربَّين اثنين؟! فأنْزَلَ اللهُ هذه الآيةَ.

ومعناها : ولله الصفاتُ العُلَى ؛ وهي : الرحمنُ ؛ والرحيمُ ؛ والعزيز ؛ والجبَّارُ ؛ والمؤمِنُ ؛ والمهيمِنُ ؛ والقدُّوس ؛ وأشباهُ ذلك من الصفاتِ التي معانيها (فَادْعُوهُ بهَا) أي بالأسماءِ الْحُسنَى ، لا ينبغِي أن يقولَ : يا سَخِيُّ ؛ يا جَلالُ ؛ يا رفيقُ ، ولكن ليَقُلْ : يا جَوَادُ يا سخِيُّ يا قوِيُّ يا رحيمُ كما وصفَ بها نَعْتَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ } أي يُكذِّبون ، وقال قتادةُ : (يُشْرِكُونَ) ، وقال عطاءُ : (يُضَاهُونَ) وقال ابنُ عبَّاس : (إلْحَادُهُمْ فِي أسْمَاءِ اللهِ أنَّهمْ عَدَلُواْ بهَا عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ ، فَسَمَّواْ بهَا أوْثَانَهُمْ وَزَادُوا فِيْهَا وَنَقَصُواْ مِنْهَا ، واشْتَقُّوا اللاَّتَ مِنَ اللهِ ؛ وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ ؛ وَالْمَنَاةَ مِنَ الْمَنَّانِ).

قرأ الأعمشُ وحمزة (يَلْحَدُونَ) بفتح الياء والحاءِ هنا وفي النحلِ وفي حم ، وقرأ الباقون بضمِّ الياء وكسرِ الحاء وهما لُغتان فصِيحَتان. والإلحادُ : هو الْمَيْلُ عن القَصْدِ ، ورُوي عن الكسائيِّ أنه الذي في النحلِ بفتح الياءِ والحاء ، والذي في الأعراف وحم بالضمِّ ، وكان يفرِّقُ بين الإلحاد فيقولُ : (الإلْحَادُ : الْعُدُولُ عَنِ الْقَصْدِ ، وَاللُّحُودُ : الرُّكُونُ) ويزعمُ أن الذي في النحلِ بمعنى الرُّكون. قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } ؛ وعيدٌ لَهم على الكُفرِ والتكذيب.

(٠/٠)

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعَالَى{ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ }[الأعراف : ١٥٩] قَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : ذَكَرَ اللهُ هَؤُلاءِ الرُّهْطَ بالْخَيْرِ الْجَسِيمِ ، وَإنْ آمَنُوا بكَ وَصَدَّقُوكَ جَعَلَ اللهُ لَهُمْ أجْرَانِ ، وَلَنَا أجْرٌ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ صَدَّقْنَا بالْكُتُب وَبالرُّسُلِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ } يَعْنِي أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، لاَ يَخْلُوا الزَّمَانُ مِنْ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ عُلَمَاء أتْقِيَاء يَدْعُونَ النَّاسَ إلَى الْحَقِّ).

(٠/٠)

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ } أي الذين كَذبُوا بدَلائِلِنا سنَحُطُّهم إلى العذاب درجةً إلى أن يبلغُوا إلى العذاب ، وقال عطاءُ : (سَنُمَكِّنُ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ). وقال الكلبيُّ : (نُزَيِّنُ لَهُمْ أعْمَالَهُمْ فَنُهْلِكُهُمْ). وقال الضحَّاك : (كُلَّمَا جَدَّدُواْ لَنَا مَعْصِيَةً جَدَّدْنَا لَهُمْ نِعْمَةً). وقال الخليل : (سَنَطْوِي عُمْرَهُمْ فِي اغْتِرَارٍ مِنْهُمْ).
وقالَ أهلُ المعاني : الاستدراجُ : أن تندرجَ إلى الشيءِ في خِفْيَةٍ قَلِيلاً قَلِيلاً ، ولاَ يُتَابَعُ ولا يُجاهَر ، يقال : اسْتَدْرِجْ فُلاناً حتى نعرفَ ما صنعَ ؛ أي لا تُجَاهِرْهُ ولا تُكثِرْ عليه السُّؤالَ دُفعةً واحدةً ، ولكن كَلِّمْهُ درجةً درجة وقليلاً قليلاً حتى نعرفَ حقيقة ما فَعَلَ. وَقِيْلَ : معنى قوله { سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ } سنُذِيقُهم مِن بأْسِنا قليلاً قليلاً.

(٠/٠)

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } ؛ أي أمهِلُهم وأطِيلُ لَهم المدةَ ، فإنَّهم لا يفُوتُونَنِي ولا يَفُوتُنِي عذابُهم ولا يُعجِزُنَنِي عن تعذيبهم. وقوله : { إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ } إنَّ صُنعِي شديدٌ مُحكَم ، وأخْذِي قويٌّ شديد. والكَيْدُ : هو الإَصرارُ بالشَّيء من حيث لا يشعرُ به.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ } ؛ قال الحسنُ وقتادةَ : (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله

عليه وسلم صَعَدَ الصَّفَا ذاتَ لَيْلَةٍ يَدْعُو قُرَيْشاً إِلَى عِبَادَةِ اللهِ قَبِيلَةً قبيلَةً وَفَخْذاً فَخْذاً : يَا بَنِي فُلاَنٍ ، يُحَذِّرُهُمْ بَأْسَ اللهِ وَعِقَابَهُ ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ جُنَّ ؛ بَاتَ لَيْلَهُ يُصَوِّتُ إِلَى الصَّبَاحِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ). ومعناها : أَوَلَمْ يتفكَّرُوا بقُلوبهم ليعلَمُوا ويَستَيقِنُوا ما بمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم من جُنُونٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ } ؛ أي ما هو إلاَّ يعلمُ لموضعِ الْمَخَافَةِ لِيُتَّقى ولموضعِ الأمنِ لِيُبتَغَى. وقوله تعالى : { مُّبِينٌ } أي بَيِّنٌ أَمْرُهُ ؛ فهلاَّ جالَسَهُ الكفارُ فيطلبوا حقيقةَ أمرِهِ ، ويتفكَّروا في دلائلهِ ومُعجزاتهِ.

(٠/٠)

أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ } معناهُ : أَوَلَمْ ينظُرُوا في السَّموات والأرض طالِبينَ لِمَا يدُلُّهم على وحدانيَّة اللهِ تعالى ، وعلى صدقِ رسوله في ما دعاهم إليه. والْمَلَكُوتُ : هو الْمُلْكُ العظيمُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ } معناهُ : وما خلقَهُ اللهُ بعدَ السَّمواتِ والأرضِ ، فإن ذلك يدلُّ على وحدانيَّة اللهِ تعالى مثلَ ما تدلُّ السمواتُ والأرض. (مَا) بمعنى الَّذِي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ } ؛ معناهُ : أَوَلَم ينظرُوا في أنْ عسى أنْ يكون قد دَنَا هلاكُهم بعد قيام الحجَّة عليهم. وقولهُ تعالى : { فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ } ؛ معناهُ : إنْ لم يُؤمِنوا بهذا القرآنِ مع وضُوحِ دَلالَتهِ فبأَيِّ حديثٍ بعدَهُ يؤمنون ، وليس بعدَهُ كتابٌ منَزَّل ولا نبيٌّ مرسلٌ.

(٠/٠)

مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ } ؛ إليه ، وقولهُ تعالى : { وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } ؛ أي ونَدَعُهم في مُجاوزَتِهم الحدَّ في كُفرِهم يتجرَّأُون فلا يرجعون إلى الحقِّ ، ومَن قرأ (وَنَذَرُهُمْ) بالنون

وضمِّ الراء فهو على الاستئنافِ ، وتُقرأ (وَنَذرْهُمْ) بالجزمِ عطفاً على موضعِ الفاء ، والمعنى : مَن يُضْلِلِ اللهُ يذره في طُغيانِهِ عامِهاً.

(٠/٠)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا } ؛ قال الحسنُ وقتادة : (سَأَلَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم : مَتَى السَّاعَةُ الَّتِي تُخَوِّفُنَا بهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ) ، ومعناها : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ } أي أوَانِ قِيَامِهَا ومتَى مَثْبَتُهَا ، يقال : رَسَي الشيءُ يَرْسُو إذا ثَبَتَ ، ومنه الجبالُ الرَّاسِيَاتُ ؛ أي الثابتاتُ ، والْمَرْسَى : مُسْتَقَرُّ الشَّيءِ الثقيلِ ، وقال ابنُ عبَّاس : (سأَلَتْ الْيَهُودُ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم فَقَالُواْ لَهُ : أخْبِرْنَا عَنِ السَّاعَةِ إنْ كُنْتَ نَبيّاً فَإِنَّا نَعْلَمُ مَتَى هِيَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } ؛ أي عِلْمُ قيامِها عند اللهِ سبحانَهُ ، ما لي بها من علمٍ ، { لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } أي لا يَكشِفُها ويُظهِرُها لحينِها إلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وقال مجاهدُ : (أيْ لاَ يَأْتِي بهَا إلاَّ هُوَ) ، وقال السديُّ : (لاَ يُرْسِلُهَا لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ). ووجهُ الامتناعِ عن الإجابةِ عن بيان وقتِها ، أنَّ العبادَ إذا لم يعرِفُوا وقتَ قيامِها كانوا على حذرٍ مِن ذلك ، فيكون ذلك أدعَى إلى الطاعةِ وأزجرُ عن المعصيةِ.

وقولهُ تعالى : { ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ } ؛ قال الحسنُ : (ثَقُلَ وَضْعُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مِن انْتِثَارِ النُّجُومِ وَتَكْوِيرِ الشَّمسِ وَتَسْيِيرِ الْجِبَالِ). وقال قتادةُ : (ثَقُلَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تُطِقُهَا لِعِظَمِهَا). وقال السديُّ : (ثَقُلَ عِلْمُهَا عَلَى أهْلِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ فَلَمْ يُطِيقُوا إدْرَاكَهَا وَكُلُّ شَيْءٍ خَفِيَ فَقَدْ ثَقُلَ ، وَلاَ يَعْلَمُ قِيَامَهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلاَ نَبيٌّ مُرْسَلٌ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً } ؛ أي فُجْأَةً لا يعلمون وقتَ قيامِها ، فتقومُ والرجُ يسقِي ماشيتَهُ ، والرجلُ يُصلِحُ حوضَهُ ، والرجلُ يقيم سلعتَهُ في سُوقهِ ، والرجلُ يخفِضُ ميزانَهُ ويرفعهُ ، والرجل يهوِي بلُقمتهِ في فَمِهِ ، فما يدركُ أنْ يضعَها في فمهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا } ؛ قال الضحَّاكُ ومجاهد : (مَعْنَاهُ كَأَنَّكَ عَالِمٌ بهَا) ، وقال ابنُ عبَّاس : (هَذا عَلَى تَقْدِيمٍ وَتَأْخِيرٍ ، مَعنَاهُ : { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا } أي بَارٌّ لَطِيفٌ بهم من قوله : { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً }[مريم : ٤٧] ، وَقِيْلَ : معناهُ كأنَّكَ فَرِحٌ بمسألتِهم إيَّاكَ ، وَقِيْلَ : معناهُ :

كأنَّكَ حاكمٌ بها ، يقالُ : تَحَافَيْنَا إلى فلانٍ ؛ أي تخاصَمْنا إليه ، والْحَافِي هو الحاكم.
قَوْلُهُ تعَالَى : { قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ } ؛ الفائدةُ في إعادتِه ردُّ المعلومات كلّها إلى اللهِ ، فيكون التكرارُ على وجهِ التأكيد ، وَقِيْلَ : أرادَ بالأول علمَ وقتِها ، وبالثاني علمَ كُنْهِهَا. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ } ؛ أنَّها كائنةٌ وان عِلمَها عندَ اللهِ ، وفي الآيةِ دلالةٌ على بُطلانِ قول مَن يدَّعي العلمَ بمدَّةِ الدُّنيا ، ويستدلُّ بما رُوي أنَّ الدنيا سبعةُ آلاف سنة ؛ لأنه لو كان كذلك كان قيامُ الساعةِ معلوماً ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم : " بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةِ كَهَاتَيِ ْنِ " وَأشَارَ إلَى السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى ، فمعناهُ تقريبُ الوقتِ لا تحديدهُ كما قال تعالى : { فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا }[محمد : ١٨] أي بَعْثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من أشراطِها.

(٠/٠)

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَآءَ اللَّهُ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ أهْلَ مَكَّةَ قَالُواْ : يَا مُحَمَّدُ ألاَ يُخْبِرُكَ رَبُّكَ بالسِّعْرِ الرَّخِيصِ قَبْلَ أنْ يَغْلُوا فَنَشْتَرِيهِ وَنَرْبَحُ فِيْهِ ، وَبالأَرْضِ الَّتِي تُرِيدُ أنْ تُجْدِبَ فَنَرْتَحِلَ عَنْهَا إلَى مَا أخْصَبَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). ومعناها : قُلْ يا مُحَمَّدُ لا أقدرُ على نفعٍ أجُرُّهُ إلى نفسِي ، ولا على ضُرٍّ أدفعهُ عن نفسِي إلا ما شاءَ اللهُ أنْ يُمَلِّكَني بالتمكينِ من ذلكَ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ } ؛ أي لو كنتُ أعلمُ جُدوبَةَ الأرضِ وقحطَ المطرِ لادَّخرتُ من السَّنة المخصبَةِ للسَّنة الْجَدِبَةِ ، { وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ } ؛ الفقرُ. وَقِيْلَ : معناهُ : لو كنتُ أعلمُ متى أموتُ لبادرتُ بالأعمالِ الصالحة قبلَ اقتراب الأجَلِ ، فلم أشتغِلُ بغيرِها ولا بي جنونٌ ولا آفةٌ كما يقولون.
وَقِيْلَ : معناهُ : لو كنت أعلمُ متى السَّاعة لبادرتُ بالجواب عن سؤالِكم ، فإنَّ المبادرةَ إلى جوابِ السائل تكون استكثاراً من الخيرِ وما مَسَّنِيَ التكذيبُ منكم. وقولهُ تعالى : { إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ } ؛ أي ما أنا إلا مُعَلِّمٌ بموضعِ الْمَخَافَةِ ليُتَّقى ولموضعِ الأمن ليُختَارَ ، { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ بالبعثِ.

(٠/٠)

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ } ؛ أي نفس آدمَ ، { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ؛ أي خَلَقَ حَوَّاءَ من ضِلْعٍ من أضلاعهِ ، { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } ؛ أي ليطمئِنَّ إليها ويستأنسَ بها ويأوِي إليها لقضاءِ حاجته منها ، { فَلَماَّ تَغَشَّاهَا } ؛ أي جَامَعَها ، { حَمَلَتْ } ؛ ماءَهُ ، { حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ } ؛ فاستمرَّت بذلكَ الماءِ ؛ أي قامت وقعَدَتْ كما كانت تفعلُ قبلُ وهي لا تدري أنه حَبَلٌ أم لا ، ولم تَكْتَرِثْ بحملِها ، يدلُّ عليه قراءةُ ابنِ عبَّاس : (فَاسْتَمَرَّتْ بهِ). وقال قتادةُ : (مَعْنَى { فَمَرَّتْ بِهِ } مخفَّفاً من الْمِرْيَةِ ؛ أي شكَّتْ أحمَلتْ أم لا.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا } ؛ أي لَمَّا كَبرَ الولدُ في بطنِها وتحرَّكَ وصارت ذاتَ ثُقْلٍ بحملِها وشقَّ عليها القيامُ ، أتَاها إبليسُ في صورةِ رجُل ، فقالَ : يا حوَّاء ما هذا في بطنِكِ ؟ قالت : ما أدري ، قال : إنِّي أخافُ أن يكون بَهِيمةً ، وذلك أوَّلَ ما حَملت ، فقالت ذلك لآدمَ عليه السلام ، فلَم يزَالاَ في هَمٍّ من ذلك.

ثُم عادَ إبليسُ إليها فقالَ : يا حوَّاء أنَا مِن الله بمَنْزِلَةٍ! فإن دعوتُ اللهَ ربي إنساناً تُسَمِّيهِ بي ؟ قالت : نَعَمْ ، قال : فإنِّي أدعُو اللهَ ، وكانت هي وآدمُ يدعُوَان اللهَ ، { لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً } ؛ ولداً حَسَنَ الْخُلْقِ صحيحَ الجوارحِ مثلَنا ، { لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } ؛ لكَ في هذه النعمةِ ، { فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً } ؛ سَوِيّاً صحيحاً أتَاها إبليسُ فقال لها : عهدي! قالت : ما اسمك ؟ قالَ : الحرثُ ولو سَمَّى نفسَهُ فقال عزرائيلَ لعرفتهُ ، ولكنه تسمَّى بغيرِ اسمه فسمته : عبدُ الحرثِ ، ورَضِيَ آدمُ فعاشَ الولدُ أيَّاماً حتى ماتَ.

وهذا لا يصحُّ ؛ لأنَّ حَوْاء وإن لم تكن نَبيَّةً فهي زوجةُ نَبيٍّ ، وفي الآيةِ ما يدلُّ على ذلك ؛ لأن الله تعالى قال : { جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ آتَاهُمَا } ؛ ومثلُ هذه القبائحِ لا يصحُّ إضافتُها إلى الأنبياءِ ، ولأنَّ الله تعالى قالَ : { فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } ؛ ولأن الواحدَ مِنَّا لو أتاهُ مَنْ يعبثهُ على أن يُسَمِّي ولدَهُ عبدَ شمسٍ أو عبدَ العُزَّى أو نحوَ هذا ، لَم يَقْبَلْ ذلك ، ولو أمكنَهُ أن يعاقبَهُ على ذلك فعلَ ، فكيف يجوزُ مثل هذا على آدمَ ؟ وقد رفعَ الله قَدْرَهُ بالنبوَّة.

وقال الحسنُ : (معناهُ : إنَّ اللهَ خَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ وجَعَلَهَا سَكَناً لَهُ ، وَكَذلِكَ حَالُ الْخَلْقِ مَعَ أزْوَاجِهِمْ ، كَأنَّهُ قَالَ : وَجَعَلَ مِنْ كُلِّ نَفْسٍ زَوْجَهَا ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أخْرَى{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً }[الروم : ٢١].

قال الحسنُ : (انْقَضَتْ قِصَّةُ آدَمَ عِنْدَ قَوْلِهِ { لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا } ثُمَّ أخْبَرَ اللهُ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ أنَّهُ تَغَشَّى

زَوْجَتَهُ فَحَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ، فَلَمَّا أَثْقَلَهَا مَا فِي بَطْنِهَا دَعَوا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَشْكُرَنَّكَ ، فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ بعَمَلِهِمَا الَّذِي عَمِلاَهُ بأَنْ هَوَّدَاهُ أَوْ نَصَّرَاهُ أَوْ مَجَّسَاهُ ؛ أي عَلَّمَاهُ شَيْئاً مِنَ الأَدْيَانِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي يَدْعُو إِلَيْهَا إِبْلِيسُ ، وَلِهَذا أَعْظَمَ اللهُ شَأْنَهُ فِي آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ (فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَاد بالآيَةِ آدَمَ وحَوَّاءَ لَقَالَ : عَمَّا يُشْرِكَانِ).

(٠/٠)

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً } ؛ معناه أيُشركون في العبادةِ ما لا يقدرُ على خلقِ شيءٍ يستحقُّ به العبادةَ ، لأن الخلقَ هو الذي يدلُّ على اللهِ ، واللهُ تعالى إنما يستحقُّ العبادةَ على الخلقِ لخلقهِ أصُولَ النِّعم التي لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ ، مثل الحياةِ والسَّمع والبصر والعقل ، فإذا لم تقدر الأصنامُ على خلقِ شيء لم تحسن عبادُتها. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ يُخْلَقُونَ } ؛ معناه : الأصنامُ مخلوقة منحوتةٌ ، وَقِيْلَ : أرادَ به الأصنامَ والعابدِينَ جميعاً.

(٠/٠)

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً } ؛ أي لا يستطيعُ الأصنام دفعَ ضُرٍّ عنهم ، ولا جلبَ نَفْعٍ إليهم ، { وَلآ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ } ، ولا أن تنصُرَ نفسَها بأن تدفعَ عن نفسِها مَن أرادَها بسوءٍ. فإن قِيْلَ : كيف قال : ولا أنفُسَهم على لفظِ من يعقِلُ والأصنامُ مواتٌ ؟ قِيْلَ : لأن الكفارَ كانوا يصوِّرون منها على صورةِ مَنْ يعقِلُ ، ويُجرُونَها مجَرى من يعقلُ ، فأجرَى عليها لفظَ ما قدَّروا ما هم عليه.

(٠/٠)

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ } ؛ أي إن تدعُوا الأصنامَ إلى الهدى لَمْ تقبلِ الهدى ، فإنَّها لا تَهدي غيرَها ، ولا تَهتدِي بأنفُسِها وتردُّ جَواباً ، وإنْ دعت إلى الهدى { سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ } أم صَمْتُّمْ عنهم لا يتَّبعوكم.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ } ؛ أرادَ الأصنامَ مملوكةً مخلوقة أشباهُكم ، سَمَّاها عِبَاداً لأنَّهم صوَّرُوها على صورةِ الإنسان ، وقولهُ تعالى : { فَادْعُوهُمْ } ؛ ليس هو الدعاءَ الأوَّل ، ولكن أرادَ فادعُوهم في مهمَّاتكم عند الحاجةِ إلى كشفِ الأسوَاءِ عنكم.
وقوله تعالى : { فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ } ؛ أي صيغتهُ صيغة أمرٍ ، ومعناه التعجيزُ ؛ أي فَلْيَسْتَجِيبُوا لكم ، { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } ؛ في أنَّها آلهةً.

(٠/٠)

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)

قوله تعالى : { أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ } ؛ معناهُ : إن معبودي ينصرُني ويدفعُ كيدَ الكائدين عنِّي ، ومعبودُكم لا يقدرُ على نصرِكم ، فإن قدرتُم أنتم على ضرِّ فاجتمِعُوا أنتم مع الأصنامِ على كيدِ ولا تؤجِّلونِي.
وهذا لأنَّهم كانوا يخوِّفون النبيَّ صلى الله عليه وسلم بآلهتِهم ، عرَّفَ اللهُ الكفارَ بهذه الآية أنَّهم مفضَّلون على الأصنامِ ؛ لأن لهم جوارحَ يتصرَّفون بها وليس للأصنامِ ذلك ، فكيف يعبدُونَ مَنْ هم أفضلُ منهم؟! فالعجبُ من أنفسِهم عن اتِّباع النبيِّ صلى الله عليه وسلم مع ما أيَّدَهُ اللهُ به من الآياتِ

والمعجزات والدلائلِ الظاهرة ؛ لأنه بشرٌ مثلُهم ، ولم يأْنَفوا من عبادةِ حَجَرٍ لا قدرةَ له ولا تصرُّف ، وهم أفضلُ منه في القدرة على التصرُّف.

(٠/٠)

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ } ؛ معناهُ : يتولَّى حِفظَهم ، ويكلِؤُني ويتولَّى أمرِي الذي أنعمَ عليَّ بإنزالِ القرآن ، { وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } ؛ أي يتولَّى حِفظَهم ، لا يكِلُهم إلى غيرِهِ ولا تضرُّهم عداوةُ مَن عاداهم.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)

وقولهُ تعالى : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } ؛ الآية قد تقدَّم تفسيرهُ.

(٠/٠)

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ } ؛ أي كما أنَّها لا تَهدي غيرَها فلا تسمعُ الهدى ، { وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ } ؛ يا مُحَمَّدُ فاتحةٌ أعينُهم نحوَكم يعني الأصنامَ ينظرون إليك ، { وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } ؛ وذلك أنَّهم كانوا يصوِّرُونَها فيجعلون لها أعيُناً وآذاناً وأرجُلاً ، فإذا نظرَ الناظرُ اليها خُيِّلَ إليه أنَّها تنظرُ إليه وهي لا تبصرُ ، أو كانوا يلطِّخُون أفواهَ الأصنامِ بالخلوف والعسَلِ ، وكانت الذبابُ يجتَمِعن عليها ، فلا تقدرُ على دفعِ الذُّباب عن أنفُسِها.

وقال بعضُهم : معناهُ : وتراهم كأنَّهم ينظُرون إليك كقوله تعالى : { وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى }[الحج : ٢] أي كأنَّهم سُكَارى ، وقال مقاتلُ : (مَعْنَى قَوْلِهِ { وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ } أي إنْ تَدْعُوا يَا مُحَمَّدُ أنْتَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُفَّارَ مَكَّة إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ ، { وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ } الْهُدَى).

(٠/٠)

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس والسديُّ : (مَعْنَاهُ : خُذِ الْفَضْلَ مِنْ أمْوَالِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ }[البقرة : ٢١٩] وَهَذا إنَّمَا قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ ، فَصَارَ مَنْسُوخاً بالزَّكَاةِ). وقال الحسنُ ومجاهد : (خُذِ الْعَفْوَ مِنْ أخْلاَقِ النَّاسِ فِي الْقَضَاءِ وَالاقْتِضَاءِ وَقَبُولِ عُذْرِهِمْ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُمْ وَمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ).

وأصلُ العفوِ الترُكُ من قولهِ تعالى : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ }[البقرة : ١٧٨] أي تَرَكَ ، والعفوُ عن الذنب تركُ العقوبةِ. ويقالُ : معنى العفوِ الْمُسَاهَلَةُ في الأمور ، يقالُ : خُذْ ما أتاكَ عَفْواً ؛ أي سَهْلاً. وعنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أنَّهُ سَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ : حَتَّى أسْأَلَ ، فَذهَبَ جِبْرِيْلُ فَقَالَ : " يَا مُحَمَّدُ ؛ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ مَنْ ظَلَمَكَ ".

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ } أي بالمعروفِ الذي تعرفُ العقلاء صِحَّتَهُ ، وقال عطاءُ : (يَعْنِي لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ). وقولهُ تعالى : { وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } أي عن أبي جهلٍ وأصحابهِ ، نَسَخَتْهَا آيةُ السَّيفِ.

ومعنى الإعراضِ عنهم ؛ أي أعرِضْ عنهم بعدَ إقامة الحجَّة عليهم ، ووقوعِ الإيَاسِ عن قَبولهم ، ولا تُقَابلْهم بالسَّفَهِ ولا تُجَاوِبْهم استخفافاً بهم وصيانةً لقَدرِكَ ، فإنَّ مجاوبةَ السَّفيهِ تضعُ القدرَ.

(٠/٠)

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ } ؛ معناهُ : إمَّا يُغرِيَنَّكَ بالوسوسةِ عند

الغضب فَالْتَجِئ إلى اللهِ واستَغِثْ بهِ ، { إِنَّهُ سَمِيعٌ } ؛ لدُعائِكَ ، { عَلِيمٌ } ؛ بكَ ، والنَّزْغُ هو الإزعاجُ بالحركةِ إلى الشَّرِّ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ } ؛ معناهُ : إنَّ الذين اتَّقَوا الشِّركَ والمعاصي إذا مسَّهُم وسوسةٌ من الشيطان بإلقاء خواطرِ الشَّرِّ عليهم ، فَرَغُوا إلى تذكُّر ما أوضحَ اللهُ من الحجَّة ، { فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } ؛ عواقبَ أمُورهم ، يرجِعون من الهوَى إلى الْهُدَى.
قرأ النخعيُّ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكسائي (طَيْفٌ) ، وقرأ الباقون (طَايِفٌ) وهما لُغتان وَقِيْلَ : الطائفُ ما يطوفُ حولَ الشيءِ ، والطَّيْفُ : الوسوسةُ والْخَطْرَةُ ، وَقِيْلَ : الطائفُ ما طافَ به من الوسوسةِ ، والطَّيفُ اللَّمْزُ والْمَسُّ. وقرأ سعيدُ بن جبير (طَيِّفٌ) بالتشديد ، وقال الكلبيُّ : (طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَان : ذنْبٌ) ، وقال مجاهدُ : (الْغَضَبُ) ، وعن مجاهد : (هُوَ الرَّجُلُ يَهُمُّ بالذنْب فَيَذْكُرُ اللهَ فَيَدَعُهُ) ، وقال السديُّ : (مَعَنَأهُ : إذا أذْنَبُواْ تَابُوا).

(٠/٠)

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ } ؛ أي وإخْوَانُ المشركين وهم الشياطينُ يدعُونَهم إلى المعاصِي والجهلِ ، يقال لكلِّ كافرٍ أخٌ من الشيَّاطين يَمُدُّهُ في الغَيِّ. وقرأ نافعُ (يُمِدُّونَهُمْ) بضمِّ الياء وكسرِ الميم هما لُغتان. قَوْلُهُ تَعَالَى : { ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ } ؛ أي لا يُقصِرُ إخوانُ المشركين من الوسوسةِ ؛ لأنَّهم إذا علِمُوا قَبُولَهم لقولِهم زادُوا في إغوائِهم ، وزادَ الكفارُ في طاعتِهم لَهم ، فلا يقصِرُون كما يقصِرُ المتَّقون.
وَقِيْلَ : معنى قولِه تعالى : { وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ } يعني إخوان الشَّياطين وهم الضُّلاَّلُ يَمُدُّونَ المشركين في الغَيِّ. وقرأ الجحدريُّ (يُمَادُّونَهُمْ) ، وقرأ عيسى (ثُمَّ لاَ يَقْصُرُونَ) بفتح الياء وضم الصاد.

(٠/٠)

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا } ؛ معناهُ : وإذا لَمْ تأتِهم يا مُحَمَّدُ بالآيةِ التي سألوكَهَا تَعَنُّتاً قالُوا : هلاَّ طلَبْتَها من اللهِ فتأتِينا بها. وَقِيْلَ : معناهُ : هلاَّ أتيتَ بها من تِلقَاءِ نفسِكَ ؟ قال الحسنُ : (كَانُوا إذا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ كَذبُوا بهَا ، وَإذا أبْطَأَتْ عَلَيْهِمْ الْتَمَسُوهَا).
وقولهُ تعالى : { قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَاذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ } ؛ أي قُل لَهم : ليستِ الآياتُ إلَيَّ ، ولكنَّ اللهَ يُوحِي بها عَلَيَّ ما يعلمُ من المصلحةِ ، وليس لي أنْ أسألَهُ إنزَالَها إلاَّ إذا أذِنَ لِي في سُؤالِها. هذا القرآنُ بَصَائِرُ من ربكم ، { وَهُدًى وَرَحْمَةً } ؛ أي حُجَجٌ من ربكم وهُدًى من الضَّلالةِ ونجاةً من العذاب ، { لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ؛ يُصَدِّقُونَ أنه مِن اللهِ.

(٠/٠)

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وأبو هُريرة وسعيدُ بن جُبير وسعيد بن المسيِّب والزهريُّ : (إنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الصَّلاَةِ). عن أبي العاليَةِ الرياحيِّ قال : (كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا صَلَّى ، قَرَأ أصْحَابَهُ خَلْفَهُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ) ، وقال بعضُهم : المرادُ بالآيةِ وقتَ نُزولِ القرآنِ ، أمَرَهُم اللهُ بالاستماعِ والإنصَاتِ.
وقال الزجَّاجُ : (يُحتَمَلُ أنْ يَكُونَ مَعْنَى الاسْتِمَاعِ الْعَمَلُ بمَا فِيْهِ) ، وعن ابنِ عبَّاس قال : (كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلاَةِ وَيَأْمُرُونَ بحَوَائِجِهِمْ ، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ إلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ لَهُ : كَمْ صَلَّيْتُمْ ؟ فَيَقُولُ كَذا ، فَأَنزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ). والقولُ الأوَّل أصحُّ وأقربُ إلى ظاهرِ الآية ؛ لأنه ليس في الآيةِ تخصيصُ زَمانٍ دون زمان ، ولا يجبُ على القومِ الإنصَاتُ لقراءةِ مَنْ يقرأ في غيرِ الصَّلاةِ.

(٠/٠)

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } ؛ يجوزُ أن يكون الخطابُ في هذه الآيةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والمرادُ به جميعُ الخلقِ ، ويجوزَ أن يكون المعنى : واذْكُرْ ربَّكَ أيُّها المستمعُ للقرآنِ إذا تُلِيَ عليكَ.

وقولهُ تعالى : { فِي نَفْسِكَ } يعني التفكُّرَ في النفسِ والتعرُّضَ لنِعَمِ اللهِ مع العلمِ بأنه لا يقدرُ عليها أحدٌ سواهُ ، وأنه متى شاءَ سَلَبَها منه. والمراد بقوله : { وَدُونَ الْجَهْرِ } المتكلِّم بذكرِ الله على وجهِ الخِيفَةِ بالتضرُّع إليه والمخافَةِ منه ، ولأن أفضلَ الدُّعاء ما كان خَفِيّاً على إخلاصٍ وخضوعٍ لا يشوبهُ رياءٌ وسُمعَةٌ. وقولهُ تعالى { فِي نَفْسِكَ } إشارة إلى الإخلاصِ.

وَقِيْلَ : المرادُ بقوله : { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ } الذكرُ بالكلامِ الخفيِّ وبقوله : { وَدُونَ الْجَهْرِ } إظهار الكلامِ بالصَّوت العالي. وقال ابنُ عباس : (مَعْنَى { وَاذْكُر رَّبَّكَ } يعني القراءةَ في الصَّلاة { تَضَرُّعاً } أي جَهْراً { وَخِيفَةً } أي سِرّاً { وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ } أيْ دُونَ رَفْعِ الصَّوتِ فِي خَفْضٍ وسُكُونٍ سَمِّعْ مَنْ خَلْفَكَ الْقُرآنَ).

وقال أهلُ المعاني : { وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ } أي اتَّعِظْ بالقرآن واعتبرْ بآياته ، واذكُر ربَّكَ في ما يأمُركَ بالطاعةِ { تَضَرُّعاً } أي تَواضُعاً وتخشُّعاً { وَخِيفَةً } أي خِيفَةً من عقابهِ. وقال مجاهدُ : (أمَرَ أنْ يُذْكَرَ فِي الصّ ُدُور ، وَأمَرَ بالتَّضَرُّعِ وَالاسْتِكَانَةِ ، وَيُكْرَهُ رَفْعُ الصَّوْتِ وَالنِّدَاءُ وَالصِّيَاحُ فِي الدُّعَاءِ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } أي صلاةَ الغداةِ والمغرب والعشاء ، والأصيلُ في اللغة : ما بين العصر إلى اللَّيل ، وجمعهُ أُصُلٌ ، ثم آصَالٌ جَمْعُ الجمعِ ، ثم أصَائِلٌ. وَقِيْلَ : يعني { بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ } : البكرَ والعِشَاةَ. وقولهُ تعالى : { وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الْغَافِلِينَ } ؛ زيادةُ تحريضٍ على ذكرِ الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ كَي لا يَغفلَ الإنسانُ عن ذلك في أوقاتِ العبادة.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ } معناهُ : أن الملائكةَ المقرَّبين الذين أكرَمَهم اللهُ لا يتعَظَّمون عن طاعتهِ إن استكبرتُم أنتم فَهُمْ أفضلُ منكم ، وهم الملائكةُ لا يستكبرون عن عبادتهِ وينَزِّهُونَهُ عن ما لا يليقُ به ، { وَلَهُ يَسْجُدُونَ } ؛ أي يُصَلُّونَ فيَخِرُّونَ له سُجَّداً في صلاتِهم. وقوله تعالى : { عِندَ رَبِّكَ } يريدُ قُربَهم من الفضلِ والرَّحمةِ لا من حيث المكانُ والمسافة.

وعن معاذِ بن جبلٍ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كَانَ جِبْرِيْلُ عليه السلام إذا أقْبَلَ بشَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فِيْهِ سُجُودٌ قَرَأَ ثُمَّ يَخِرُّ سَاجِداً وَيَأْمُرُنِي بذلِكَ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا مُحَمَّدُ وَاجِبٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أمَّتِكَ " وعن إبراهيمَ قال : (مَنْ قَرَأَ آخِرَ الأعْرَافِ إنْ شَاءَ ركعَ وإنْ شَاءَ سَجَدَ). وعن أُبَيِّ بن كعبٍ عن رسولِ للهِ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الأعْرَافِ جَعَلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ سِتْراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ آدَمُ شَفِيعاً لَهُ "

(٠/٠)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ } ؛ أي عن الغَنَائِم ، { قُلِ الأَنفَالُ } ؛ الغنائمُ ؛ { للَّهِ وَالرَّسُولِ } ؛ الإضافةُ للغنائمِ إلى اللهِ على جهة التشريفِ ، والإضافةُ إلى الرسولِ لأنه كان بيانُ حُكمِها وتدبيرها إليه ؛ لأن الغنائمَ كانت كلُّها لهُ كما قال صلى الله عليه وسلم في وبَرَةٍ أخَذهَا سِنَامَ بَعِيرٍ مِنَ الْفَيْءِ : " وَاللهِ مَا يَحِلُّ لِي مِنْ فَيْئِكُمْ إلاَّ الْخُمْسُ ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ ".

وَقِيْلَ : لِما سألوه عن الغنائمِ ؛ لأنَّها كانت حرَاماً على مَن قبلهم ، كما قال عليه السلام : " لَمْ تُحَلَّ الْغَنَائِمُ لِقَوْمٍ سُودِ الرُّؤُوسِ قَبْلَكُمْ ، كَانَتْ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهَا " وإنما سُميت الغنائمُ أنْفَالاً ؛ لأن الأنفالَ جمعُ النَّفْلِ ، والنفلُ الزِّيَادَةُ ، والأنفالُ مما زادَهُ الله هذه الأُمة من الحلالِ ، والنافلةُ من الصَّلاةِ ما زادَ على الفرضِ ، ويقال لولدِ الولد : نافلةٌ ؛ لأنه زيادةٌ على الولدِ.

وعن ابنِ عبَّاس في سبب نُزول هذه الآيةِ : (أنَّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم رَغَّبَ أصْحَابَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ : " مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ كَذا ، وَمَنْ جَاءَ بأَسيرٍ فَلَهُ كَذا " فَلَمَّا هَزَمَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ سَارَعَ الشَّبَابُ ، وَأَقْبَلُواْ بالأُسَارَى ، وَأَقَامَ الشُّيُوخُ عِنْدَ الرَّايَاتِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَخَافَةَ أنْ يَغْتَالَهُ أحَدٌ مَنَ الْمُشْرِكِينَ ، فَوَقَعَ الاخْتِلاَفُ بَيْنَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الْغَنِيمَةِ ، فَقَالَ الَّذِينَ ثَبَتُواْ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : قِيَامُنَا أفْضَلُ مِنْ ذهَابِهِمْ ، فَلَوْ أعْطَيْتَهُمْ مَا وَعَدْتَهُمْ لَمْ يَبْقَ لَنَا وَلاَ لِعَامَّةِ أصْحَابكَ شَيْءٌ.

وقَالَ الآخَرُونَ : نَحْنُ قَتَلْنَا وَأَسْرْنَا. وَكَانَ ذلِكَ مُرَاجَعَةً بَيْنَهُمْ وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَاكِتٌ لاَ يَقُولُ شَيْئاً ، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعناها يسألونَك عن الأنفال لِمَن هي ، ويجوز أن يكون (عن) صِلَةً في الكلامِ ، والمعنى يَسألونَكَ الأنفالَ التي وعدتَهم يومَ بدرٍ ، قلِ الأنفالُ للهِ والرسولِ ليس لكم فيها شيءٌ. قال عُبادة بن الصَّامت : (لَمَّا اخْتَلَفْنَا فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ وَسَاءَتْ أخْلاَقُنَا ، نَزَعَهَا اللهُ مِنْ أيْدِينَا وَجَعَلَهَا إلَى رَسُولِهِ وَقَسْمَهَا بَيْنَنَا عَلَى سواءٍ). وَقِيْلَ : إنَّ التَّنْفِيلَ المذكورَ في هذه الآيةِ لروايةِ غَلَطٍ وقعَ من الرَّاوي ؛ لأنه لا يجوزُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم خَلْفُ الوَعْدِ واسترجاعُ ما جعلَهُ لأحدٍ منهم ، والصحيحُ : أنَّهم اختلَفُوا في الغنائمِ من غير تَنْفِيلٍ كان من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } ؛ أي اتَّقُوا مَعاصِيَهُ واحذروا مخالفةَ أمرِهِ وأمرَ رسولِهِ ، (وَأصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ) أي كونوا مُجتَمعين على ما يأمرُكم به اللهُ ورسولهُ ، { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ في الغنائمِ وغيرِها ، { إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } ، كما تَزعمونَ.

(٠/٠)

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } ؛ معناهُ : إنَّ صِفَتَهم إذا ذُكر اللهُ عندَهم فَزِعَتْ قلوبُهم عند الموعظةِ. والوَجَلُ : هو الخوفُ مع شدَّة الْحُزْنِ ، والمعنى ليس المؤمنُ الذي يخالِفُ اللهَ ورسولَهُ (إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ } ؛ أي قُرِئت عليهم آياتهُ بالأمرِ والنَّهي ، { زَادَتْهُمْ إِيمَاناً } ، يقيناً وبصيرةً بالفرائضِ مع تصديقِهم باللهِ { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } ؛ أي يُفَوِّضُونَ أمُورَهم إلى اللهِ لا يَثِقُونَ بغيرِهِ.

ثُمَّ زادَ في نعتِ المؤمنينَ فقال : { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ } ؛ أي يُقيمونَها بوضُوئِها ورُكوعِها وسُجودِها في مواقيتها ، { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ } ؛ أعطَيناهُم من الأموال ، { يُنفِقُونَ } ، في طاعةِ اللهِ ، وإنَّما خصَّ اللهُ الصلاةَ والزكاةَ ؛ لعِظَمِ شأنِهما وتأكيدِ أمرِهِمَا.

(٠/٠)

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { أُوْلائِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً } ؛ أي أهلُ هذه الصِّفة الذين تقدَّم ذِكرُهم الذين استحَقُّوا هذه الصفةَ صِدْقاً ، { لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ } ؛ أي لَهم فضائلُ ومنازل في الرِّفعةِ في الآخرةِ على قدر أعمالِهم ، { وَمَغْفِرَةٌ } ؛ لذُنوبهم ؛ { وَرِزْقٌ } ؛ وثوابٌ حَسَنٌ ، { كَرِيمٌ } ؛ في الجنَّة.

(٠/٠)

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ } ؛ وذلك " أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَلَغَهُ أنَّ عِيرَ قُريشٍ أقبلَتْ من الشَّام ، وفيهم أبو سُفيان ومَخْرَمَةُ بنُ نَوفَل في أربعينَ رجُلاً من قريش تُجَّاراً ، فقالَ عليه السلام لأصحابِهِ : " هَذِهِ عِيْرُ قُرَيْشٍ قَدْ أقْبَلَتْ ، فَاخْرُجُواْ إلَيْهَا ، فَلَعَلَّ اللهَ أنْ يَنْفِلُكُمُوهَا فَتَنْتَفِعُواْ بهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ ". فيُعِدُوا على نواضِحِهم ومعهم فارسان لا غيرَ ؛ أحدُهما الزُّبير والآخر المقدادُ ، فخَرجُوا بغيرِ قوَّة ولا سلاحٍ ، وهم ثلاثُمائة وثلاثة عشرة رجلاً لا يَرَونَ أنه يكون قتالٌ.
فبلغَ ذلك أبو سُفيان ، فأرسلَ من الطريقِ ضَمْضَمَ بنِ عمرٍو والغفاري يخبرُ أهلَ مكَّة أن مُحَمَّداً قد اعترضَ لِعيرِكم فأدْرِكُوها. فَنَزلَ جبريلُ عليه السلام على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم فأخبرَهُ بنَفرِ المشركين يُريدون عِيرَهم ، وقالَ : (يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ يَعِدُكَ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، إمَّا الْعِيرُ وَإمَّا الْعَسْكَرُ) فأخبرَ بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمينَ فَسُرُّوا بذلكَ وأعجبَهم ، فاستشارَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين عرفَ أنَّهم لا يُخالِفونَهُ ، فقالوا لهُ : (وَاللهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أنْ نَخُوضَ الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ) ثم أخبرَهم أن في المشركين كَثْرَةً فشُقَّ على بعضِهم وقالوا : ألاَ كُنْتَ أخْبَرْتَنَا أنَّهُ يَكونُ قِتَالٌ ، فَنُخْرِجَ سِلاَحَنا وَقُوَّتَنَا ، إنَّمَا خَرَجْنَا في ثِيَابنَا نُرِيدُ الْعِيْرَ. فَنزلَ اللهُ هذه الآيةَ وهم بالرَّوحاءِ.
ومعناها : امْضِ على وجهِكَ من الرَّوحَاء (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ) أي من المدينة (بالْحَقِّ) أي الأمرِ الواجب ، { وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ } ؛ يعني كراهةَ الطبعِ للمشقَّة لا كراهةَ الحقِّ ، وَقِيْلَ معناهُ : { يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ } ؛ متكَرِّهِينَ له كما أخرجكَ ربُّك من بيتِكَ مع تكرُّهِكَ له ، ومعنى يُجَادِلُونَكَ أي يُخاصِمُونَكَ بقولِهم : هلاَّ أعْلمتَنا القتالَ حتى كنا نستعدَّ له ، { بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ } ؛ أي بعد ما ظهرَ لهم أنكَ لا تصنعُ إ لا ما أمرَكَ ربُّكَ قَوْلُهُ تعَالَى : { كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ } ؛ أي هُم بما

عليهم من شدَّة المشقَّةِ لقلَّتِ عددِهم وعُدَّتِهم ، وكثرةِ عدُوِّهم كأنَّما يُسَاقُونَ إلى الموتِ ، { وَهُمْ يَنظُرُونَ } ؛ إلى أسباب الموتِ.

(٠/٠)

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ } ؛ إمَّا العِيرُ وإما العسكَرُ أنَّها لكم ، { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ } ؛ وتَمَنَّونَ أن تكون لكم العيرُ دون العسكرِ ، لأن العسكرَ ذاتُ شوكةٍ وهي السلاحُ ، { وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ } ؛ أي يُظهِرَ الإسلامَ بوعدِهِ الذي أنزلَ في الفُرقَانِ ، ويقالُ : بأمرِهِ لكم بالقتال ، { وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ } ؛ أي يُظهِرَكُمْ على ذاتِ الشَّوكة فتستَأْصِلُوهم ، { لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ } ؛ بإهلاكٍ ، { وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } ؛ مُشركُو مكَّة.

(٠/٠)

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } ؛ معناهُ : إذ تَسْتَغِيثُونَ أيُّها المسلمون ربَّكم حين رأيتُم قلَّة عددِكم وكثرةَ عدوِّكم ، فلم يكن لكم مَفْزَعٌ إلا الدعاءُ لله وطلبُ المعونةِ منه { فَاسْتَجَابَ لَكُمْ } أي أجابَكم ، والاستجابةُ التَّعطِيَةُ على موافقةِ المسألةِ.
وقولهُ تعالى : { أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ } قال ابنُ عبَّاس : (كَانَ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مَلَكٌ فَكَانَ جُمْلَتُهُمْ أَلْفَيْنِ). يقالُ : رَدَفْتُ الرَّجُلَ ؛ إذال ركبتُ خلفَهُ ، وَأردَفْتُهُ إذا أركبتَهُ خلفَكَ. وقال عكرمةُ وقتادة والضحَّاك : (مَعْنَاهُ : بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُتَتَابِعِينَ يَتْبَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً) ، وقد يجوزُ أن يقالَ : أَرْدَفْتُ الرَّجُلَ إذا جاءَ بعدَهُ ، وكذلك رَدَفَهُ. وأما قراءةُ نافع (مُرْدَفِينَ) بفتحِ الدالِ فمعناه : أَرْدَفَهُمُ اللهُ بالمؤمنين ، ويقال : أَرْدَفْتُهُ وَرَدَفْتُهُ بمعنى تَبِعْتُهُ ، قال الشاعرُ : إذا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتِ الثُرَيَّا ظَنَنْتُ بآلِ فَاطِمَةَ الظُّنُونَاأي جاءَت بعدَها ؛ لأن الجوزاءَ تطلعُ بعدَ الثُريا.

فنَزَل جبريلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيْمَنَةِ ، ونزلَ مِيكَائِيلُ في خَمسمائةِ مَلَكٍ على الْمَيْسَرَةِ في صُورَةِ الرِّجالِ عليهم ثيابٌ بيضٌ وعمائمُ بيضٌ.

(٠/٠)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى } ؛ أي ما جعلَ اللهُ إمدادَ الملائكةِ إلا بشارةً بالنصرِ للمؤمنين ، وَقِيْلَ : معناهُ : ما جعلَ الله إخبارَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بإمدادِ الملائكة إلا بُشرى بالنصرِ.
وقولهُ تعالى : { وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ } ؛ أي ولتَسْكُنَ قلوبُكم في الحرب فلا تخافون من عدوِّكم. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ } ؛ أي ليس النَّصرُ بقلَّة العددِ ولا بكثرتِهِ ولا من قِبَلِ الملائكةِ ، ولكن النصرَ من عندِ الله ، { إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } ؛ بالنَّقمةِ ممن عصَى ، { حَكِيمٌ } ، في أفعالِهِ.
وقد اختلفُوا هل قاتلَتِ الملائكةُ يومَ بدرٍ مع المؤمنين أم لاَ ؟ قال بعضُهم : لَم يُقاتِلوا ولكنَّ اللهَ أيَّدَ المؤمنين ليُشجِّع بهم قلوبَهم ، ويُلقِي بهم الرُّعبَ في قلوب الكافرين ، ولو بعثَهم اللهُ بالْمُحارَبَةِ لكان يكفِي مَلَكٌ واحدٌ ، فإنَّ جبريلَ أهْلَكَ بريشَةٍ واحدة سَبْعاً من قُرى قومِ لُوط ، وأهلكَ بصيحةٍ واحدة جميعَ بلادِ ثَمود. وهذا القولُ أقربُ إلى ظاهرِ الآية.
وقال بعضُهم : إنَّ الملائكةَ قاتَلَتْ ذلك اليوم ؛ لأنه رُوي أن أبَا جَهْلٍ قال لابنِ مسعود : مِنْ أيْنَ كَانَ ذلِكَ الضَّرْبُ الَّذِي كُنَّا نَسْمعُ ولاَ نَرَى شَخْصاً ؟ فَقَالَ لَهُ : (مِنَ الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أبُو جَهْلٍ : هُمْ غَلَبُونَا لاَ أنْتُمْ!

(٠/٠)

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ } ؛ قال جماعةٌ من المفسِّرين : " وذلكَ أنَّهُ لَمَّا أمرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالمسيرِ إلى الكفَّار ، سارَ بمن معَهُ حتى إذا كان قَرِيباً من بدرٍ لَقِيَ رجُلين في

الطريقِ ، فسألَهما : " هَلْ مَرَّتْ بكُمَا الْعِيرُ ؟ " قالا : نَعَمْ مرَّت بنا لَيلاً ، وكان بين يدَي رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عشرةٌ من المسلمين ، فأخَذُوا الرَّجُلِين ، وكان أحدُهما عبدَ العبَّاس بنِ عبدِ المطلب يقال له أبُو رافعٍ ، والآخرُ عَبداً لعُقبة بن أبي مُعيطٍ يقالُ له أسلمَ كانَا يسقِيَانِ الماءَ ، فجاؤُا بهما إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، واستخلَى بأبي رافعٍ ودفعَ أسلمَ إلى أصحابهِ يسألونَهُ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم لأبي رافعٍ : " مَنْ خَرَجَ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ ؟ " فقالَ : ما بَقِيَ أحدٌ إلا وقد خرجَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أتَتْ مَكَّةَ الْيَوْمَ بأفْلاَذِ كَبدِهَا " ثمَّ قَالَ : " هَلْ رَجَعَ مِنْهُمْ أحَدٌ ؟ " قال : نَعَمْ ؛ أُبَيُّ بنُ شَرِيفٍ في ثلاثِمائة من بني زُهرة ، وكان خرجَ لمكان العِيرِ ، فلما أقبَلت العِيرُ رجعَ ، فسمَّاه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الأخْنَسَ حين خَنَسَ بقومهِ ، ثُم أقبلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أصحابهِ وهم يَسألُونَ أسلمَ ، وكان يقولُ لَهم : خرجَ فلانٌ وفلان ، وأبُو بكرٍ رضي الله عنه يضربهُ بالعصَا ويقولُ له : كذبتَ بخبرِ الناسِ ، فقالَ صلى الله عليه وسلم : " إنْ صَدَقَكُمْ ضَرَبْتُمُوهُ ، وَإنْ كَذبَكُمْ تَرَكْتُمُوهُ " فعَلمُوا أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد عرفَ أمرَهم ".

فسَاروا حتى نزَلُوا بدراً بجانب الوادِي على غيرِ ماءٍ ، ونزلَ المشركون على جانبهِ الأقصَى على الماءِ ، والوادِي بينَهما فبَاتُوا ليلَتَهم تلك ، فألقَى اللهُ على المسلمين النَّومَ فنَامُوا ، ثم استيقَظُوا وقد أجْنَبُوا وليس معهم ماءٌ ، فأتَاهُم الشيطانُ فوَسْوَسَ إليهم وقالَ : لهم تزعُمون أنَّكم على دينِ الله وأنتم مُجنِبُونَ تُصَلُّونَ على الجنَابَةِ ، والمشرِكُون على الماءِ.

فأمطَر اللهُ الوادي وكان ذا رَمْلٍ تغيبُ فيه الأقدامُ ، فاشتدَّ الرملُ وتلبَّدت بذلك أرضُهم وأوْحَلَ أرضَ عدوِّهم ، وبنَى المسلمون في مكانِهم حِياضاً واغْتسَلُوا من الجنابةِ وشرِبُوا وسَقَوا دوابَّهم وتَهيَّأُوا للقتالِ ، فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ } أي واذكرُوا إذ يُلقِي اللهُ عليكم النُّعاسَ ، والنُّعاسُ : أولُ النَّومِ قبل أن يثقلَ. وقولهُ تعالى : { أَمَنَةً مِّنْهُ } أي أمْناً من اللهِ منهم بوعدِ النَّصرِ أمْناً حتى غَشِيَهم النعاسُ في حالِ الاستعداد للقتال. قال ابنُ عبَّاس : (النُّعَاسُ عِنْدَ الْقِتَالِ أمْنٌ مِنَ اللهِ ، وَفِي الصَّلاَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ).

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو (يَغْشَاكُمُ) واحتجَّا بقولهِ تعالى : { يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ }[آل عمران : ١٥٤] فجعل الفعلَ للنُّعاس.

(٠/٠)

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ } ؛ إذ يُلهِمُ ربُّكَ الملائكةَ النازِلين من السَّماء { أَنِّي مَعَكُمْ } بالنصرِ للمسلمين ، { فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ } ؛ بالتَّنبيهِ والإِخْطَارِ بالبَال ، ويقالُ : بَشِّرُوهم بالنصرِ ، وَقِيْلَ : أرُوهم أنفُسَكُم مَدَداً لَهم فإذا عايَنُوكم ثَبَتُوا. والوحيُ : إلقاءُ المعنى الى النَّفسِ من وجهٍ خَفِيٍّ.

وعنِ ابن عبَّاس أنه قال : (سَوَّى أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم صُفُوفَهُمْ ، وَقَدَّمُواْ رَايَاتِهِمْ فَوَضَعُوهَا مَوَاضِعَهَا ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى بعِيرٍ لَهُ يَدْعُو اللهَ وَيَسْتَغِيثُ ، فَهبَطَ جِبْرِيْلُ عليه السلام فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْمَنَتِهِمْ ومِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ عَلَى مَيْسَرَتِهِمْ ، فَكَانَ الْمَلَكُ يَأْتِي الرَّجُلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ وَيَقُولُ لَهُ : دَنَوْتُ مِنْ عَسْكَرِ الْمُشْرِكِينَ فَسَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : واللهِ لإِنْ حَمَلُواْ عَلَيْنَا لاَ نَثْبتُ لَهُمْ أبداً.

وَأَلْقَى اللهُ فِي قُلُوب الْكَفَرَةِ الرُّعْبَ بَعْدَ قِيَامِهِمْ لِلصَّفِّ ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ : يَا مُحَمَّدُ أخْرِجْ إِلَيْنَا أكِفَّاءَنَا مِنْ قُرَيْشٍ نُقَاتِلُهُمْ. فَقَامَ إِلَيْهِمْ بَنُو عَفْرَاءَ مِنَ الأنْصَارِ : عُوذ وَمِعْوَذ وَمَعَاذاً أُمُّهُمْ عَفْرَاءُ وَأبُوهُمُ الْحَارِثُ ، فَمَشَواْ إِلَيْهِمْ فَقَالُوا لَهُمْ : ارْجِعُواْ وَأرْسِلُوا إِلَيْنَا أكِفَّاءَنَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، قَالَ عَلِيٌّ : فَمَشَيْتُ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ وَمَشَى إِلَيَّ ، فَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ أطَرْتُ يَدَهُ ، ثُمَّ بَرَكْتُ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُهُ ، فَقَامَ شَيْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ فَاخْتَلَفَا بضَرْبَتَينِ ، ثُمَّ ضَرَبَ عُبَيْدَةُ ضَرْبَةً أخْرَى فَقَطَعَ سَاقَ شَيْبَةَ ، ثُمَّ قَامَ حَمْزَةُ إِلَى عُبَيْدَةَ بن ربيعة فَقَالَ : أنا أسدُ اللهِ وَأسَدُ رَسُولِهِ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ حَمْزَةُ فَقَتَلَهُ. فَقَامَ أبُو جَهْلٍ فِي أصْحَابِهِ يُحَرِّضُهُمْ وَيَقُولُ : لاَ يَهُولَنَّكُمْ مَا لَقِيَ هَؤُلاَءِ ، فإِنَّهُمْ عَجِلُواْ وَاسْتَحْمَقُوا ، ثُمَّ حَمَلَ هُوَ بنَفْسِهِ ، ثُمَّ حَمَلَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ عَلَى قُرَيْشٍ فَهَزَمُوهُمْ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ } ؛ أي سأقذفُ في قلوبهم المخافَة منكم. علَّمَ اللهُ المسلمين كيف يضرِبُونَهم ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : { فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ } ؛ معناهُ على الأعنَاقِ ، وقال عطيَّة والضحاكُ : (مَعْنَاهُ فَاضْرِبُواْ الأَعْنَاقَ) ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ الرِّقَابِ }[محمد : ٤] ، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنِّي لَمْ أُبْعَثْ لأعَذِّبَ بعَذاب اللهِ تعَالَى ، إنَّمَا بُعِثْتُ بضَرْب الرِّقَابِ وَشَدِّ الْوَثَاقِ) ".

وقال بعضُهم (فَوْقَ) بمعنى (عَلَى) ، أي فَاضرِبُوا على الأعناقِ ، وقال عكرمةُ : (مَعْنَاهُ فَاضْرِبُوا الرُّؤُوسَ). وقال ابن عبَّاس : (فَاضْرِبُواْ الأعْنَاقَ فَمَا فَوْقَهَا) يعني الرُّؤُوسَ والأعناقَ ، نظيرهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ }[النساء : ١١] أي اثنتين فما فوقَهما ، وإنما أمرَ اللهُ تعالى بضرب الرِّقاب والأعنَاقِ ؛ لأنَّ أعلى جلدةِ العُنقِ هو الْمَقْتَلُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } ؛ قال عطيَّة : (يَعْنِي كُلَّ مِفْصَلٍ) ، وقال ابنُ عَبَّاس والضحاكُ : (يَعْنِي الأَطْرَافَ).

وقال بعضُهم معنى قولهِ تعالى : { فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ } الصَّنَادِيدُ ، وقولهِ تعالى : { وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } يعني السَّفَلَةَ. إلا أنَّ الأوَّل أصحُّ. وَقِيْلَ : معناه : واضرِبُوا منهم كلَّ عُضوٍ أمكَنَكم ، وليس

عليكم تَوَقِّي عضوٍ دون عضو.
وعن أبي سعيد الفاراني أنه كان يقولُ : (أرَادَ اللهُ أنْ لاَ تَتَلَطَّخَ سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ بفَرَثِ الْكُفَّارِ ، فَأَمَرَهُمْ أنْ يَضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَيَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ). والبَنَانُ في اللغة : هو الأصابعُ وغيرُها من الأعضاءِ التي بها يكون قِوَامُ الإنسانِ صوناً لمكانه وحياته ، مأخوذٌ من قولهم : أبْنَنَ الرجلُ بالمقامِ إذا أقامَ بهِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ أي ذلك الضَّربُ والقتلُ بأنَّهم شَاقُّوا أولياءَ الله ورسولَهُ ، والمشاقَّةُ أن يصيرَ أحدُ العدُوَّين في شِقٍّ والآخرُ في شِقٍّ آخر ، كما أن الْمُجَادَلَةَ أن يصيرَ أحدُهما في حدٍّ غيرِ حدِّ الآخرِ. وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } ؛ في ومَن يخالِفْ أولياء اللهِ ، { فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ، لهُ.
وأما إظهارُ التضعيفِ في موضع الجزمِ في قوله { يُشَاقِقِ } فهو لغةُ أهلِ الحجاز ، وغيرُهم يُدغِمُ أحدَ الحرفين في الآخر لاجتماعِهما من جنسٍ واحد ، كما قال تعالى في سورة الحشرِ{ يُشَآقِّ اللَّهَ }[الآية : ٤] بقافٍ واحدة.

(٠/٠)

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

وقولهُ تعالى : { ذالِكُمْ فَذُوقُوهُ } ؛ معناهُ : إن الذي ذكرتُ لكم أيُّها الكفار من العذاب العاجِل في الدُّنيا فَذُوقُوهُ. ثم بيَّن جلَّ ذِكرهُ أن القتلَ في الدُّنيا لا يصيرُ كفارةً لهم ، وأنَّ الله سيعاقِبُهم في الآخرة بقوله : { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } ، وإنما قال تعالى في عذاب الدُّنيا { فَذُوقُوهُ } ؛ لأن الذوقَ يتناولُ اليسيرَ من الشيءِ ، وكلُّ ما يلقَى الكفارُ من ضربٍ أو قتل في الدُّنيا فهو قليلٌ من العذاب يُعَجِّلُ لهم ، ومُعظَمُ عَذابهم يؤخَّرُ إلى يومِ القيامة.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ } في فتحِ (أنَّ) وجهان أحدُهما : لأنَّها في موضعِ الرفع

تقديرهُ ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَاعْلَمُوا أنَّ للكَافِرِينَ. والثاني : لأنَّها في موضع النصب ؛ تقديرهُ : ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَاعْلَمُوا أنَّ للكَافِرِينَ. وَقِيْلَ : واعلَمُوا بأنَّ للكافرين ، فلما حَذفَ الباءَ نُصب.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ } ؛ خطابٌ من اللهِ للمسلمين حين التَقَوا بالعدوِّ يومَ بدرٍ ، معناهُ : إذا لقيتُم الذين كفَرُوا مُزَاحَفَةً مستعدِّين لحربهم ، فلا تنهَزِمُوا حتى تُدبروا. والزحفُ في اللغة : هو الدُّنُو قَلِيلاً قليلاً ، والزحفُ التَّدَانِي ، يقال : زاحفتُ القومَ إذا ثَبَتُّ لهم ، فكأنَّهُ قال تعالى : إذا واقَعتمُوهم للقتالِ فَاثبُتوا لَهم. والتَّولِيَةُ : جعلُ الشيءِ يَلِي غيرَهُ وهو مُتَعَدٍّ إلى مَفعُولَين ، وَوَلَّى دُبُرَهُ إذا جعلَهُ إليه.

(٠/٠)

وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ } ؛ أي ومَن يجعل ظَهْرَهُ إليهم وقتَ القتالِ ، { إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ } ؛ إلا أنْ ينحرفَ لِيُقاتِلَ في موضعٍ يراهُ أصلحَ في باب الْمُحَارَبَةِ ، وليطلبَ غِرَّةً يطمعُ فيها من العدوِّ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ } ؛ أي إلا أنْ يقصدَ الانضمامَ إلى جماعةٍ يَمنعونَهُ من العدوِّ ، يعني إذا كَثُرَ العدوُّ للمؤمنين فيه يلجأون ، فيحارِبون العدوَّ بعد ذلك معهم ؛ كان لهم تركُ القتالِ عند ذلك ، ومن ولاَّهُم الدُّبُرَ على سبيلِ الانْهزامِ من غيرِ هذين الوجهَين ، { فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّ } ، فقدِ احتملَ غَضَباً من اللهِ ، { وَمَأْوَاهُ } ؛ في الآخرةِ { جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } ، صارَ إليه.
والتَّحَرُّفُ في اللغة : هو الزَّوَالُ من جهةِ الاستواءِ ، والتَّحَيُّزُ : طلبُ حَيِّزٍ يَكْمُنُ فيه.
واختلفَ العلماءُ هل الوعيدُ في هذه الآيةِ مقصورٌ على حرب بدرٍ أم هو عامٌ في جميعِ الأوقات ؟ قال بعضهم : إنه خاصٌّ في حرب بدر ؛ لأنه لم يكن يومئذٍ للمسلمين فيه سِواهُم ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم حاضِراً في ذلك الحرب ، وكان النصرُ موعوداً إليه يومئذٍ ومع حضُورِهِ ، وكان لا يعدُّ غيرهُ

فئةً ، وكان المنهزِمُ عن القتالِ يومئذ غيرَ متحيِّزٍ إلى فئةٍ ، فأما اليومَ المنهزمُ عن الحرب يكون مُتَحيِّزاً إلى فئَةٍ أعظمَ من الْمُحاربين من المسلمين. وقال بعضُهم : إنه عامٌّ في جميعِ الأوقات ، ولا يجوزُ الانْهزَامُ عن قتالِ المشركين مع قوَّة القتال ، وإلى هذا ذهبَ ابنُ عباس ، وذكرَ محمَّد بنُ الحسنِ في السِّيَرِ الكبير (أنَّ الْجَيْشَ إذا بَلَغُوا اثْنَى عَشَرَ أَلْفاً فَلَيْسَ لَهُمْ أنْ يَفِرُّواْ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإِنْ كَثُرَ الْعَدُوُّ). واحتَجَّ بما رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قالَ : " خَيْرُ الأَصْحَاب أَرْبَعَةٌ ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ مِنْ قِلَّةٍ ".

(٠/٠)

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَاكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ } ؛ معناهُ : لَم تقتلُوهم يومَ بدرٍ بأنفُسِكم ، ولكنَّ الله قَتَلَهم بالملائكةِ. وأضافَ اللهُ قتْلَهم إلى نفسهِ ؛ لأن السببَ في قتلِهم كان من الله تعالى ، فإنهُ هو الذي أيَّدَ المؤمنين بالملائكةِ حتى شجَّعَ قُلوبَهم ، وأنزلَ المطرَ حتى ثبَّتَ به الأقدامَ ، وألقَى في قلوب المشركين الرُّعب حتى انْهَزمُوا. وَقِيْلَ : كان المسلمون يقولُون قتَلَنَا فُلاناً وفلاناً. فأرادَ اللهُ تعالى أنْ لا يُعجَبُوا بأنفُسِهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَاكِنَّ اللَّهَ رَمَى } ؛ معناهُ : رُوي " أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : " نَاوِلْنِي كَفّاً مِنْ تُرَاب الْوَادِي " فَنَاوَلَهُ قَبْضَةً ، فَاسْتَقْبَلَ بَها وُجُوهَ الْمُشْرِكِينَ فَرَمَاهُمْ وَقَالَ : " شَاهَتِ الْوُجُوهُ وَقَبُحَتْ " فَمَلأَ اللهُ أعْيُنَهُمْ بهَا ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ أحَدٌ إلاَّ وَقَدْ شُغِلَ بعَيْنِهِ ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَهَزَمُوهُمْ ". فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } أعلمَ الله أن كفّاً من التُّراب لا يملأُ عُيونَ ذلك الجيشِ برَميَةِ بَشَرٍ ؛ لأنه تعالى تولَّى إيصالَ ذلك إلى أبصارِهم من الموضعِ الذي كان فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى أصابَ عَيْنَ كلِّ واحدٍ منهم قِسْطٌ من ذلك التُّراب.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً } ؛ أي وليُنْعِمَ على المؤمنين بالنَّصرِ والغنيمةِ والأُسَارى نعمةً حسنةً. وقوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ، أي سميعٌ لدُعائِكم ، عليمٌ بأفعالِكُم وضمائرِكم.

(٠/٠)

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ذالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } ؛ أي ذلِكُم الذي ذكرتُ من القتلِ والرَّمي والإبلاءِ الحسَنِ ، { وَأَنَّ اللَّهَ } أي واعلَمُوا أنَّ اللهُ وفي فَتْحِ (أنَّ) من الوجُوهِ مثلُ ما في قوله : { وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ }[الأنفال : ١٤] وقد بيَّناهُ. وقوله تعالى : { مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ } أي مُضْعِفُ كيدِهم. قرأ أهل الكوفة إلاَّ حفصاً وابن يعقوب وابن عامِر (مُوهِنُ) بالتخفيف ، (كَيْدَ) بالنصب ، وقرأ الحسنُ والأعمش وحفصٌ (مُوهِنُ كَيْدِ) مخففاً مضافاً بالخبرِ طَلباً للخفَّة كقوله : { مُرْسِلُواْ النَّاقَةِ }[القمر : ٢٧]{ كَاشِفُو الْعَذَابِ }[الدخان : ١٥].

(٠/٠)

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ } ؛ هذا خطابٌ للكافرين ، وذلكَ أنَّ أبَا جَهْلٍ قالَ يومَ بدرٍ قبلَ القتالِ لَهم : اللَّهُمَّ انصُرْ أعزَّ الْجُندَين وأكرَمَ الفئَتين وخيرَ الدِّينَين ، اللَّهُمَّ أيُّنا اقطعُ للرحمِ وأفسدُ للجماعةِ فَأَحِنْهُ اليومَ. فاستجابَ الله دعاءَهُ على نفسهِ ، فأتاهُ بالفتحِ فضربَهُ إبنا عَفراء عوفُ ومعاذ وأجهزَ عليه ابنُ مسعود.

وقال السديُّ والكلبي : (كَانَ الْمُشْرِكُونَ حِينَ خَرَجُواْ إِلَى بَدْرٍ ، تَعَلَّقواْ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، وَقَالُواْ : اللَّهُمَّ انْصُرْ أَعْلَى الْجُنْدَيْنِ وَأَهْدَى الْفِئَتَيْنِ وَأَكْرَمَ الْحِزْبَيْنِ وَأَفْضَلَ الدِّينَيْنِ ، اللَّهُمَّ أَيُّ الْفِئَتَيْنِ أَحَبُّ إِلَيْكَ فَانْصُرْهُمْ ، اللَّهُمَّ اقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ ، إِنْ تَسْتَنْصِرُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ النَّصْرُ ، فَنُصِرَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم). وقال عكرمةُ : (قَالَ الْمُشْرِكُونَ : اللَّهُمَّ لاَ نَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ، فَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ بِالْحَقِّ. فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةِ { إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ } أَيْ إِنْ تَسْتَحْكِمُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْحُكْمُ ، وَإِنْ تَسْتَقْضُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْقَضَاءُ).

وقولهُ تعالى : { وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } ؛ أي وإن تَنتَهُوا عن الشِّرك والمعاصي فهو خيرٌ ، { وَإِن تَعُودُواْ } ؛ إلى القتالِ ؛ { نَعُدْ } ؛ بأنْ نأمُرَ المسلمين بجهادِكم وننصُرهم عليكم. وقال بعضُهم : هذه الآيَةُ خطابٌ للمؤمنين ؛ أي اسْتَنْصِرُوا الله وَاسْأَلُوهُ الفتحَ فقد جاءكم الفتحُ والنصر ، وإنْ تنتَهُوا عن فعلِكم في الأُسارى والفداءِ يومَ بدرٍ فهو خيرٌ لكم ، وإنْ تعودُوا إلى فعلِكم بالأُسارى نَعُدْ إلى الإنكار

عليكم ، { وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً } ؛ أي وإنْ سُلب عنكم النصرُ حتى لا تُغنِي عنكم جماعتُكم شيئاً ، { وَلَوْ كَثُرَتْ } ؛ في العددِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ قرأ نافعٌ وابن عامر بخفض (إنَّ) وبفتحِ (أنَّ) بمعنى ولأَن الله ، وَقِيْلَ : عطفٌ على قولهِ{ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ }[الأنفال : ١٨] ، وَقِيْلَ : على معنى وَاعْلَمُوا أنَّ الله ، وقرأ الباقون (وإنَّ اللهَ) بالكسرِ على الابتداء ، واختارَهُ أبو عُبيد وأبو حاتم ؛ لأن قراءةَ عبد الله : (وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُؤْمِنِينَ) بالنصرِ والمعونة.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في أمرِ الغَنيمة وغيرِها ، ولا تَوَلَّوا عن أمرِ الله ، وأنتم تسمعون ما أنزلَ اللهُ تعالى ، وقال الحسنُ : (مَعْنَاهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ الْحُجَّةَ فِي وُجُوب طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ).
وأما تخصيصُ المؤمنين بالأمرِ لهم بالطَّاعة وإن كانت هذه الطاعةُ واجبةً على غير المؤمنين كوجوبها على المؤمنين ، فلأحَدِ مَعنيين : إما إجلالاً لهم ورَفعاً لقدرهم فيدخلُ غيرُهم في الخطاب على جهة التَّبَعِ لهم ، وإما لأنه لم يَعْتَدَّ بغيرِ المؤمنين ؛ لإعراضهم عما وجبَ عليهم.

(٠/٠)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } ؛ أي لا تكونوا كالذينَ قالوا سَمِعنَا على جهةِ القَبُولِ ، وهم لا يسمعون للقبولِ ، وإنما سَمعُوا به للردِّ والإعراضِ عنه ، ويقالُ : معناه : ولا تَكونوا كالَّذين قَالوا قَبلْنَا وهم لا يَقبَلون ، ومنه قولُه (سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ) أي قَبلَ اللهُ حَمْدَ مَن حَمَدُه.
واختلَفُوا فيمَن نزلت هذه الآيةُ ، قال ابنُ جُرَيج : (نَزَلتْ فِي الْمُنَافِقِينَ) وقال الحسنُ : (فِي أَهْلِ الْكِتَاب). ويقالُ : في مُشركِي العرب.

(٠/٠)

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ } ؛ معناهُ : أن شرَّ الخليقَةِ على وجهِ الأرضِ الكفَّارُ الذين لا يسمعونَ الْهُدَى ، ولا يتكلَّمُون بالخيرِ ، ولا يتدبَّرون القرآنَ. وسَمَّاهم صُمّاً بُكْماً ؛ لأنَّهم لم ينتفِعُوا بما سَمعوا من دلائلِ اللهِ تعالى ، قال الأخفشُ : (كُلُّ مُحْتَاجٍ إِلَى غَذاءٍ فَهُوَ دَابَّةٌ). ومعنى الآيةِ : إن شرَّ ما دبَّ على وجهِ الأرض من خلقِ الله تعالى الصمُّ البُكْمُ عن الحقِّ ، فهُم لا يسمعونَهُ ولا يعقلونه. وَقِيْلَ : صُمُّ القُلوب وعُميُها ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : { فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَاكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }[الحج : ٤٦].

(٠/٠)

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ } ؛ أي لو عَلِمَ اللهُ فيهم أنَّهم يصلُحون بما نوردُه عليهم من الحجَّة بآياتهِ لأَسْمَعَهُمْ إيَّاها. وَقِيْلَ : لأَسْمَعَهُمْ جوابَ كلِّ ما سألوهُ عنه ، { وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ } ؛ ولو بيَّن لهم كلَّ ما يختلجُ في أنفُسِهم لتولَّوا عن الهدى ، { وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ } ، لمعاندَتِهم.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } ؛ معناهُ : أجِيبُوا اللهَ والرسولَ. وقِيْلَ : معنى الإجابة طلبُ الموافقةِ للدَّاعي على وجهِ الطاعة. وَقِيْلَ : الجمعُ بين الاستجابةِ لله وللرسولِ ؛ أي استجِيبُوا للهِ بسَرائِركم وللرسولِ بظَواهِركم.
وقولهُ تعالى : { إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } أي إذا دعَاكُم إلى العلمِ الذي يُحييكم في أمرِ الدِّين. وَقِيْلَ :

معناهُ : إذا دعاكم إلى الجهادِ الذي يُحيي أمرَكم. وَقِيْلَ : إذا دعاكم إلى ما يكون سَبَباً للحياةِ الدَّائمة في نعيمِ الآخرة ؛ لأنه إذا حصلَ الامتثالُ بأمرِ الله ورسولهِ ، حصلت هذه الحياةُ الدائمة ، وإن لم يحصِلِ الامتثالُ أدَّى ذلك إلى العقاب الذي يتمنَّى معه الموتَ. قال القتيبي : (مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { لِمَا يُحْيِيكُمْ } يَعْنِي الشَّهَادَةَ ؛ لأنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِي الشُّهَدَاءِ{ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }[آل عمران : ١٦٩]). واللامُ في قولهِ (لِمَا) بمعنى (إلى).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ } ؛ فيه ثلاثةُ أقوالٍ ؛ أحدُها : أن معناهُ : يَحُولُ بين المرءِ وأمَلِهِ بالموتِ أو غيره من الآفَاتِ ، فبادِرُوا إلى الطاعاتِ قبلَ الحيلولَةِ ، ودَعُوا التسويفَ فإنَّ الأجلَ يَحُولُ دون الأملِ. وقال مجاهدُ : (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ لاَ يَتْرُكُهُ يَفْهَمُ وَلاَ يَعْقِلُ).

والثاني : أن معناهُ : أنَّ الله تعالى أقربُ إلى ذي القلب مِن قلبه ، فإنَّ الذي يَحُولُ بين الشَّيء وغيرهِ أقربُ إلى ذلك الشيءِ من غيره ، كما قالَ تعالى : { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }[ق : ١٦] ، وفي هذا تحذيرٌ شديد.

والثالث أن معناهُ : أن اللهَ يُقَلِّبُ القلوبَ من حالٍ إلى حالٍ كما جاء في الدُّعاء : " يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ". وقال ابنُ جبير : (يَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ أنْ يُؤْمِنَ ، وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِ أنْ يَكْفُرَ). وقال ابنُ عبَّاس والضحاك : (يَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَمَعْصِيَتِهِ ، ويَحُولُ بَيْنَ الْكَافِرِ وَطَاعَتِهِ). وقال السديُّ : (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يُؤْمِنَ ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَكْفُرَ إلاَّ بإذنِهِ).

قرأ الحسنُ : (يَحُولُ بَيْنَ الْمَرِّ) بتشديدِ الراء من غير همزٍ ، وقرأ الزهريُّ بضمِّ الميمِ والهمزة وهي لغاتٌ صحيحة.

وقولهُ تعالى : { وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } ؛ عطفٌ على قولهِ : { أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ }. معناهُ : واعلَمُوا أنَّ مَحْشَرَكُمْ في الآخرةِ إلى اللهِ ، فيَجزِي كلَّ عاملٍ بما عَمِلَ ، إنْ كان خَيراً فخيرٌ ، وإنْ كان شرّاً فشَرٌّ.

وَقِيْلَ : في آخرِ الآية تأويلُ الآيةِ ؛ أي الذي يَحُولُ بين المرءِ وقلبهِ قادرٌ على أن يُبَدِّلَ خوفَكم أمْناً ، وأمْنَ عدُوِّكم خَوفاً ، فيجعلَ القويَّ ضعيفاً والضعيفَ قوياً ، والعزيزَ ذليلاً والذليلَ عَزِيزاً ، والشُّجاعَ جَباناً ، الجبانَ شُجاعاً ، يفعلُ ما يشاء وما يريدُ فأجيبُوا الرسولَ في الجهادِ ولا تخافُوا ضعفَكم.

(٠/٠)

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً } ؛ نزلَت في عُثمانَ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُمَا ، أخبرَ اللهُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالفتنةِ التي تكون تُسَببها أنَّها ستكون بعدَك يلقاها أصحابُكَ تصيبُ الظالِمَ والمظلومَ ، ولا تكون بالظَّلَمَةِ وحدَهم خاصَّة ولكنَّها عامة ، وأخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بذلك أصحابَهُ ، فكانَ بعد وفاةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من الفِتَنِ بسبب عليٍّ وعُثمان ما لا يخفَى على أحدٍ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لاَّ تُصِيبَنَّ } جوابُ الأمر بلفظ النَّهي ، كما يقالُ : أنْزَلْ مِنَ الدَّابة لا تَطْرَحْكَ أو لا تطرَحنَّكَ ، معناهُ : أنْ تَنْزِلَ عنها لا تطرحَنَّك ، فاذا أثبَتَّ النونَ الخفيفةَ والثقيلة كان آكدَ للكلامِ ، ومنهُ قوله تعالى : { ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ }[النمل : ١٨].

والمرادُ بالفتنةِ القتلُ الذي رَكِبَ الناسَ فيه بالظُّلم ، وكان أمرُ الله أمراً باتِّقاء تركِ الإنكارِ على أهلِ المعاصي واتِّقاء الاختلاطِ بأهلِ المعصية ، قال ابنُ عبَّاس : (أمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ لاَ يقِرُّوا الْمُنْكَرَ بَيْنَ أظْهُرِهِمْ ، فَيَعُمُّهُمُ اللهُ بالْعَذاب).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ تحذيرُ شدَّة العقوبةِ لِمَن أهَاجَ الفتنَ ، قال صلى الله عليه وسلم : " الْفِتْنَةُ رَاتِعَةٌ فِي بلاَدِ اللهِ وَاضِعَةٌ خِطَامَهَا ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَهَاجَهَا " وفي بعضِ الأخبار : " الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أَيْقَظَهَا ".

(٠/٠)

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ } ؛ نَزلت في الْمُهاجرين خاصَّة ؛ أي احفَظُوا معشرَ المهاجرين إذ أنتم قليلونَ في العدَّة مقهُورون في أرضِ مكَّة ، { تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ } ؛ أي يَخْتَلِسَكُمْ ويذهبَ بكم أهلُ مكَّة ، { فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } ؛ فآواكم إلى المدينَة وأعانَكم يومَ بدرٍ بالملائكةِ ، ورزَقَكُم الحلالَ من الغنائمِ ؛ لكي تشكُرُوا اللهَ وتعرِفُوا ذلك منه فتطعيوهُ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ؛ نزلَت في أبي لُبَابَةَ بن عبدِ المنذر ، " فإنَّ بني قُرَيظةَ قالُوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ابْعَثْ لَنَا خَلِيفَةً مِنْ خُلَفَائِكَ نَنْزِلْ عَلَى حُكْمِهِ ، فأبَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أن يَنْزِلُوا إلاَّ على حُكم سعدِ بنْ مُعَاذ ، وكانوا يقولونَ : أرسِلْ إلينا أبَا لُبابة ، وَكَأنَ عيالهُ وولدهُ وأهله عندَهم ، فَبَعَثَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم ، فقالوا : يا أبَا لُبابة أنَنزِلُ على حُكم سعدِ بن معاذ ، فأشارَ بيدهِ إلى حَلْقِهِ ؛ أي إنَّهُ الذبْحُ فَلاَ تَفْعَلُوا ، ولَمْ يتكلَّم بلسانهِ ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية ، قال أبو لُبابة : (فَمَأ زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَلِمْتُ أنِّي خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ). فذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ } كما فَعَلَ أبُو لُبابة.

فلما نزلت هذه الآيةُ شدَّ أبُو لُبابَةَ نفسَهُ على سَارِيَةٍ من سَوَاري المسجدِ ، وقالَ (لاَ أذُوقُ طَعَاماً وَلاَ شَرَاباً حَتَّى أمُوتَ ، أوْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ) فمكثَ سبعةَ أيَّام لا يذوقُ فيها طعاماً ولا شَراباً حتى خَرَّ مَغشِيّاً عليهِ ، ثم تَابَ اللهُ عليه ، فجاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فَحَلَّهُ بيدهِ ، فقال أبو لُبابة : (تَمَامُ تَوْبَتِي أنْ أهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أصَبْتُ فِيْهَا الذنْبَ ، وَأنْ أتَخَلَّعَ مِنْ مَالِي) فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " يُجْزِيكَ الثُّلْثُ أن تَتَصَدَّقَ بِهِ ".

وقال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَى الآيَةِ : لاَ تَخُونُوا اللهَ بتَرْكِ فَرَائِضِهِ ، وَالرَّسُولَ بتَرْكِ سُنَّتِهِ). { وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ } أي ولا تَخُونُوا أمانَاتِكم ، انتصبَ على الظَّرفِ ؛ أي إنَّكم إن فَعَلْتُم ذلك فإنما خُنْتُمْ أمانَاتِكم عَطفاً. ويقالُ : أرادَ بقولهِ : { لاَ تَخُونُواْ اللَّهَ } الخيانَة من الغنائمِ التي هي عطيَّةُ اللهِ ، والخيانةُ للهِ فيها خيانةُ الرسولِ أيضاً ؛ لأنه هو القَيِّمُ بقِسْمَتِها ، وقولهُ : { وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ } يحتملُ الخيانةَ في الغنائمِ أيضاً ؛ لأنَّهم كلُّهم مُشتَركون فيها ، فمَنِ استبدَّ بشيءٍ منها فقد خَانَ ، ويحتملُ الخيانةَ في أثْمَانِ بعضِ الناس بعضاً من حقُوقِ أنفسهم ، وقال الأخفشُ : (قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ } عَطْفاً عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ النَّهْيِ ، تَقْدِيرُهُ : وَلاَ تَخُونُوا أمانَاتِكُمْ).

(٠/٠)

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ } ؛ معناهُ : أنَّ الإنسان ربَّما يتركُ الجهادَ ويخونُ في الأماناتِ لأجْلِ الأولادِ أو حِرْصاً على المالِ ، وقد رَوَينَا أنَّ لُبابة إنما حَمَلَهُ على ما فَعَلَ مالهُ وأهلُه وولدهُ الذين كانوا في بَنِي قريظةَ ، لأنه إنما ناصَحَهم لأجلِهم وخانَ المسلمين بسببهم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } ؛ أي ثوابٌ جَسِيمٌ في الآخرةِ لمن لَم يَعْصِ اللهَ لأجلِ المالِ والذرِّية.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ } ؛ أي إن تتَّقُوا اللهَ في الأماناتِ ، فتَمتَنِعوا من معاصيهِ بأداءِ فرائضه يجعَلْ لكم نُوراً في قلوبكم تُفرِّقون به بين الحقِّ والباطلِ. وَقِيْلَ : يجعل لكم فَتْحاً ونَصراً ، كما قال تعالى : { يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ }[الأنفال : ٤١] أرادَ به يومَ عزِّ المؤمنين وخُذلان الكافرين.
وَقِيْلَ : معناهُ يجعل لكم مَخْرَجاً ونَجاةً في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاك : (فُرْقَاناً : أيْ ثَبَاتاً). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } أي يَمحُ عنكم ذنُوبَكم ، ويستُرُ عليكم خطَايَاكم ولا يؤاخِذُكم بها ، { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } ؛ أي عظيمُ الفضلِ على عباده أسْدَى لهم بالنِّعَم.

(٠/٠)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } ذكَّر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم فعقب ما أنعم الله عليه من النصر والظفر يوم بدر وما كان من مكر المشركين في أمره بمكة فقال : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } أي اذكر تلك الحالة.
قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيشٍ اجْتَمَعُواْ فِي دَارِ النَّدْوَةِ يَمْكُرُونَ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَيَحْتَالُونَ لَهُ ، مِنْهُمْ عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنَا رَبِيعَةَ ؛ وَأَبُو جَهْلٍ ؛ وَأَبُو سُفْيَانَ ؛ وَالنَّضِرُ بْنُ الْحَارِثِ ؛ وَأَبُو الْبُخْتُرِيِّ بْنُ هِشَامٍ ؛ وَنَبِيهُ وَمُنَبِهُ ؛ وَأُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ وَرَبِيعَةُ بْنُ الأَسْوَدِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ كَبِيرٍ عَلَيْهِ ثِيَابُ أطْمَارٍ ، فَجَلَسَ بَيْنَهُمْ فَقَالُواْ : مَا لَكَ يَا شَيْخُ دَخَلْتَ فِي خَلْوَتِنَا بغَيْرِ إذنِنَا؟! فَقَالَ

: أنَا رَجُلٌ مِنْ أهْلِ نَجْدٍ قَدِمْتُ مَكَّةَ ، فَأَرَاكُمْ حَسَنَةً وَجُوهُكُمْ طَيِّبَةً رَوَائِحُكُمْ ، فَأَحْبَبْتُ أنْ أسْمَعَ حَدِيثَكُمْ فَأقْتَبِسَ مِنْكُمْ خَيْراً فَدَخَلْتُ ، وَإنْ كَرِهْتُمْ مَجْلِسِي خَرَجْتُ ، وَمَا جِئْتُكُمْ إلاَّ أنِّي سَمِعْتُ باجْتِمَاعِكُمْ فأَرَدْتُ أنْ أحْضُرَ مَعَكُمْ ، وَلَنْ تَعْدُمُوا مِنِّي رَأياً وَنُصْحاً. فَقَالُوا : هَذا رَجُلٌ لاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ.

فَتَكَلَّمُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، فَبَدأَ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ فَقَالَ : أمَّا أنَا فَأَرَى أنْ تَأْخُذوا مُحَمَّداً ، فَتَجْعَلُوهُ فِي بَيْتٍ تَسُدُّونَ عَلَيْهِ بَابَهُ ؛ وَتَشُدُّونَ عَلَيْهِ وِثَاقَهُ ؛ وَتَجْعَلُونَ لَهُ كُوَّةً تُدْخِلُونَ عَلَيْهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ، فَيَكُونُ مَحْبُوساً عِنْدَكُمْ إلى أنْ يَمُوتَ. فَقَالَ إبْلِيسُ : بِئْسَ مَا رَأيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أهْلُ بَيْتٍ ، وَقَدْ سَمِعَ بِهِ مَنْ حَوْلَكُمْ فَتَحْبِسُوهُ ، يُوشِكُ أنْ يُقَاتِلَكُمْ أهْلُ بَيْتِهِ وَيُفْسِدُواْ عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ فَقَالُوا صَدَقَ واللهِ الشَّيْخُ.

ثُمَّ تَكَلَّمَ أبُو الْبَخْتَرِيِّ فَقَالَ : أرَى أنْ تَحْمِلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ فَتَشُدُّوا وثَاقَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ تُخْرِجُوهُ مِنْ أرْضِكُمْ حَتَّى يَمُوتَ أوْ يَذْهَبَ حَيْثُ يَشَاءُ. فَقَالَ إبْلِيسُ : بِئْسَ الرَّأيِ مَا رَأيْتَ! تَعْمَدُونَ إلَى رَجُلٍ لَهُ فِيكُمْ أهْلُ بَيْتٍ ، وَقَدْ سَمِعَ بِهِ مَنْ حَوْلَكُمْ أفْسَدَ عَلَيْكُمْ جَمَاعَتَكُمْ وَمَعَهُ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ ، فَتُخرِجُونَهُ إلَى غَيْرِكُمْ فَيَأْتِيهِمْ فَيُفْسِدُ مِنْهُمْ أيْضاً جَمَاعَةً بِمَا يَرَونَ مِنْ حَلاَوَةِ كَلاَمِهِ وَطَلاَقَةَ لِسَانِهِ ، وَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَتَسْتَمِعُ إلَى حُسْنِ حَدِيثِهِ ، ثُمَّ لَيَأْتِيَنَّكُمْ بِهِمْ فَيُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَيَقْتُلَ أشْرَافَكُمْ. فَقَالُواْ : صَدَقَ واللهِ الشَّيْخُ.

فَتَكَلَّمَ أبُو جَهْلٍ فَقَالَ : أرَى أنْ تَجْتَمِعَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مِنْكُمْ رَجُلٌ يَأْخُذونَ السُّيُوفَ ، فَيَضْرِبُونَهُ جَمِيعاً ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَإذا قَتَلْتُمُوهُ تَفَرَّقَ دَمَهُ فِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا ، فَلاَ يَدْرِي قَوْمُهُ مَنْ يأْخُذُونَ وَلاَ يَقُومُونَ عَلَى حَرْب قُرَيْشٍ كُلِّهَا ، وَإنَّمَا إذا رَأوا ذلِكَ قَبلُوا الدِّيَةَ ، فَتُؤَدِّي قُرَيْشُ دِيَتَهُ وَاسْتَرَحْنَا. فَقَالَ إبْلِيسُ : صَدَقَ واللهِ الشَّابُّ ، وَهُوَ أجْوَدُكُمْ رَأْياً ، الْقَوْلُ قَوْلُهُ لاَ أرَى غَيْرَهُ. فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذلِكَ.

فَنَزَلَ جِبرِيلُ عليه السلام فَأَخْبَرَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم بذلِكَ ، وَأَمَرَهُ أنْ لاَ يَبِيتَ فِي مَضْجَعِهِ الَّذِي كَانَ يَبِيتُ فِيْهِ ، وَأَمَرَهُ بالْهِجْرَةِ إلَى الْمَدِينَةِ) وَكَانَ مِنْ أمْرِ الْغَارِ مَا كَانَ ، فذلك قولهُ { وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ } أي ليَحبسُوكَ ، وهو ما قالَهُ عمرُو بن هشام.

(٠/٠)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَاذَا إِنْ هَاذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ } ؛ يعني النَّضرَ بن الحارثِ ، وذلك أنه كان يختلفُ تَاجِراً إلى فارسَ والحِيرَةِ ، فيسمعُ سَجَعَ

أهلِها وذِكرَهم أخبارَ العَجَمِ وغيرِهم من الأُمَم ، ويَمُرُّ باليهودِ والنَّصارى فيرَاهُم يقرأُون التوراةَ والإنجيلَ ، فجاءَ مكَّةَ فوجدَ مُحَمَّداً يقرأُ القرآنَ ، فقالَ : (قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذا إِنْ هَذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) أي أخبارُ الأُمَم الماضيةِ وأسماؤُهم. وكان النضرُ يقول : إن هذا الذي يحدِّثُكم به مُحَمَّد ما هو إلا مثلُ ما أحدِّثُكم به من أحاديثِ الأوَّلين ، وكان النضرُ كثيرَ الحديث عن الأممِ الخالية.

(٠/٠)

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَاذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ؛ نزلَتْ في النَّضرِ بن الحارثِ أيضاً ، قال : لو شئتُ لقُلْتُ مثلَ هذا ، إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلين في كُتبهم ، ثم قال : اللَّهُمَّ إن كان هذا الذي يقولهُ مُحَمَّدٌ هو الحقُّ من عندِكَ ، فأمطِرْ علينا حجارةً من السَّماء ، كما أمطَرْتَها على قومِ لُوطٍ ، أو ائْتِنَا ببعضِ ما عذبتَ به الأُمَمَ فيه ، فَنَزلَ{ سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ }[المعارج : ١-٢] وكان النضرُ من بني عبدِ الدَّار.
ومعنى الآيةِ : واذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذا قالُوا : اللَّهُمَّ... وأنتَ بين أظهُرِهم بمكَّة ، فلم يُعذِّبهم اللهُ حينئذٍ وَعذبَهم من بعدُ ، فأُسِرَ النضرُ يومَ بدرٍ وقُتِلَ صَبراً ، وكان الذي أسَرَهُ المقدادُ بن الأسودِ. وقولهُ تعالى : { هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ } عناداً وتوكيداً وصِلَةً في الكلامِ ، و { الْحَقَّ } نُصِبَ بخبرِ كان.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (قَالَ الحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَل : يَا مُحَمَّدُ ، وَاللهِ إِنَّكَ فِينَا لَصَادِقٌ وَلاَ نَتَّهِمُكَ ، وَلَكِنَّا مَتَى نُؤْمِنُ بِكَ غَزَانَا الْعَرَبُ ، فَنَزَلَ { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ }) أي مُقيماً بين أظهُرِهم ، ولَم تُعَذبْ أُمَّة قط ونبيُّها بين أظهُرِها حتى يخرجَ منها. { وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ } أي وما كان اللهُ ليُسَلِّطَ عليهم عدُوَّهم { وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } أي يُصَلُّونَ.

(٠/٠)

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } ؛ يعني عذابَ الآخرةِ ، وعن عبدِالرحمن بن أبزي قال : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بمَكَّةَ ، فَنَزَلَ{ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ }[الأنفال : ٣٣] فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَدِينَةِ فَنَزَلَ{ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }[الأنفال : ٣٣] وَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَقِيَّةٌ بمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُواْ ، وَكَانُوا يَسْتَغْفِرُونَ اللهَ وَيُصَلُّونَ ، فَلَمَّا خَرَجَ كُفَّارُ مَكَّةَ إِلَى حَرْب بَدْرٍ ، وَنَزَلَ قَوْلُهُ { وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } أَيْ يَمْنَعُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ فَعَذَّبَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ).

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَآءَهُ } ؛ أي ما كان الكفَّارُ أولياءَ المسجدِ الحرام ، قال الحسنُ : (وَذلِكَ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَقُولُونَ : نَحْنُ أَوْلِيَاءُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَرَدَّ اللهُ ذلِكَ عَلَيْهِمْ). وَقِيْلَ : معناهُ : وما كانوا أولياءَ اللهِ. وقولهُ تعالى : { إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ } ؛ أي مَا أولياءُ اللهِ ، وَقِيْلَ : ما أولياءُ المسجدِ الحارمِ إلا المتّقونَ الشِّركَ ، { وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ } ؛ الكفار ، { لاَ يَعْلَمُونَ } ، ذلكَ.

(٠/٠)

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً } ؛ يعني : إنَّ تقرُّبَ المشركين إلى اللهِ كان بالصَّفِيرِ والتَّصفِيقِ ، كانوا يفعَلون ذلكَ عندَ البيتِ مكانَ الدُّعَاءِ والتَّسبيحِ. وَقِيْلَ : كَانُوا يأْتُون بأفعالِ الصَّلاةِ ، إلاَّ أنَّهم مع ذلكَ يُصَفِّرُونَ فيها ويُصَفِّقونَ.

وَالْمُكَاءُ : طائرٌ أبيض يكون في الحجاز يُصَفِّرُ يسمَّى باسم بصوته ، ويقالُ : مَكَا يَمْكُو إذا صَفَّرَ. وصَدَى تَصْدِيَةً إذا صَفَّقَ بيدهِ.

وقال مقاتلُ : (كَانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَامَ رَجُلاَنِ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ عَنْ يَمِينِهِ وَرَجُلاَنِ عَنْ يَسَارِهِ ، فَيُصَفِّرُونَ كَمَا يُصَفِّرُ الْمُكَاءُ ، وَيُصَفِّقُونَ بأَيْدِيهِمْ ؛ لِيَخْلِطُواْ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله

عليه وسلم وَقِرَاءَتَهُ ، وَكَانُواْ يَفْعَلُونَ كَذلِكَ بصَلاَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، فَقَتَلَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ). وذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } ؛ ويقالُ : أرادَ بهذا أنه يُقال لهم يومَ القيامةِ : { فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } وقال أبُو جَعفر : (سَأَلْتُ أبَا سَلَمَةَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً } فَجَمَعَ يَدَيْهِ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِمَا صَفِيراً). وقال ابنُ عبَّاس : (كَانَتْ قُرَيْشُ يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً ، وَيُدْخِلُونَ أصَابعَهُمْ فِي أفْوَاهِهِمْ فَيُصَفِّرُونَ).

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ } ؛ نزلَت هذه الآيةُ في الْمُطْعِمينَ منهم يومَ بدرٍ ، وكانوا ثلاثةَ عشَرَ رجُلاً وهم : أبُو جَهلٍ وأخوهُ الحارثُ ؛ والنَّضرُ بن الحارثِ ؛ وأُبَيُّ بن خلَفٍ ؛ وزَمْعَةُ بنُ الأسوَدِ ؛ وعُتبة وشَيْبةُ ، كان لكلِّ واحدٍ منهم نوبَةُ يومٍ في الإطعامِ.

ومعنى الآية : إنَّ الذين كفَرُوا يُنفِقُونَ أموالَهم على عدَاوَةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليَصُدُّوا الناسَ عن دين اللهِ ، فيستقبحُ هذه الإنفاق منهم ، ثم يكون إنفاقُهم ندامةً عليهم يومَ القيامة ، يُهزَمُونَ ويُقتلون ببدرٍ لا تنفعُهم نفقتهم.

والْحَسْرَةُ : مأخوذةٌ من الكَشْفِ ، يقالُ : حَسَرَ رَأْسَهُ إذا كَشَفَهُ ، والْحَاسِرُ : كاشِفُ الرَّأسِ ، فيكونُ المعنى : ثم يَكْشِفُ لهم عن ذلكَ ما يكونَ حَسْرَةً علِيهم. قِيْلَ : كان يُطعِمُ كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يومٍ عَشْرَ جُزُرٍ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } ؛ بيانُ أنَّ ذلك القتلَ والهزيمةَ لا يُكفِّران ذُنوبَهم ، وأنَّهم يُحشرون في الآخرةِ إلى جهنَّم للجزاءِ.

(٠/٠)

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧)

وقولهُ تعالى : { لِيَميزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ } ؛ أي ليَميزَ اللهُ نفقةَ المؤمنين من نفقةِ الكافرين ، والعملَ السَّيِّءَ من العملِ الصَّالحِ. وقُرِئَ (لِيُمَيِّزَ اللهُ) بالتشديد ، والمعنى : لِيُمَيِّزَ اللهُ ذلك الحشرَ الخبيثَ من الطيِّب ؛ أي الكافرَ من المؤمنِ ، فيُنْزِلَ الْمُحِقَّ الجنانَ والكافرَ النِّيران.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ } ؛ أي يجعلَ ما أنفقَهُ المشركون في معصيةِ الله بعضَهُ فوقَ بعضٍ ، فيجعلهُ رُكَاماً فيُكَوَّي بذلك جِبَاهُهم وجنُوبُهم في جهنَّم.

وَقِيْلَ : أرادَ بقولهِ { فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً } طَرْحَ بعضهِ على بعضٍ ، كما يفعلُ بالمتاعِ الخفيف تَحقِيراً له.

وَقِيْلَ : معنى (فَيَرْكُمَهُ) أي يجمَعهُ حتى يصيرَ كالسَّحاب الْمَرْكُومِ وهو المجتَمِعُ الكثيفُ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ. وقولهُ تعالى : { أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } ؛ أي هم الذين خَسِرُوا أنفُسَهم في الدُّنيا والآخرةِ ، وغُشَّتْ صفقَتُهم وخَسِرَتْ تجارَتُهم ؛ لأنَّهم اشتَرَوا بأموالِهم عذابَ اللهِ في الآخرةِ.

(٠/٠)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ } ؛ أي قُل لأبي سُفيان وأصحابهِ إنْ ينتَهُوا عن الشِّرك وقتالِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم { يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ } أي ما قد مَضَى من ذُنوبهم قبلَ الإسلام ، { وَإِنْ يَعُودُواْ } ؛ لقتالِ مُحَمَّدٍ ، { فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } ، في نصرِ الأنبياء والأولياءِ وهَلاكِ الكفَّار ، وإنَّ للكفارِ النارَ في الآخرة. وأنشدَ بعضُهم : يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إذا اعْتَرَفْ ثُمَّ انْتَهى عَمَّا أتَاهُ وَاقْتَرَفْلقولهِ { قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ }.

(٠/٠)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ } ؛ أي قاتِلُوا كفَّارَ مكَّة حتى لا يكون شِرْكٌ. وَقِيْلَ : حتى

لا يكون كافِرٌ بغيرِ عهدٍ ؛ لأن الْفِتْنَةَ إنما تكون بأَنْ يُتْرَكَ الْكُفَّارُ بلاَ عَهْدٍ ، فإنَّ الْكَافِرَ بغَيْرِ عَهْدٍ يَكُونُ عَزيزاً فِي نَفْسِهِ يَدْعُو النَّاسَ إلَى دِينِهِ. ويجوزُ أن يكون المرادُ بالفتنةِ كلَّ ما يؤدِّي إلى الفسادِ.
وقولهُ تعالى : { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله } ؛ أي وتكون الطاعةُ كلُّها للهِ ، فتجتمعُ الناسُ على دِين الإسلامِ.
وقولهُ تعالى : { فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ؛ أي فإن انتَهَوا عن الشِّركِ فإنَّ اللهَ يجازيهم جزاءَ البصِير بأعمالِهم. { وَإِن تَوَلَّوْاْ } ؛ أي أعرَضُوا عن طاعةِ اللهِ ، { فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ } ؛ أي نَاصِرُكم ، { نِعْمَ الْمَوْلَى } ؛ نِعْمَ الحافظِ والوَلِيِّ ، { وَنِعْمَ النَّصِيرُ } ؛ مُنصِرُكم عليهم.

(٠/٠)

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } ؛ حتى الْخَيْطَ وَالْمَخِيطَ ، قال ابنُ عَبَّاس : (كَانَ خُمُسُ الْغَنِيمَةِ يُقْسَمُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ ، سَهْمٌ للهِ وَرَسُولِهِ ، وَوَاحِدٌ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُعْطِي فِيْهِ الْمُحْتَاجَ وَالضَّعِيفَ وَيَجْعَلُهُ فِي عِدَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ السِّلاَحِ وَنَحْوِهِ ، وَسَهْمٌ لِذوِي قَرَابَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وَسَهْمٌ لِيَتَامَى الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، وَسَهْمٌ لِمَسَاكِينِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَهْمٌ لابْنِ السَّبِيلِ. ثُمَّ قَسَمَهُ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، عَلَى ثَلاَثَةِ أَسْهُمٍ لِلْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَكَذلِكَ فَعَلَ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ).
وبهذا أخذ أبو حَنيفة وأصحابهُ ؛ قالوا : إنَّ قولَهُ تعالى { للَّهِ خُمُسَهُ } لافتتاحِ الكلامِ باسمه تعالى على طريقِ التبرُّك ، لا لأنَّ للهِ نصيباً من الْخُمُسِ ، فإنَّ الدُّنيا والآخرة كلُّها لهُ سُبحانه ، وسهمُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَقَطَ بموتهِ ؛ لأن الأنبياءَ عليهمُ السَّلام لا يُورِّثُونَ ، وبينَهم ذوِي القراباتِ كان جعل النبيِّ صلى الله عليه وسلم سهمَهُ في مَن شاءَ منهم ، ألاَ ترى أنه أعطَى بني هاشم وبني المطَّلب ، وأحرمَ بني نوفل وبني عبدِ شمس مع مساواتِها بني عبدِ المطلَّب في القُرْب ؛ لأن بني هاشم لم يفارقوهُ في جاهليَّة ولا إسلامٍ ، وإذا بَطَلَ هذان السَّهمان بعدَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ورَجَعْنَا إلى السِّهام الثلاثةِ التي ذُكرت مَعَهُما ، فقُسِّمَ الخمُسُ على ثلاثةِ أسهُم ، ويدخلُ في استحقاقهِ فقراءُ بني هاشم دونَ أغنيائِهم بدلاً عمَّا حُرِمُوا من الصَّدقات ، وأربعةُ أخماسِ الغَنيمة للغَانِمين.
واليَتِيمُ من كلِّ جنسٍ من الحيوان الذي ماتَتْ أمُّهُ ، إلا من بَني آدمَ فإنه إذا ماتَ أبوهُ. والمسكينُ الذي أسْكَنَهُ الضعفُ عن النُّهوضِ لحاجتهِ. وابنُ السَّبيلِ المنطقعُ عن مالهِ.

وقال بعضُهم : يُقسَمُ الخمُس الآنَ على أربعةِ اسهُم ، فينفردُ سهم قرابةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقال الشافعيُّ : (يُقْسَمُ الْخُمُسُ الآن عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ ، سَهْمٌ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُصْرَفُ إِلَى الأَهَمِّ فَالأَهَمِّ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ) ، ومِن أصحابِه مَن قالَ : يصرفُ إلى الخليفةِ ، وسهمُ قرابةِ ذوي النبيِّ صلى الله عليه وسلم لأغنيائِهم وفُقَرائِهم ، وثلاثةُ أسهُمٍ لليتامَى والمساكين وابنِ السَّبيل.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } ؛ معناهُ : اقبَلُوا ما أُمِرتُم به في الغنيمةِ إن كُنتم صدَّقتُم بتوحيدِ الله ، وبما أنزَلنا على عبدِنا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ، وقولهُ تعالى : { يَوْمَ الْفُرْقَانِ } أي يومَ بدرٍ فُرِّقَ فيه بين الحقِّ والباطلِ بنصرِ المؤمنين وكَبْتِ الكافرين مع ضَعفِ المسلمين وقَتلِهم. وقولهُ تعالى : { يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ } أي يومَ جَمْعِ الكافرين والمؤمنين ، { وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } ؛ من نصرِ المؤمنين وغير ذلك.

(٠/٠)

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ } ؛ أي اذكرُوا يا أصحابَ مُحَمَّدٍ إذ كُنتم بالعُدوَةِ الدُّنيا ، أي شَفِيرِ الوادِي الذي يَلِي المدينةَ ، يقالُ لشَفِيرِ الوادِي عَدْوَةٌ وَعِدْوَةٌ ، { وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى } يعني المشركينَ بالجانب الآخر من الوَادِي على شفير الأبعدِ من المدينةِ ، وهو الجانبُ الذي يَلي مكَّةَ. وقوله تعالى { وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ } أي والقافلةُ الْمُقْبلَةُ من الشَّام التي كان أبو سُفيان فيها كانت أسفلَ منهم بثلاثةِ أميالٍ كانوا نَازِلين أسفلَ الوادي.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ } ؛ أي إنَّ اللهَ جَمَعَكم مع المشركين وأصحاب العِيرِ في ليلةٍ واحدة بمَنْزِلٍ واحدٍ ، ولو تَواعَدْتُم للاجتماعِ هناكَ لاختلَفْتُم في المعيادِ بالعوائقِ التي تعوقُ عن ذلك ، وبأنَّكم لو كُنتم تعلمون كثرةَ عددِ المشركين وقلَّةَ عَدَدِكم لم تَحضُروا في ذلك المكان للقتالِ.

وقولهُ تعالى : { وَلَاكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } ؛ أي ولكن قَدَّرَ اللهُ اجتماعَكم في ذلك المكانِ ليَقْضِيَ الله أمْراً كائناً لا محالةَ من إعزازِ المسلمين وإعلائِه " الإسلام ". على سائرِ الأديان.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ } ؛ أي ليَمُوتَ من ماتَ منهم بعد قيامِ الحجَّة عليهم ، { وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } ؛ ويعيشَ من عاشَ بعد قيامِ الحجَّة عليهم ، { وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ } ؛ بمقالَتِكم ، { عَلِيمٌ } ؛ بضمائرِكم ، يُجازيكم على قدرِ أعمَالِكم.

قرأ أهلُ مكَّة والبصرة (بالْعِدْوَةِ) بكسرِ العين ، وقرأ الباقون بضمِّها وهما لُغتان مشهورتان كالكِسْوَة والكُسْوَة والرِّشْوَة والرُّشْوَة ، وكذلك قَوْلُهُ تَعَالَى : { مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } قرأ نافعُ والبزي وخلَفٌ (حَيِيَ) بيائين مثل (حَيِيَ) على الأصلِ ، وقرأ الباقون بياءٍ واحدة مشدَّدة على الإدغامِ ، ومعنى { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ } أي ليَمُوتَ من ماتَ عن بيِّنة رآها وغيرةٍ عاينَها ، أو حجَّة قامت عليه ، وكذلكَ حَيوةُ من يحيَى لوعدهِ{ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً }[الإسراء : ١٥].

(٠/٠)

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً } ؛ قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رَأى الْعَدُوَّ قَلِيلاً فِي الْمَنَامِ ، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى أصْحَابِهِ ، فَلَمَّا الْتَقَواْ بِبَدْرٍ قَلَّلَ اللهُ الْمُشْرِكِينَ فِي أعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْدِيقاً لِرُؤْيَا النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم) ، { وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ } ؛ أي لَجَبنْتُمْ وتأخَّرتُم عن الصَّفِّ ولاخْتَلَفْتُم في أمرِ الحرب ، والفَشَلُ هو ضَعْفٌ مع الوَجَلِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ } التَّنازُعُ أنْ يحاولَ كلُّ واحدٍ من الاثنين أن يَنْزِعَ صاحبَهُ مما هو عليهِ ، { وَلَاكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ } ؛ أي سلَّمَكم من ذلك ، { إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } ؛ أي بما في قُلوبكم ، عَلِمَ أنَّكم لو عَلِمْتُم كثرةَ عددِ المشركين لرَغِبتم في القتالِ.

(٠/٠)

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

قولُه : { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ } ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى قلَّلَ المشركين في أعيُنِ المسلمين ليتجرَّأ المسلمون على قتالِهم ، وقلَّلَ المسلمين في أعيُن المشركين كَيْلاَ يَستَعِدَّ المشركون لِحَربهم كلَّ الاستعدادِ.
رُوي عن عبدِالله بن مسعود أنهُ قال : (قُلْتُ لِرَجُلٍ بجَنْبي : أتُرَاهُمْ تَسْعِينَ رَجُلاً ؟ قَالَ : هُمْ قَرِيبٌ مِنَ

الْمِائَةِ ، فَلَمَّا أسَرْنَا رَجُلاً مِنْهُمْ سَأَلْنَاهُ عَنْ عَدَدِهِمْ ، قالَ : كُنَّا أَلْفاً أوْ تِسْعُمِائَةٍ وَخَمْسِينَ).
وقولهُ تعالى : { لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } قد تقدَّم تفسيرهُ ، والفائدةُ في إعادتهِ أنَّ المرادَ بالأوَّل إعلاءُ الإسلامِ على سائرِ الأديان ، وبالثاني قتلُ المشركين وأسْرهم يومَ بدر وكلاهما كان كائناً في علمِ الله.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ } ؛ أي إذا لقِيتُم جماعةً من الكفَّارِ فاثبتُوا لقتالِهم ، واذكرُوا اللهَ كثيراً في الحرب بالدُّعاء والاستغفارِ ؛ لكي تُفلِحُوا بالظَّفرِ على الأعداءِ.

(٠/٠)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ } ؛ أي أطِيعُوا اللهَ ورسولَهُ في الثَّباتِ على القتالِ ولا تختَلفُوا فيما بينكم في لقاءِ العدوِّ والتقدُّم إلى قتالِهم فتَجبُنُوا من عدوِّكم ، { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } ؛ قال قتادةُ : (يَعْنِي ريحَ النَّصْرِ) الَّتِي يَبْعَثُهَا اللهُ مَعَ مَنْ يَنْصُرُهُ كَمَا قَالَ عليه السلام : " نُصِرْتُ بالصَّبَا ".
وَقِيْلَ : معناهُ : وتذهبَ دولَتكم وقوَّتُكم ، وقال مجاهد : (وَتَذْهَبَ نُصْرَتُكُمْ) ، وقال السديُّ : (جُرأتُكُمْ وَحِدَّتُكُمْ وَجَلَدُكُمْ). وقولهُ تعالى : { وَاصْبِرُواْ } ؛ أي اصبروا على قتالِ المشركين ولا تولُّوهم الأدبارَ ، { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } ، بالنصرِ والمعونة.

(٠/٠)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ النَّاسِ } أي قاتَلُوا لوجهِ الله ولا تكونُوا في خروجِكم إلى قتال المشركين كالْمُشرِكين الذين خرَجُوا من ديارهم إلى قتالِ المسلمين بَطَراً وهو الطُّغيان في النِّعمة وريَاءِ الناسِ ، والرِّياءُ : هو إظهارُ الجميلِ مع إبطَانِ القبيحِ. قَوْلُهُ تَعَالى : { وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } ؛ أي هُم مع بَطَرِهم وريَائِهم يَمنَعُونَ الناسَ عن دينِ الله.
قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ أنَّ بَعْضَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لأَبي جَهْلٍ وَأصْحَابِهِ قَبْلَ وُصُولِهِمْ إلَى بَدْرٍ : ارْجِعُواْ إلَى مَكَّةَ فَقَدْ نَحَتِ الْعِيرُ ، قَالُواْ : لاَ حَتَّى تُنْحَرَ الْجَزُورُ وَتُشْرَبَ الْخُمُورُ وَتُغَنِّي الْقَيْنَاتُ ، حَتَّى تَسْمَعَ الْعَرَبُ بمَسِيرِنَا. فَنَزَلُواْ ببَدْرٍ وَمَعَهُمُ الْقَيْنَاتُ بالدُّفُوفِ وَيَتَغَنَّيْنَ بِهِجَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَسَقَاهُمْ كَأْسَ الْمَنَايَا مَكَانَ الْخُمُور ، وَنَاحَتْ عَلَيهِمُ النَّوَائِحُ مَكَانَ الْقَيْنَاتِ ، فَنَهَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أنْ يَكُونُواْ مِثْلَهُمْ ، وَأمَرَهُمْ بإخْلاَصِ النِّيَّةِ وَالصَّبْرِ فِي نَصْرِ دِينهِ وَمُؤَازَرَةِ نَبيِّهِ صلى الله عليه وسلم).

(٠/٠)

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ } ؛ أي واذْكُرُوا إذ زَيَّنَ لَهم الشيطانُ أعمالَهم يومَ بدرٍ ، وقالَ : لاَ غَالِبَ لكم اليومَ مِن أحدٍ من الناس فمنَعْتُكُم وكثَّرْتُكم وإنِّي دافعٌ عنكم الشرَّ ، { فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ } ؛ أي لَمَّا توافَقَتا رجعَ الشيطانُ القَهْقرَى على عَقِبَيهِ هَارباً خَوْفاً مما رأى ، { وَقَالَ } ؛ للمشركين : { إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا } ؛ أي الملائكةَ تَنْزِلُ من السَّماء وأنتم ، { لاَ تَرَوْنَ } ؛ وكان يعرفُ الملائكةَ ويعرفونَهُ.
قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ } ؛ أي أخافهُ أنْ يُصيبَني معَكم بعذابِهِ ، { وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ لِمَنِ استحقَّهُ ، قال مقاتلُ : (كَذبَ عَدُوُّ اللهِ ، مَا كَانَ بِهِ مِنْ خَوْفٍ مِنَ اللهِ ، فَإنَّ اللهَ قَدْ أنْظَرَهُ إلَى الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ، وَلَكِنَّهُ خَذلَهُمْ عِنْدَ الشِّدَّةِ). ويقالُ : ظنَّ إبليسُ أن الوقتَ الذي أنظرَهُ اللهُ قد حضرَ.
وعن ابنِ عبَّاس : (أنَّ أهْلَ مَكَّةَ لَمَّا وَجَدُواْ الْعِيرَ أرَادُوا الرُّجُوعَ ، فَتَمَثَّلَ لَهُمْ إبْلِيسُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ : سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْشَمٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، فَقَالَ : لاَ تَرْجِعُواْ حَتَّى تَسْتَأْصِلُوهُمْ ، فَإنَّكُمْ كَثِيرٌ وَهُمْ

قَلِيلٌ ، وَلاَ غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي مُعِينٌ لَكُمْ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، فلاَ تَمُرُّونَ بأحَدٍ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ إلاَّ سَارَ مَعَكُمْ ، فَإِنَّهُمْ لاَ يُخَالِفُونَنِي.

فَسَارُواْ وَسَارَ إبْلِيسُ مَعَهُمْ ، وَلَمْ يَخْرُجْ أحَدُ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ ، فَجَعَلُواْ يَقُولُونَ : يَا سُرَاقَةُ أيْنَ مَا ضَمَمْتَ لَنَا ؟ فَيَقُولُ : مُرُونِي ، حَتَّى قِدِمُوا بَدْراً ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْقِتَالِ رَأى إبْليسُ جِبْرِيلَ فَنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ رَاجِعاً ، وَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ : يَا سُرَاقَةُ أيْنَ تَذْهَبُ ؟ فَقَالَ : إنِّي أرَى مَا لاَ تَرَوْنَ ، فَقَالَ الْحَارِثُ : وَمَا تَرَى إلاَّ جَعَاشِيشَ أهْلَ يَثْرِبَ ؟ – وَالْجُعْشُوشُ : الرَّجُلُ الْقَصِيرُ – فَلَمَّا رَأى الْحَارِثُ إبْلِيسَ يَنْطَلِقُ ، أهْوَى بِهِ لِيَأْخُذهُ ، فَدَفَعَهُ إبْلِيسُ فَرَمَى بِهِ ، ثمَّ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وقَالَ : – إني – أخَافُ اللهَ ، وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَاب.

فَلَمَّا انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ جَعَلُوا يَقُولُونَ : هَزَمَ النَّاسَ سُرَاقَةُ ، فَبَلَغَ ذلِكَ سُرَاقَةُ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : بَلَغَنِي أنَّكُمْ تَقُولُونَ أنِّي هَزَمْتُ النَّاسَ! وَالَّذِي نَحْلِفُ بِهِ مَا بَلَغَنِي مَا تَقُولُونَ وَلاَ سَمِعْتُ بمَسِيرِكُمْ حَتَّى بَلَغَنِي هَزِيْمَتُكُمْ ، فَجَعَلُواْ يَقُولُونَ لَهُ : أمَا أتَيْتَنَا يَوْمَ كَذا وَكَذا ؟ وَهُوَ يَقُولُ : لاَ ؛ وَالَّذي نَحْلِفُ بِهِ مَا كَانَ مِنْ ذا قَلِيلٍ وَلاَ كَثِيرٍ. فَلَمَّا أسْلَمُواْ عَرَفُوا أنَّهُ إنَّما كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ).

فإنْ قِيْلَ : كيفَ يجوزُ أن يتمكَّن إبليسُ مِنْ أن يخلعَ صورةَ نفسِهِ ويلبسَ صورةَ سُراقة ؟ ولو كان قادِراً على أن يجعلَ نَفسَهُ صورةَ إنسانٍ كان قادراً على أن يجعلَ غيرَهُ إنسَاناً ؟ قِيْلَ : إذا صَحَّتْ هذه الروايةُ ، فالجوابُ : أن اللهَ خَلَقَ إبليسَ في صُورةِ سُراقة ، واللهُ تعالى قادرٌ على خلقِ إنسان في مثلِ صورة سُراقة ابتداءً ، فكان قادراً على أن يُصوِّر إبليسَ في مثل صورةِ سُراقة.

(٠/٠)

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَاؤُلاءِ دِينُهُمْ } ؛ قرأ الحسنُ : (الَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُمُ الْمُشْرِكُونَ). وَقِيْلَ : هم أناسٌ كانوا قد تكلَّموا بكلمةِ الإيمان حين كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمكَّة من دون علمٍ منهم بأمرِ رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم فيكون معنى قولهِ : { وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ } أي شَكٌّ ، وهم الذين لا عزيمةَ لهم في الكُفرِ ولا في الإسلامِ ، ولم يكونوا أعداءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { غَرَّ هَاؤُلاءِ دِينُهُمْ } قال ابنُ عباس : (لَمَّا نَفَرَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ إلَى بَدْرٍ وَلَمْ يُخْلِفُوا بمَكَّةَ أحَداً قَدِ احْتَلَمَ إلاَّ خَرَجُواْ بِهِ ، وَأخْرَجُواْ مَعَهُمْ أُنَاساً كَانُوا قَدْ تَكَلَّمُوا بالإسْلاَمِ بمَكَّةَ ، فَلَمَّا الْتَقَوْا

وَرَأَوْا قِلَّةَ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ ، ارْتَابُوا وَنَافَقُواْ وَقَالُواْ لأَهْلِ مَكَّةَ : غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ ، يَعْنُونَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّهُمْ دِينُهُمْ حِينَ خَرَجُواْ مَعَ قِلَّتِهِمْ إِلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ كَثْرَتِهِمْ). فَقُتِلَ هَؤُلاَءِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ ، وَضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي ومَن يَثِقْ باللهِ في جميعِ أمُورِهِ ، { فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ } ؛ بنصرِهِ على عدوِّهِ ولو كَثُرَ عددهُ ، { حَكِيمٌ } يضعُ الأمورَ مواضِعَها.

(٠/٠)

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } ؛ أي لو ترَى يا مُحَمَّدُ حين يَقبضُ الملائكةُ أرواحَ الكفَّار ببَدْرٍ يضربُونَ على وجُوهِهم بالأعمِدَةِ ، وعلى أدبارِهم يقولون لَهم : { وَذُوقُواْ } ؛ بعدَ السَّيف في الدُّنيا ، { عَذَابَ الْحَرِيقِ } ؛ في الآخرةِ.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } ؛ أي ذلكَ العذابُ الذي عَايَنْتُمُوهُ بكُفرِكم وخِيانَتِكم ، والخيانةُ إذا أُضيفَت إلى الإنسان أكّدت بذكر اليَدِ في العادةِ. وقولهُ تعالى : { وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } ؛ أي اعلَمُوا أنَّ الله لا يُعذِّبُ أحداً بجُرمِ أحَدٍ ولا يعذِّبُ أحداً بغيرِ ذنبٍ. وموضع (أنَّ) نصبٌ بنَزعِ الخافض عَطفاً على قولهِ { بِمَا قَدَّمَتْ } تقديرهُ : وبأن اللهَ ، وكان الحسنُ إذا قرأ هذه السُّورة قال : (طُوبَى لِجَيْشٍ قَائِدُهُمْ رَسُولُ اللهِ ، وَمُبَارِزُهُمْ أَسَدُ اللهِ ، وَجِهَادُهُمْ طَاعَةُ اللهِ ، وَمَدَدُهُمْ مَلاَئِكَةُ اللهِ ، وَثَوَابُهُمْ رِضْوَانُ اللهِ).

(٠/٠)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ أي عَادَةِ هؤلاءِ في كُفرهم ، كعَادةِ آل فرعون والذين مِن قبلهم ، { كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ } ، التي أتَتَهُمْ بْها الرُّسُولُ ، { فَأَخَذَهُمُ } ؛ فعَاقَبَهم ، { اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ } ؛ في أخذِ الأعداء ، { شَدِيدُ الْعِقَابِ } ؛ لِمَن عصاهُ.
والدَّأبُ في اللغة : الْعَادَةُ ، يقالُ : فلانٌ يَدْأبُ في كذا ؛ أي يُدَاوِمُ عليه ويُتعِبُ نفسَهُ فيه. وآلُ الرَّجُلِ : الذين يَرجِعُونَ إليه بأَوْكَدِ الأسبَاب ، ولهذا يقالُ لقرابةِ الرجُل : آلُ الرَّجُلِ ولا يقالُ لأصحابِهِ : آلُهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } قال ابنُ عبَّاس : (مَعْنَاهُ كَفِعْلِ آلِ فِرْعَوْنَ) ، وقال عطاء ومجاهدُ : (كَنِيَّتِهِمْ) ، وَقِيْلَ : كَمِثَالِهِم ، والمعنى : أنَّ أهلَ بدرٍ من المشركين فَعَلُوا كفِعْلِ آل فرعون من الكُفر والتكذيب ، ففعلَ اللهُ بهم كما فعل بآلِ فرعون من الهلاكِ والعذاب.

(٠/٠)

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } ؛ أي لم يفعلِ اللهُ ذلك العقابَ بهم بأنَّ الله لَمْ يَكُ مُزيلاً نعمةً أنعَمَها على قومٍ حتى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم في الدِّين والنِّعَم إلى أحوالٍ لَم يَجُزْ لهم أن يغيِّروا إليها ، كما فعلَ أهلُ مكَّة بعد أنْ أطعَمَهم اللهُ من جُوعٍ وآمَنَهُم من خوفٍ ، وأرسلَ إليهم رَسُولاً منهم ، وأنزلَ إليهم كِتَاباً بلسانِهم. ثم إنَّهم غيَّروا هذه النِّعَم ولم يَشكرُوها ولا عرَفُوها من اللهِ ، فغيَّرَ اللهُ ما بهم وأهلَكَهم وعاقَبَهم ببدرٍ ، وُيدخِلُهم النارَ في الآخرةِ.
قال الكلبيُّ : (يَعْنِي بالآيَةِ أَهْلَ مَكَّةَ ، بَعَثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم ، فَغَيَّرُواْ نِعْمَةَ اللهِ ، وَتَغْيِيرُهَا كُفْرُهَا وَتَرْكُ شُكْرِهَا) ، وقال السديُّ : نِعْمَةُ اللهِ يَعْنِي مُحَمَّداً ، أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ فَكَذبُوهُ وَكَفَرُواْ بِهِ ، فَنَقَلَهُ اللهُ إِلَى الأَنْصَارِ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ؛ أي سميعٌ لجميعِ المخلوقاتِ المسموعات ، عليمٌ لمعاناتكم.

(٠/٠)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } ؛ أي عادَتِهم في التكذيب بآيَاتِ اللهِ كعَادَةِ آلِ فرعون ، { وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ } ؛ من الأُمَم الماضيةِ ، { كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ } ؛ التي جاءَتْ بها رُسُلهُم ، { فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ } ؛ أي وأهلَكْنا ، { آلَ فِرْعَونَ } بالغَرقِ خاصَّة ، { وَكُلٌّ } ؛ هؤلاءِ ، { كَانُواْ ظَالِمِينَ } ؛ لأنفُسِهم ، مُستحقِّينَ العقوبةَ بسُوءِ أعمالهم.
فإن قِيْلَ : لِمَ كرَّرَ آلَ فرعون ؟ قِيْلَ : المرادُ بالأوَّل أن هؤلاءِ جازَاهُم اللهُ بالقتلِ والأَسْرِ ، كما جُوزِيَ أولئكَ بالغرقِ والهلاك ، والمرادُ بالثاني : أن صُنْعَ هؤلاءِ في النِّعم التي أنعمَ اللهُ عليهم كصُنعِ آلِ فرعون فيما أعطاهم اللهُ من الْمُلْكِ والعزِّ في الدُّنيا ، فلما غَيَّرَ كلُّ فريقٍ النعمَ غيَّر اللهُ سبحانه ما بهم.

(٠/٠)

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ أي إن شرَّ ما يدبُّ على الأرضِ الذين جَحَدُوا بتوحيدِ الله ونبوَّةِ رسُلهِ ، مُصِرِّينَ على الكفرِ ، { فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ }.

(٠/٠)

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { الَّذِينَ عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ } نزلَتْ في يَهودِ بني قُريظةَ ، عَاهَدَهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أنْ لا يضُرُّوا به ولا يُعِينُوا عليه عدُوّاً ، فَنَقَضُوا العهدَ وأعانوا أهلَ مكَّة بالسِّلاح على قتالِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ثُم قالوا : نَسِينَا وأخطَأْنا ، ثم عاهَدَهم مرَّة أُخرى ، فرَكِبَ كعبُ بن الأشرفِ إلى أهلِ مكَّة ، ووَاثَقَهُمْ على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقولهُ تعالى : { عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ } أي معَهُم ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ } ؛ أي لا يخَافُونَ اللهَ في نقضِ العهد.

(٠/٠)

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } ؛ معناهُ : فإما تصادِفَهم في الحرب ، فافْعَلْ بهم فِعْلاً من القتلِ والعُقوبَةِ والتَّنكيلِ تعرفُ بهم مَن ورائَهم من أعدائِكَ. والتَّشْرِيدُ : التَّبْدِيدُ والتَّفْرِيقُ ، ويقالُ : معنى (شَرِّدْ بِهِمْ) أي أسْمِعْ بِهِمْ بلُغَةِ قُريش.
وقال ابنُ عبَّاس : (فَشَرِّدْ بِهِمْ ، أيْ نَكِّلْ بِهِمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ) ، وقال ابنُ جُبير : (أَنْذِرْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ). وَقِيْلَ : اقتُلْهُم قَتْلاً ، وَقِيْلَ : أثْخِنْ فيهِمُ القتلَ حتى يخافَكَ غيرُهم من أهلِ مكَّة وأهلِ اليَمَنِ. وقال القُتَيبيُّ : (سَمِّعْ بِهِمْ) وقرأ ابنُ مسعود (فَشَرِّذْ) بالذالِ المعجَّمة وهما واحدٌ. وقال قُطرب : (التَّشْرِيدُ بالدَّالِ : التَّنْكِيلُ ، وَالذالِ : التَّفْرِيقُ). قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } أي لكَي يعتَبروا فَلا يَنقضُوا العهدَ الذي بينَكَ وبينهم مخافةَ أن يحِلَّ بهم مثلَ ما حلَّ ببني قُريظة.

(٠/٠)

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَآءٍ } ؛ أي إذا خِفْتَ من قومٍ بينَكَ وبينَهم عهدٌ وخيانةٌ في ذلك العهدِ من غَدْرٍ بالمسلمين ، أي عَلِمْتَ أنَّهم يفعلون ذلك بالمسلمين خِفْيَةً من غيرِ أن يظهرَ نقضُ العهدِ ، فَانْبِذِ العهدَ إليهم على سواءٍ منك ومنهم في العلمِ ، ولا تبدَأهم بالقتالِ من قبلِ أن تُعلِمَهُم إعْلاَماً بَيِّناً بأنَّكَ انقضتَ العهدَ.
والمعنى : إمَّا تعلَمَنَّ يا مُحَمَّدُ من قومٍ مُعاهِدين لكَ نَكْثَ عهدٍ ونقضَ عهدٍ يظهرُ لك من آثارِ الغدرِ والخيانة كما ظهرَ لكَ من بني قُريظة والنَّضِير ، فَانْبذْ إليهم ؛ أي فَاطْرَحْ إليهم عهدَهم على سواءٍ ؛ أي أخبرْهم وَأعْلِمْهُمْ قبلَ حَربكَ إياهم أنَّكَ فَسَخْتَ العهدَ بينَكَ وبينهم ، حتى تصيرَ أنتَ وهم على سواءٍ

في العلم بأنَّكَ لهم محاربٌ ، فيأخذُوا للحرب أُهْبَتَهَا وَتَبْرَأ من الغدرِ. وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ } ؛ أي لا يرضَى عملَ الذين يَخُونُونَ بالبَدْأةِ بالقتالِ من غيرِ أعلامٍ بنقضِ العهد.

(٠/٠)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ } ؛ أي لا تَظُنَّنَّ يا مُحَمَّدُ أن مَن أفلتَ من الكفار من هذه الحرب قد سبقَ إلى الحياةِ. ويقالُ : لا تَحْسَبَنَّ يا مُحَمَّدُ أنَّ أعداءَكَ من الكفار المشركين ربما يقولُون لكَ بأنْ لا يُظفِرُكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بهم ، بلِ اللهُ تعالى يُظهِرُكَ عليهم ويُظفِرُكَ.
وقرأ أبو جعفرٍ وأبنُ عامرٍ وحمزةُ وحفص بالياءِ على معنى لا تَظُنَّنَّ هؤلاءِ المشركين إنَّ من ماتَ منهم فقد فاتَ من الله عَزَّ وَجَلَّ ، وأنَّ اللهَ لا يبعثهُ يومَ القيامةِ ولا يعاقبهُ. وقرأ أهلُ الشام : (أَنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ) بالفتحِ ، وتكونُ (لاَ) صلةً تتقديرهُ : ولا تحسبَنَّ الذين كفَرُوا سَبَقُوا أنَّهم لا يُعجِزُونَ ؛ أي لا يَفُوتُونَ.
وقيل معناهُ : لأَنَّهُمْ ، وقرأ عامَّة القُرَّاء بالكسرِ على الابتداء.

(٠/٠)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)

وقَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ } ؛ أي أعِدُّوا للكفار ما استطعتُم من آلاَتِ الحرب.
وعن ابنِ عبَّاس وعقبة بن عامرٍ ؛ قَالَ : " قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْمِنْبَرِ { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ } ثُمَّ قَالَ : " أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، لَهْوُ الْمُؤْمِنِ فِي الْخَلاَءِ وَقُوَّتُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ " وَمَاتَ عُقْبَةُ فَأَوْصَى بِتِسْعِينَ قَوْساً مَعَ كُلِّ قَوْسٍ سِهَامُهَا فِي سَبِيلِ الله ، وَقَالَ عُقْبَةُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ اللهَ لَيُدْخِلُ الْجَنَّةَ الثَّلاَثَةَ سَهْمٌ وَاحِدٌ ، صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْخَيْرَ ، وَالْمُهْدِي لَهُ ، وَالرَّامِي بِهِ " وقالَ عليه السلام : " كُلُّ شَيءٍ يَلْهُوا بِهِ الرَّجُلُ بَاطِلٌ ، إِلاَّ رَمْيَةً بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ أَهْلَهُ ، فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ ".
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ

يَعْلَمُهُمْ } ؛ معناهُ : ارْتَبطُوا الخيلَ لَهم ولقتالِهم ؛ أي أعِدُّوا لَهم ذلك لتخويفِ عُدوِّ اللهِ وعدُوِّكم { وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ } أي مِن دون كُفَّار العرب وأهلِ الكتاب { لاَ تَعْلَمُونَهُمُ } أي لا تَعرِفُونَهُمْ. قال ابنُ عبّاس : (يَعْنِي كُفَّارَ الْجِنِّ) ، قَالَ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يَقْرُبُ صَاحِبَ قَوْسٍ جِنِّيٌّ أبَداً ". ويقالُ : إن الجنَّ لا تدخلُ بيتاً فيه قوسٌ ولا سلاحٌ.
قال السديُّ : (أرَادَ بِهِ أهْلَ فَارِسَ) ، وقال الحسنُ : (هُمُ الْمُنَافِقُونَ) ، وقال الضحَّاك : (هُمُ الشَّيَاطِينُ) ، ولا يمتنعُ أن يكونَ الكلُّ مرادٌ بالآيةِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ } ؛ أي ما تُنفقوا من شيءٍ في الجهادِ يوفَّ إليكم ثوابهُ ، { وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ } ؛ أي لا يُنقَصُ شيءٌ من حقِّكم.

(٠/٠)

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا } ؛ معناهُ : فإنْ مالَتْ يهودُ بني قريظةَ إلى الصُّلح فمِلْ إليهم وصالِحْهم ، فكان هذا قبلَ نُزولِ براءةَ ، ثم نُسِخَ بقولهِ : { فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ }[التوبة : ٥] وبقوله : { قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }[التوبة : ٢٩].
والسِّلْمُ والسَّلْمُ بالخفضِ والنصب ، وإنما قال { فَاجْنَحْ لَهَا } لأن السَّلم والْمُسَالَمَةَ بمعنى واحدٍ ، فردَّ الكنايةَ إلى المعنى. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } ؛ أي ثِقْ باللهِ تعالى إنْ نَقَضُوا العهدَ ، { إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ } ؛ بمقالَتِكم { الْعَلِيمُ } ؛ بما تفعلون.

(٠/٠)

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ } ؛ معناهُ : إنْ يُرِدِ الذين يطلبُون منكَ الصُّلح أنْ يخدَعُوكَ بإظهارِ الصُّلح لتَكُفَّ عنهم إلى أن يتَقَوَّوا بغيرِكَ ، فإنَّ اللهَ كافيكَ في حربهم وقتالِهم ، { هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } ؛ أي قَوَّاكَ يومَ بدرٍ بنصرهِ وقوَّاكَ بالمؤمنين ، وهم الأوسُ والخزرجُ.

(٠/٠)

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)

وقولُه تعالى : { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } ؛ أي جَمَعَهم على الْمَوَدَّةِ في الإيمانِ ، وقولُه تعالى : { لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّآ أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ } ؛ أي ما قَدَرْتَ على جمعِ قُلوبهم على الأُلْفَةِ ، { وَلَاكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ } ؛ في سُلطانِهِ لا يقدرُ أحدٌ أن يَغْلِبَهُ ويمنعَهُ عن مُرادِهِ ، { حَكِيمٌ } ؛ يضعُ الأمورَ في موضعِها.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ } ؛ أي كافِيكَ اللهُ ، { وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } ؛ نزلَتْ في البيداء في غَزوَةِ بدرٍ. وَقِيْلَ : لَمَّا أسلمَ عمرُ رضي الله عنه نزلَ { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }.
وقال بعضُ المفسِّرين : موضعُ (مَنْ) خفْضٌ عطفاً على الكافِ في قولِهِ { حَسْبُكَ اللَّهُ } أي وحسبُ مَنِ اتَّبعَكَ. وقال بعضُهم : موضعهُ رفعٌ عطفاً على اسمِ الله ؛ أي حسبُكَ اللهُ ومَتبُوعُكَ مِن المؤمنين. قِيْلَ : إن هذه الآية قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } نزلَتْ في البيداءِ في غَزوةِ بدرٍ قبلَ القتالِ.

(٠/٠)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا

فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ } ؛ أي رَغِّبْهُمْ في القتالِ ، والتَّحريضُ : الترغيبُ في الشيءِ بما يدعُو إليه نحوُ وعدِ الثواب على القتالِ والتنفيلُ عليه ، وقولهُ تعالى : { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ } ؛ هذا وعدٌ من اللهِ ؛ أي يُقَوِّي واحداً من المسلمين المنتَصِرين في الدِّين على عشرةٍ من الكفَّار ، ويقوِّي مائةً صابرةً محتسبة على ألْفٍ من الكفَّار.

وقولهُ تعالى : { بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } ؛ أي ذلك النصرُ من اللهِ لكم على الكفَّار وخُذلانُهم بأنَّكم تفقهونَ أمرَ اللهِ وتصدِّقُونه فيما وعدَهُ من الثواب ، والكفارُ لا يفقهون ذلك ولا يصدِّقونه.

قال ابنُ عبَّاس : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَبْعَثُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ يُقَاتِلَ الرَّجُلُ مِنْهُمُ الْعَشَرَةَ مِنَ الْكُفَّار ، وَالْمِائَةُ مِنْهُمْ الأَلْفَ مِنَ الْكُفَّارِ كَمَا أَمَرَ اللهُ ، فَلَمَّا أَمَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ بِقتالِ الْكُفَّارِ ببَدْرٍ وَكَانَ فَرَضَ الْقِتَالَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا ذكَرَ اللهُ فِي هَذِه الآيَةِ ، شُقَّ ذلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى :

قَوْلُهُ : { الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً } ؛ أي الآنَ هَوَّنَ اللهُ عليكم القتالَ الذي فرضَهُ عليكم وسهَّلَ الأمرَ عليكُمْ لتَعرِفُوا فتشكُروا ، وعَلِمَ فِي الأزلِ أن في الواحدِ منكم ضَعْفاً عن قتالِ العشرةِ ، والمائةِ عن قتالِ الألفِ). وَقِيْلَ : عَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً في النُّصرة في أمرِ الدِّين.

قرأ عاصمُ وحمزة وخلَف (ضَعْفاً) بفتح الضاد ، وقرأ الباقون بضَمِّها أي عَجْزاً عما فرضَ عليكم ، ومَن قرأ (ضَعفاً) فمعناه شيوخاً وضعافاً ، وقرأ أبو جعفر (ضُعَفَاءَ) بضمِّ الضادِ وفتح العين والمدِّ وهمزة من غيرِ تنوينٍ على جمعِ ضَعيف مثل شُرَكاءَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } ؛ أمرَ اللهُ بأنَّ الواحدَ يثبتُ للاثنين وضَمِنَ له النصرَ عليهما. قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ } ؛ أي بأمرِ اللهِ ، { وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ } ؛ أي مُعِينٌ لَهم ، قال ابنُ عبَّاس : (مَنْ فَرَّ مِنْ رَجُلَينِ فَقَدْ فَرَّ ، وَمَنْ فَرَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ لَمْ يَفِرَّ).

وهذا إذا كان للواحدِ المسلمِ من السِّلاح والقوَّة مثلَ ما لكلِّ واحدٍ من رجُلين من الكافرين كان فَارّاً ، فأما إذا لم يكن ، لم يَثبُتْ حُكم الفرارِ.

(٠/٠)

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ } أي يكون له أسْرَى من المشركين فيفاديهم أو يَمُنَّ عليهم ، ولكن السَّيفَ حتى يُمكِنَ في الأرضِ لا بد من القتال ، فيقتلُ منهم قَتْلاً ذريعاً ليَرتَدِعَ مَن وراءَهم. والإثخانُ في كلِّ شيء : شِدَّتُهُ ، يقالُ : أثْخَنَهُ المرضُ إذا اشتدَّ قوتهُ عليه ، وكذلك أثْخَنَتْهُ الْجِرَاحُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا } ؛ خطابٌ للذين أسرَعُوا في أخذِ الغنائِمِ وشَغَلُوا أنفُسَهم بذلك عن القتالِ ، وذلك أنَّهم لَمَّا كان يومُ بدرٍ تعجَّلَ ناسٌ من المسلمين فأصَابُوا من الغنائِمِ ، ومعناه : تريدون بالقتالِ المالَ ، وسَمَّاهُ عَرَضاً لِقِلَّةِ لُبْثِهِ. وقولهُ تعالى : { وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ } ؛ أي يريدُ منكم العملَ بما تستحقُّون به ثوابَ الآخرةِ ، { وَاللَّهُ عَزِيزٌ } ؛ أي مَنِيعٌ في سُلطَانِهِ ، { حَكِيمٌ } ؛ في أمْرِهِ وقضائِهِ ، فاعمَلُوا ما أمَرَكم به.

(٠/٠)

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } ؛ أي لَولاَ حُكمٌ من اللهِ سبقَ في إباحةِ الغنائمِ لَمسَّكُم فيما استبَحتُم قبلَ الإثخانِ عذابٌ عظيم. وَقِيْلَ : لولا كتابٌ مِن الله سبقَ في أهلِ بدر أن يغفرَ اللهُ لَهم ما تقدَّم من ذُنوبهم وما تأخَّرَ. وَقِيْلَ : معناهُ : لولا حكمُ اللهِ في اللُّوحِ المحفوظِ وفي القرآنِ أنه لا يعذِّبُ قوماً حتى يُبيِّن لهم ما يتَّقون لأصابَتْكم عقوبةٌ عظيمة.

وعن ابنِ عبَّاس أنه قالَ في هذه الآيةِ : (وَذلِكَ أنَّهُ لَمَّا قَتَلَ أصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبْعِينَ وَأسَرُواْ سَبْعِينَ ، اسْتِشَارَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أصْحَابَهُ فِي أمْرِ الأُسَارَى ، فَقَالَ أبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : يَا رَسُولَ اللهِ هُمْ قَوْمُكَ ، فَإنْ تَقْتُلْهُمْ يَدْخُلُوا النَّارَ ، وَلَكِنْ فَادِهِمْ فَيَكُونَ الَّذِي تَأْخُذُ مِنْهُمْ قُوَّةً لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَعَلَّ اللهَ يُقَلِّبُ قُلُوبَهُمْ. وَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا أعْلَمُ قَوْماً كَانُوا أشَرَّ لِنَبِيِّهِمْ مِنْهُمْ فَاقْتُلْهُمْ.

فَأَخَذ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وسلم برَأي أبي بَكْرٍ ، ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمَا مَثَلاً فَقالَ : " مَثَلُ أبي بَكْرٍ مَثَلُ إبْرَاهِيمَ عليه السلام حَيْثُ قَالَ : { فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [إبراهيم :

٣٦] ، وَمَثَلُ عُمَرَ مَثَلُ نُوحٍ عليه السلام حَيْثُ قَالَ : { رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً } [نوح : ٢٦] " ثمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْفِدَاءَ عَلَى الأَسَارَى ".

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ... }[الأنفال : ٦٧] إلى آخِرِ الآيَتَيْنِ ، " قَالَ عُمَرُ : فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَعِنْدَهُ أَبُو بَكْرٍ يَبْكِيَانِ ، فَقُلْتُ : مَا يُبْكِيكُمَا؟! حَتَّى الأَرْضُ إن وَجَدَتْ بُكَاءً لِبُكَائِكُمَا بَكَتْ مَعَكُمَا ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّمَا أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِ الْفِدَاءِ " ، ثُمَّ قَرَأَ عليه السلام { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى } [الأنفال : ٦٧] ".

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قالَ : " لَمَّا جِيءَ بالأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ قَالَ صلى الله عليه وسلم : " مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ ؟ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ اسْتَبْقِهُمْ لَعَلَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَخُذْ مِنْهُمْ فِدْيَةً تَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ. وَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ كَذبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ ، قَدِّمْهُمْ وَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، وَمَكِّنْ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبْ عُنُقَهُ ، وَمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ – بسَبَبٍ لَهُ – فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فإنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ. فَسَكَتَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ أُنَاسٌ : نَأْخُذُ بقَوْلِ أبي بَكْرٍ ، وَقَالَ نَاسٌ : نَأْخُذُ بقَوْلِ عُمَرَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ ، وَإنَّ اللهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رجَالٍ حتَّى تَكُونَ أشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَإنَّ مَثَلَكَ يَا أبَا بَكْرٍ مَثَلُ عِيسَى قَالَ : { إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [المائدة : ١١٨] ، وَمَثَلَكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ مُوسَى قَالَ : { رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس : ٨٨] ، ثُمَّ قالَ صلى الله عليه وسلم لِلأُسَارَى : " أَنْتُمُ الْيَوْمَ عَالَةً فَلاَ يَنْقَلِبَنَّ أَحَدٌ إلاَّ بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْب عُنُقٍ " ثمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ } [الأنفال : ٦٧] ".

(٠/٠)

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)

قوله : { فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً } ؛ الفاءُ في أوَّل هذه الآيةِ للجزاء ، المعنى : أُحِلَّتْ لكم الغنائمُ فكُلوا. والطَّيِّبُ : الْمُسْتَلَذُّ ، ويوصفُ الحلالُ بذلك على التشبيهِ ، فإنَّ المستلذ لا يكون فيه كراهيةٌ في الطَّبعِ ، وكذا الحلالُ ما لا يكون فيه كراهيةٌ في الدُّنيا.

وقولهُ تعالى : { وَاتَّقُواْ اللَّهَ } ؛ أي اخْشَوْهُ ولا تفعَلُوا شيئاً لَمْ تُؤمَرُوا به ولم يرَخَّصْ لكم ، { إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ } ؛ لَمَا فرَّطَ منكم { رَّحِيمٌ } ؛ بكم إذا لم يعذِّبكم فيما فعلتُم قبل الرُّخصةِ.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { ياأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } قال ابنُ عبَّاس : (وَذلِكَ " أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا وَضَعَ الْفِدَاءَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الأُسَارَى أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً مِنْ ذهَبٍ ، وَجَعَلَ عَلَى عَمِّهِ الْعَبَّاسِ مِائَةَ أوْقِيَّةً ، قالَ الْعَبَّاسُ : أتَجْعَلُ عَلَيَّ مِائَةَ أوْقِيَّةٍ وَعَلَى عَدُوِّكَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو أرْبَعِينَ أوْقِيَّةً ؟ قال : " نَعَمْ ؛ لِقَطْعِكَ الرَّحِمَ وَلِظُلْمِكَ قَالَ : تَرَكْتَنِي وَاللهِ أسْأَلُ قُرَيْشاً مَا بَقِيتُ ، فَكَيْفَ تَتْرُكُ عَمَّكَ يَسْأَلُ النَّاسَ بكَفَّهِ؟!

فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : وَأيْنَ الذهَبُ الَّذِي أعْطَيْتَهُ أمَّ الْفَضْلِ عِنْدَ مَخْرَجِكَ ؟ فَقُلْتَ : إنْ حَدَثَ بي حَدَثٌ فِي وَجْهِي هَذا فَهُوَ لَكَ وَلِعَبْدِاللهِ وَقُثَمٍ وَلِلْفَضْلِ " قَالَ : وَمَا يُدْرِيكَ؟! قَالَ : " أخْبَرَنِي اللهُ بذلِكَ " فَقَالَ : أشْهَدُ أنَّكَ صَادِقٌ وَإنِّي لَمْ أعْلَمْ أنَّكَ رَسُولُ اللهِ قَطُّ قَبْلَ الْيَوْمِ ، وَإنِّي دَفَعْتُ إلَيْهَا الذهَبَ وَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ إلاَّ اللهُ ، وَأنَا أشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَأنَّكَ رَسُولُ اللهِ. فَأَسْلَمَ وَأَمَرَ ابْنَ أخِيهِ أنْ يُسْلِمَ " ، فأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَةَ).

ومعنَاها : يَا أيُّها النبيُّ قُلْ للعبَّاس وعقيل وغيرِهم من الأُسَارَى : إنْ يعلَمِ اللهُ في قلُوبكم رغبةً في الإيمان وإخْلاَصاً في النيَّة ، يُؤتِكُمْ خيراً مما أخذ منكم من الفديةِ. يجوزُ أن يكون المعنى : يَخْلِفُ عليكم في الدُّنيا ، ويجوز أن يكون : ويُجازيكُم في الآخرةِ.

وكان العباسُ أحدَ الثلاثة عشر الذين ضَمِنُوا طعامَ أهلِ بدر ، فخرجَ معهم بعشرين أوقِيَّةً من ذهبٍ ليُطعِمَ بها الناسَ ، ولم تبلُغْهُ نوبةُ الإطعامِ حتى أُسِرَ وأُخِذ وهي معه فأخذُوهَا منه ، " فلما وضعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على العبَّاسِ الفداءَ مِائَةَ أوقِيَّةٍ قَالَ : (يَا مُحَمَّدُ احْتَسِبْ لِيَ بالْعِشْرِينَ أوْقِيَّةً مِنْ فِدَائِي). فأَبَى وَقَالَ : " أمَّا شَيْءٌ خَرَجْتَ تَسْتَعِينُ بهِ عَلَيْنَا فَلاَ أتْرُكُهُ لَكَ ".

فَلَمَّا أسْلَمَ العباسُ كان إذا قرأ هذه الآية قال : (صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ قَدْ أعْطَانِي خَيْراً مِمَّا أخَذ مِنِّي ، أبْدَلَنِي مَكَانَ الْعِشْرِينَ أوْقِيَّةً الَّتِي أُخِذتْ مِنِّي عِشْرِينَ مَمْلُوكاً ، كُلُّ مَمْلُوكٍ يَضْرِبُ بعِشْرِينَ ألْفاً فِي التِّجَارَةِ ، وَأعْطَانِي زَمْزَمَ مَا أُحِبُّ أنَّ لِي بهَا جَمِيعَ أمْوَالِ أهْلِ مَكَّةَ ، أنْجَزَ لِي أحَدَ الْوَعْدَيْنِ ، وَأنَا أرْجُو أنْ يُنْجِزَ لِيَ الْوَعْدَ الثَّانِي ، أنْتَظِرُ الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِي).

وعن العلاءِ بن الحضرميِّ رضي الله عنه أنَّهُ بَعَثَ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْبَحْرَيْنِ ثَمَانِينَ

ألْفاً ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : (أعْطِنِي مِنْ هَذا الْمَالِ) فأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا أطَاقَ حَمْلَهُ ، فَجَعَلَ الْعَبَّاسُ يَقُولُ : (أمَّا إحْدَى اللَّتَيْنِ وُعَدَنَا اللهُ فَقَدْ أنْجَزَهَا ، فَلاَ نَدْري مَا يَصْنَعُ بالأخْرَى). يعني { يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ }.

(٠/٠)

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ } معناهُ : وإنْ يُرِد الذين أطلَقْتَهم من الأُسارَى خِيَانَتَكَ بأن يُعِيدُوا حَرْباً لك وينصُروا عدُوَّكَ عليك ، فقد خَانُوا اللهَ من قَبْلُ بمخالفةِ ما أخذ عليهم من العهُودِ ، وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ عاهدَ الذين أطلقَهم على أن لا يُعِينُوا عليه فخَانُوه وخالَفُوا ، وقوله تعالى { فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ } أي فأمكنَكَ منهم يومَ بدرٍ ، وإنْ خانوكَ فَسَيُمَكِّنُكَ منهم ثانياً ، { وَاللَّهُ عَلِيمٌ } ؛ بكل شيءٍ ، { حَكِيمٌ } ؛ في كلِّ ما يفعلُ.

(٠/٠)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } ؛ أي إن الذين آمَنوا بتوحيدِ اللهِ وبمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم والقُرآنِ وهاجَرُوا من مكَّة إلى المدينةِ وجاهَدُوا العدوَّ بأموالِهم وأنفُسِهم في طاعةِ اللهِ.
ثُمَّ ذكرَ اللهُ الأنصارَ فقال : { وَالَّذِينَ آوَواْ } ؛ النبيَّ والمهاجرين معَهُ أعطَوهُم المأوَى وأنزَلُوهم ديارَهم ، { وَّنَصَرُواْ } ؛ أي أعَانُوهم بالسَّيْفِ على الكفَّارِ ، { أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } ؛ أي أنصارُ بعضٍ في الدِّين والمواريثِ.
قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ } ؛ أي والذين صدَّقُوا من أهلِ مكَّة في ديارِهم ولَم يُهاجِرُوا

إلى المدينةِ ، { مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ } ؛ أي ليس بينَكُم وبينهم ميراثٌ ، { حَتَّى يُهَاجِرُواْ } ؛ وإطلاقُ لفظ الموالاةِ يقتضي التوارثَ في الجملةِ ، وإن كان بعضُ أسباب الموالاة أوكدَ من بعضٍ.

قال ابنُ عبَّاس : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ وَأُنَاسٌ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالُواْ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ لاَ يَرِثُنَا إخْوَانُنَا وَهُمْ عَلَى دِينِنَا مِنْ أجْلِ أنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا ؟ فَهَلْ نُعِينُهُمْ عَلَى أمْرٍ إن اسْتَعَانُونَا عليْه ؟ فَأنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : { وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ }.

معناهُ : وإن قاتَلَهم الكفارُ ليَردُّوهُم عنِ الإسلامِ فانصرُوهم ، { إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ } ؛ إلاَّ أن يقاتِلُوا قوماً ، { بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ } ؛ فاستنصرُوكم عليهم فلَم تقاتِلُوهم معهم ، بل عليهم أن يكُفُّوا عن طلب النُّصرة منكم لهم عليهم ؛ لأنه أمانٌ ، وأمانُ واحدٍ من المسلمين يلزمُ كافَّتهم ، فيجبُ الإصلاحُ بينهم على غيرِ وجه القتال. وقولهُ تعالى : { وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } ، أي بصيرٌ بأعمالِكم ، يجازِيكم عليها.

قال ابنُ عبَّاس : فَمَكَثُواْ عَلَى هَذا مَا شَاءَ اللهُ إنْ يَمْكُثُواْ ، ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } ؛ أيْ أنْصَارُ بَعْضٍ فِي الدِّينِ ، وَبَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الْمِيرَاثِ. يعني أنَّ الكافرَ لا يرثُ المؤمنَ الذي لم يهاجِرْ ، بلِ الكافرُ يرثُ من الكافرِ ، والمؤمنُ يرِثُ المؤمنِ ، فصارت هذه الآيةُ ناسخةً للتي قبلَها.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } أي إلاَّ تفعلُوا ما أمَرتُكم به ولم تُورِثُوا الأعرابيَّ الذي لَمْ يهاجِرْ من المهاجرِ ، ولم تجعلُوا وولايةَ الكافرِ للكافر وولايةَ المؤمن للمؤمنِ ، { تَكُنْ فِتْنَةٌ } أي بالْمَيْلِ إلى الضَّلالةِ وفسادٍ في الدِّين ، فإن الكفارَ بعضُهم أولياء بعضٍ.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَائِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً } ؛ أي أولئكَ الذين حقَّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ وإقامة الجهادِ في سبيلِ اللهِ. وَقِيْلَ : معناهُ : أُولئك الذين حقَّقَ اللهُ إيمانَهم بأن أثْنَى عليهم ومَدَحَهم في كتابِهِ. قَوْلُهُ تَعَالَى : { لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ } ؛ لذُنوبهم { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } في الجنَّة بأن يطْعِمَهم طَعاماً يصير كالْمِسْكِ رَشَحاً ولا يستحيلُ في أجوافِهم نَجْواً.

(٠/٠)

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَائِكَ مِنكُمْ } معناهُ : والذين آمَنُوا من بعدِ المهاجرين السَّابقين ، وهاجَرُوا إلى المدينةِ وجاهَدُوا معَكم الكفارَ ، فأولئكَ منكم في الدِّن والنُّصرةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } ؛ أي أن الأقاربَ بعضُهم أولَى ببعضٍ في الميراثِ من غيرِهم ، هاجَرُوا أو لم يُهاجِرُوا إذا كانوا مُسلِمِينَ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : { فِي كِتَابِ اللَّهِ } ؛ يجوزُ أنْ يكون المرادُ بالكتاب القُرْآن ، ويجوز أن يكون معناهُ في اللوحِ المحفوظ ، ويجوز أن يرادَ بالكتاب الْحُكْم ، كما قَالَ اللهُ تَعَالَى : { كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ }[المجادلة : ٢١] أي حَكَمَ اللهُ ، وقولهُ تعالى : { إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } ؛ أي عليمٌ بكلِّ ما فَرَضَ من المواريثِ وغيرِ ذلك.

قال قتادةُ : (وَذلِكَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم آخَى بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ، وَكَانُواْ يَتَوَارَثُونِ بالإِسْلاَمِ وَالهِجْرَةِ ، وَكَأنَ الرَّجُلُ يُسْلِمُ وَيُهَاجِرُ ، وَكَانَ لاَ يَرِثُ أخَاهُ) ، فَنَسَخَ اللهُ ذلِكَ بقَوْلِهِ : { وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ } وَصَارَتِ الْوِرَاثَةُ بالْقَرَابَةِ كَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي سُورَةِ النِّساءِ ، وَقَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : " لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ".

وعن أبَيِّ بن كعبٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأ سُورَةَ الأَنْفَالِ وَالتَّوْبَةِ فأَنَا لَهُ شَفِيعٌ وَشَهِيدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ النِّفَاقِ ، وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ بعَدَدِ كُلِّ مُنَافِقٍ وَمُنَافِقَةٍ ، وَرُفِعَ لَهُ بهَا عَشْرُ دَرَجَاتٍ ".

(٠/٠)

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١)

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : { بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ } أي هذهِ مِن اللهِ ، فيكون رَفعاً على الابتداءِ ، ويجوزُ أن يكون (بَرَاءَةٌ) رَفعاً بالابتداءِ ، وخبرهُ : { إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُ }. والبراءةُ : رفعُ العِصمَةِ ، يقالُ : فلانٌ بريءٌ من فلانٍ ، وبرِيءَ اللهُ مِنَ المشركين. وإنما ذكرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ من العهدِ ؛ لأنَّ المشركين كانوا ينقضُونَ العهدَ قبلَ الأجَلِ ، ويُضمِرُونَ الغدْرَ ، فأمرَ اللهُ بنَبْذِ العهدِ

إليهم ، إما بخيانَةٍ مَستُورَةٍ ظهرت أمَارَتُهَا منهم ، وإما أن يكون شرطُ النبيِّ عليه السلام لنَقضِهم في العهدِ أنْ يُقِرَّهُم ما أقرَّهم اللهُ.

فأما تركُ البسملةِ في أوَّل هذه السُّورة ، فقد رُوي أنَّ أُبَيَّ بن كعبٍ سُئِلَ عن ذلكَ فقال : (لأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَأْمُرُ أوَّلَ كُلِّ سُورَةٍ (بسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وَلَمْ يَأْمُرْ فِي سُورَةِ الْبَرَاءَةِ بذَلِكَ ، فَضَمَّتْ إلَى الأَنفَالِ لِشَبَهِهَا بهَا) يعني أنَّ أمرَ العُهودِ مذكور في الأنفالِ ، وهذه السُّورة نزلَتْ بنقضِ العهُودِ. سُئل عليٌّ رضي الله عنه عن هذا فقالَ : (لأَنَّ هَذِهِ السُورَةَ نَزَلَتْ فِي السَّيْفِ ، وَلَيْسَ لِلسَّيْفِ أمَانٌ ، وَبسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنَ الأَمَانِ ، ولأَنَّ الْبَسْمَلَةَ رَحْمَةٌ ، وَالرَّحْمَةُ أمَانٌ ، وَهَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَتْ بالسَّيْفِ وَلاَ أمَانَ فِيْهِ).

(٠/٠)

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى : { فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } ؛ أي سِيرُوا في الأرضِ على الْمَهْلِ وأقْبلُوا وأدبرُوا في الأرضِ إلى أن يمضيَ أربعةٌ. وَقِيْلَ : هو على الخطاب ؛ أي قُل لَهم سيرُوا في الأرضِ مُقبلِينَ ومُدبرِينَ آمِنِينَ غَيرَ خائفِين من قَتْلٍ ولا أسْرٍ ولا نَهْبٍ.

ويقالُ : إن قولَهُ : { فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ } بيانُ أن هذا السَّيْحَ المذكورَ في أوَّل هذه السورةِ إنَّما هو بعدَ أربعةِ أشهرُ ، فإنَّ عهدَ الكفَّار باق إلى آخرِ هذه المدَّة. قال الحسنُ : (أمَرَ اللهُ نَبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أنْ يَنْظُرَ فِي عُهُودِ الْكُفَّارِ ، فَيُقِرَّ مَنْ كَانَ عَهْدُهُ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ عَلَى عَهْدِهِ أنْ يَمْضِي ، وَيَحِطَّ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ أكْثَرَ مِنْ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ ، وَيَرْفَعَ عَهْدَ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ قَبْلَ أرْبَعَةِ أشْهُرٍ فَيَجْعَلَهُ أرْبَعَةَ أشْهُرْ).

واختلَفُوا في هذهِ الأربعة أشهُر ، قال بعضُهم : من عشرين ذِي القِعدَةِ إلى عِشرين من رَبيع الأوَّل.

ورُوي في الخبرِ : أنَّ مكَّة فُتحت في سنةِ ثَمانٍ من الهجرة ، ووَلَّى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عتَّابَ بن أُسَيدٍ الوقوفَ بالناسِ في الموسمِ ، واجتمعَ في تلك السَّنة في الوقوفِ المسلِمُون والمشركون. " فلمَّا كانت سنةُ تسعٍ ولَّى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أبَا بكرٍ وبعثَ معه عشرَ آياتٍ من أوَّلِ براءةً أو تسعِ آياتٍ ، وأمرَهُ أن يقرَأها على أهلِ مكَّة ، وينبذَ إلى كلِّ ذِي عهدٍ عهدَهُ كما وصفَ اللهُ تعَالَى ، فلمَّا خرجَ أبُو بكرٍ رضي الله عنه منها إلى مكَّة ، نزلَ جبريلُ عليه السلام فَقَالَ : للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : " لاَ يُبَلِّغُ عَنْكَ إلاَّ رَجُلٌ مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ " فدَعَا عَلِيّاً رضي الله عنه وأمَرَهُ بالذهاب إلَى مكَّةَ ، وقال : " كُنْ أنْتَ الَّذِي يَقْرَأ هَذِهِ الآيَاتِ عَلَى أهْلِ مَكَّةَ ، وَمُرْ أبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاس ". فسارَ حتى لَحِقَ أبا بكرٍ رضي الله عنه في الطريقِ ، فأخبرَهُ بذلك فمَضَيَا ، وكان أبُو بكرٍ على الموسِمِ ".

فلمَّا كان يومُ النحرِ واجتمعَ المشركونَ ، قام عليٌّ رضي الله عنه عند جمرةِ العَقَبَةِ وقالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ إنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلَيْكُمْ) فَقَالُواْ : بمَ ذَا ؟ فقرأ عليهم (بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ...) إلى آخرِ الآياتِ التي نزلَتْ.

وكان الحجُّ في السنَّة التي قرأ عليٌّ رضي الله عنه فيها هذه السُّورةَ في العاشرِ من ذي القعدَةِ ، ثم صارَ الحجُ في السَّنة الثانيةِ في ذي الحجَّة ، وكان السببُ في تقديمِ الحجِّ في سَنَةِ العهدِ ما كان يفعلهُ بنو كِنَانَةَ في النَّسِيءُ وهو التأخيرُ. وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الأربعةَ الأشهر المذكورة في هذهِ الآيةِ هي : شوَّال وذُو القعدة وذو الحجَّة والمحرَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ } ؛ أي غيرَ فائِتِين عن اللهِ بعدَ الأربعةِ الأشهر ، فإنَّكم إنْ أجَّلتُم هذه الأشهرَ فلن تفُوتُوا اللهَ تعالى. وقولهُ تعالى : { وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ } ؛ أي معذِّبَ الكافرين في الدُّنيا بالقتل في الآخرةِ بالنار. والإخْزَاءُ : هو الإذلاَلُ على وجههِ الأدْوَنِ.

(٠/٠)